تاريخ الخرطوم

الدكتور محمد ابراهيم أبو سليم



دار الجيل
بيروت - لبنان



تاريخ الخرطوم

الدكتور محمد ابراهيم أبو سليم

دار الجيل
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الثانية

١٣٩٩هـ ١٩٧٩م

مقدّمة

صدر الطرف الاكبر من هذا الكتاب في مجلة الخرطوم التيتصدرها وزارة الارشاد القومي بالسودان ، وأذكر أن زارني عند أول صدور المجلة محررها الصديق قيلى أحمد عمر وأبدى رغبته الشديدة في أن يكون بالمجلة شيء عن الخرطوم • وكنت أعلم أن باحثا أمريكيا قد نشر كتابا عن امتداد من امتدادات الخرطوم وهو بري اللاماب ، وكان العزم أول الامر ان نبحث عن مقال أعده أحد اساتذة الجامعة عن هذا الكتاب • غير أن المقال كان باللغة الانجليزية مع ان المجلة تصدر باللغة العربية ، فضلا عن ان أصل البحث لم يكن متوفرا • وفي اثناء ذلك طلب الى الاستاذ قيلى أن أعد بنفسي مقالا وزين الى الامر وهونه ، وكان ان كتبت المقال الاول والذي ظهر في العدد الثاني من المجلة • وكان من المقدر عندي أن أقف عنده • غير أن الاستاذ قيلى استزادني وألح في الامر • وكنت في داخل نفسي أريد أن أرى لنفسي شيئا منشورا • وهكذا مضتالمقالات تباعا شهرا بعد شهر حتى بلغت ما بلغت •

وفي نفس الوقت نشر استاذنا حسن نجيلة كلمة في العدد الاسبوعي من جريدة الرأي العام مرحبا بمقالي وحث على أن اتابع الكتابة وأن أجمع ما أنشر في كتاب • وظهر ان لموضوع المقالات اصدقاء ، اذكر منهم صديقنا المرحوم سليمان كشة الذي أمدني بعدد من المصادر وصديقنا المبارك ابراهيم الذي كان يناقشني في بعض النقاط وينبهني الى نقاط جديدة ، وقد وضح بعد سنوات أن للمبارك كتابا في تاريخ السودان وهو أمر لم يذكره لي مع أنه أمدني ببعض مصادره • ولعله خشى ان اتوقف عن الكتابة ان ادركت وجود كتاب له •

وليس عندي ما اكافيء به هؤلاء الاصدقاء الا أن أسجل لهم عرفاني بجميلهم وما أحمله لهم من ود خالص ٠

وقد تسنى لي وأنا بالقاهرة أن أقف على مصادر لم تتوفر لي بالخرطوم ، مثل كتاب المبارك ابراهيم الذي عثرت عليه بدار الكتب المصرية وكان أهم ما وقفت عليه مجموعة الخرط وعدد من الوثائق كانت ضمن المكاتبات المتبادلة بين ولاة مصر وحكام عام السودان ، وهي محفوظة بدار الوثائق القومية العربية بالقلعة بالقاهرة ٠ وينبغي ان اعترف بأني اعتمدت على نسخ ترجمها موظفون بالدار من أصلها التركي الى اللغة العربية ٠ وقد وجدت اشارات الى بعض الوثائق عن الخرطوم في الملخصات ولكني لم أجد الوثائق المقابلة ٠ وكان أكثر ذلك وقعا على نفسي وثيقة اعتبرها هامة في تحديد تاريخ اختيار الخرطوم عاصمة ، لان الملخص يقول (محمد علي يوافق على اختيار الخرطوم) بينما لا توجد الوثيقة المقابلة لهذا الملخص ٠

وقد تسنى لي أن اعيد النظر في بعض ما كتبت على ضوءالحقائق الجديدة التي وقفت عليها في دار الوثائق ودار الكتب المصرية ٠ ولذلك فان قراء مجلة الخرطوم سيجدون اختلافا بين هذا الكتاب وبين ما نشرت في تلك المجلة ٠

وانني لاود أن أشكر كل من عاونني في اعداد هذا الكتاب وأخص بالشكر صديقنا قيلي أحمد عمر واستاذنا حسن نجيلة والشاطر بصيلي عبد الجليل والمبارك ابراهيم والمرحوم سليمان كشه والزميلة خديجة زروق وزميلي وداعة حسين ومحمد صالح حسن ودار الوثائق المركزية بالسودان وأمين مكتبة جامعة الخرطوم ومدير دار الكتب المصرية ومدير دار الوثائق القومية العربية ٠

محمد ابراهيم أبو سليم
القاهرة ١١/ يوليو ١٩٧٠

من القديم الى العهد التركي

الخرطوم عاصبة السودان الحديث ، وريث مجد سوبا عاصمة مملكة علوه المسيحية وقرى عاصمة مشيخة العبد لاب ، عندها يلتقي النيل الابيض والنيل الازرق ومنها يبدأ النيل الكبير مجراه المبارك الى الشمال . وفد اليها مع غروب شمس سوبا جماعة من المحس فعمروا توتي ، ومن توتي عبر ولي من أوليائهم النهر ونزل الخرطوم ليبني فيه منزلا وخلوة يرتادها الصبيان ، ومع نار العلم التي اوقدها هذا الولي بدأ عمران الخرطوم . وظل المكان لعقب الولي من الولد والجيران ومن اجتمع اليهم حتى غربت شمس دولة الفونج ولما جاء الترك بنوا عاصمتهم في الخرطوم عوضا عن سنار عاصمة الفونج الاولى . وكان انشاء الخرطوم من أعظم انجازات الترك الباقية . ثم قامت دولة المهدية لتهدم كل ما شيّده الترك وهدمت فيما هدمت مدينة الخرطوم وبنت فيما بنت مدينة أم درمان واتخذتها عاصمة . وجاء الحكم المصري الانجليزي ليعيد للخرطوم مجدها الغابر ويتخذها عاصمة للبلاد .

الموقع :

تقع مدينة الخرطوم على الضفة اليسرى للنيل الأزرق ممتدة من نقطة التقائه بالنيل الأبيض الى الشرق حتى الجريف ومتسعة الى الجنوب حتى الضفة اليمنى للنيل الابيض . وهي في شكل مثلث رأسه عند التقاء النيلين وقاعدته الى الشرق مستقرة على النيلين الابيض والازرق. وموضعها عند خط عرض ٣٦ ١٥° شمالا وخط طول ٣٢ ٣٢ شرقا ، وعلى ارتفاع ١٣٥٢ قدما فوق سطح البحر . .

ومدينة الخرطوم تكون وحدة ادارية واحدة يتبع كلها بلدية الخرطوم . أما ما يقع وراءها فيتبع ريفي الخرطوم بحري . وقد اضيف

اليها حديثا امتداد الصحافة والشجرة والعزوزاب والجريف وغيرها • وهي آخذة في الاتساع مبتلعة كل عمران يقوم بالقرب منها •

وعلى الضفة اليسرى للنيل الابيض والنيل الكبير تقع مدينة ام درمان ممتدة شمالا وجنوبا وهي العاصمة التي اقامها الانصار عوضاً عن الخرطوم • وقد اعتبرت العاصمة الوطنية في العهد الثنائي ، وهي مدينة أفريقية صميمة •

وفي الطرف الثاني للنيل الأزرق مدينة الخرطوم بحري والتي نشأت أساسا حول محطة سكة الحديد في العهد الثنائي وابتلعت بعض المواضع القديمة كحلة حمد وحلة خوجلي وقصر راسخ وربما تمتد في المستقبل حتى تبلغ الحلفاية والكدرو • وتعد مدينة الخرطوم بحري المركز الصناعي الأول للقطر •

والمدن الثلاثة الخرطوم وامدرمان والخرطوم بحري متصلة بعدد من الكبارى وشبكة قوية من المواصلات ، ولكل منها مجلس بلدي خاص وهي مجتمعة نعرف بالعاصمة المثلثة ويمكن تسميتها بالخرطوم الكبرى •

وتقع الخرطوم وجاراتها في موضع يتوسط أقاليم تختلف في اقتصادياتها ، وقد جاء مولدها على أساس ارتباط هذه الاقاليم تجاريا واداريا كما سيأتي بعد •

الاسم :

اختلف الناس حول أصل اسم الخرطوم وساقوا عدة تفسيرات منها ما يبدو معقولا حتى يظنه المرء عين الصواب ومنها ما يبدو سخيفا حتى يود المرء لو تجنب ذكره • ومن الصعب أن يصل المرء الى نتيجة محددة أزاء هذه التفسيرات • ومصدر الصعوبة هو قدم الاسم بحيث يسبق تاريخ انشاء المدينة • ولو انه كان مما أطلق عند انشاء المدينة لاتضح لنا مصدر الاسم ومناسبته على نحو ما هو معروف الآن عن القاهرة وبورسودان وسرمن رأى والفاشر والاسماعيلية ولكن المدينة اخذت اسم الموضع القديم ، وليس يعرف بالتحقيق ان كان هذا الاسم عربيا

أو نوبيا أو مرويا أو من لغة غير هذه وتلك • وربما كان الرأي بان بعض أسماء المواضع لا تفسير لها الزم بان يؤخذ هنا ومع ذلك لا بد لنا من أن نستعرض بعض الآراء والتفسيرات اتماما للفائدة •

ذكر قرانت واسبيك المكتشفان لمنابع النيل ان الاسم مأخوذ من القرطم ، وهو نبات تكثر زراعته في مصر وكان يستعمل زيته للاضاءة•

وقال بعض الظرفاء انه في الاصل خور النوم ثم حرف الى الخرطوم، وذهب آخرون الى ان اللفظ يعني في لغة الشلك ، وبعضهم قال لغة الدينكا ، المكان الذي تجتمع عنده العيون والانهر • وقالوا ان الشلك أو الدينكا ، قد أطلقوا هذا الاسم على المكان لان النيل الابيض والنيل الازرق يلتقيان فيه ويكونان النيل الكبير ويجد هذا الرأي حماسا عظيما عند بعض أبناء الجنوب لما يظنون أن اجدادهم كانوا يستوطنون هذه الديار حتى انحسروا جنوبا تحت ضغط القبائل العربية وهذا وهم وخيال ••

فقد كانت عاصمة الفونج في سنار وكانت سلطنة الفونج خالصة للفونج والعرب ولا يعرف في تاريخهم ان الزنوج كانوا يستوطنون الخرطوم أو أي بقعة شمال النيل • وقبل سلطنة الفونج كانت مملكة النوبة العليا ، وكانت عاصمتها سوبا على بعد أميال قليلة من الخرطوم • اذا كانت الخرطوم تقع في قلب مملكة النوبة المسيحية العليا ولا يعقل أن تكون امتدادا للاقاليم التي يسكنها الزنوج الوثنيون ، واذا صح ان الشلك كانوا في تاريخهم يمتدون الى الشمال فلا بد أن يكون ذلك قبل قيام هذه الدولة • ومن المشكوك فيه انهم كانوا يمتدون شمالا حتى الخرطوم • واذا تركنا هذا جانبا فاننا نجد ان الناس قد أطلقوا على المكان الذي يلتقي فيه النيلان الابيض والازرق لفظ المقرن الذي يدل على هذه الصفة وهو أحرى بان يحمل معنى اللفظ الزنجي الذي يعني التقاء العيون والانهر •

وكنت في مقال نشرته في مجلة الخرطوم قد رجعت باللفظ الى أصل نوبي ، وكان رأيي هذا بقوم على قرب الموضع الى عاصمةالمملكة

النوبية العليا مما يعطي احتمالا لوجود اسم عرف بـه في ذلك الزمـان وهو احتمالا الخرطوم ووجود قرية بهذا الاسم في النوبة السفلى • فقد ذكر الرحالة المشهور بركهارت في رحلاته قرية بهذا الاسم في النوبة المصرية على مقربة من كلابشه مما يعني وجود الاسم بين اسماء البلدان النوبية • ومن المعروف ان الاسماء النوبية للمواضع تتكرر •

وقد تواتر القول بان العرب اطلقوا هذا الاسم علـى المكان لان طرفه يمتد في شكل شريط يشبه خرطوم الفيل حتى يلتقي النيلان الابيض والازرق • ومما يؤيد هذا القول اطلاق نفس اللفظ على موضع شبيه• فقد وجدت في وثيقة من وثائق الفونج ذكرا لموضع يقال له خرتـوم البشاقرة ، وهو يعني ان لفظ الخرطوم او الخرتوم يطلق على لسان الارض الذي يمتد داخل الماء كما هو الحال بآخر الطـرف الغـربي للخرطوم • وعلى ذلك فان للموضع اسمان ، احدهما يأخذ اصله عـن هذه الصفة اي امتداد الارض بين النهرين في شكل لسان وهو الخرطوم بينما يأخذ الثاني عن صفة التقاء النهرين وهو المقرن ، وهذا الثـاني أقرب الى اللسان العربي •

ويبدو ان اصل اللفظ بالتاء أي الخرتوم ثم قلب التاء الى طاء ـ الخرطوم ، وهو نوع من التهذيب على اللسان العربي ، والظن عنـدي أن ذلك التغيير قد تم بعد الفتح المصري ، ونحن نلاحظ مثل هـــذا التهذيب في حالات اخرى مثل كردفان ، فقد كان الاسم باللام «كردفال» وهو في الاصل اسم جبل بالقرب من الابيض ثم انقلب اللام الى نون « كردفان » بعد الفتح المصري • وقد ورد الاسم باللام في كل الوثائق القديمة السابقة للحكم المصري • والعامة في كردفان ما زالوا ينطقونه على وضعه القديم • ومثله عطبرة فانها في الاصل اتبره بالالف والتاء بدل العين والطاء • وقد ورد هذا الاسم بهذا الشكل ، وهو اصـلا اسم النهر الذي يلحق بالنيل عند هذا الموضع ، في وثائق الفونـج • ومثله الابيض ،فانه في الاصل اللبيّض ، وهو تصغير لكلمة الابيض في لغـة العامة •

ثم نتساءل بعد هذا كله ما اصل هذا الاسم ؟ هل هو عربي أم شلكي ام دينكاوي أم نوبي ام مروي • اغلب ظني انه نوبي ولكنه ظن لا يصل الى اليقين • ومن المؤكد في نظري ان اللفظ ليس بعربي •

واذا صح أن أصل الكلمة بالتاء فان الربط بين الاسم وبين خرطوم الفيل أمر بعيد عن الواقع •

العواصم القديمة في اقليم الخرطوم :

لعل أقدم مدينة في اقليم الخرطوم هي تلك التي اكتشف أثرها في سنة ١٩٢٩ في المنطقة الواقعة غرب بحري وجنوب محطة المياه • وقد قدر انها ترجع الى القرن السابع بعد الميلاد • كذلك اكتشفت آثار حياة قديمة في منطقة الشجرة عند حفر ميناء الري المصري • ويفيدنا ارسلان بك الذي زار الخرطوم في سنة ١٨٣١ انه وجد كنيسة متهدمة في توتي • كذلك وجدت آثار عمران قديم في عدد من المواضع بام درمان • وكل هذا يدل على أن منطقة الخرطوم كانت عامرة منذ القدم وان عمرانها كان مؤكدا في العصر المسيحي •

وعلى بعد عشرين كيلو متراً جنوب مدينة الخرطوم كانت تقع مدينة سوبا القديمة عاصمة مملكة النوبة المسيحية العليا أو مملكة علوة ، وقد اشتهرت سوبا من القرن السادس عشر الميلادي وكانت عامرة بالمباني الجميلة والكنائس المسيحية والمعابد التي بنيت على طراز معابد نبتا والنقعة • وكانت كنيسة سوبا تتبع كنيسة الاسكندرية لأن النوبة كانوا على مذهب اليعاقبة كأقباط مصر • ويبدو أن النوبيين بنوا عاصمتهم في هذا المكان لوضعه الجغرافي الممتاز وهم أول من دفعوا بالعاصمة جنوب النقعة ويقال انهم بنوا مدينة اخرى قصادها بالجانب الاخر من النيل الازرق • وقد ظلت سوبا عاصمة عامرة حتى خربها الفونج ونقلوا عاصمتهم الى الجنوب في سنار وذهب تدمير سوبا وخرابها مثلا يجري على لسان السودانيين الى اليوم •

وقد ذكر بعض المؤرخين انه كان بسوبا عدة مئات من الكنائس

فنقل عنه الكثيرون دون ترو . والمقصود بالقول في نظرنا هو كنائس المملكة كلها وليست كنائس سوبا على التخصيص .

وقد اهتم علماء الآثار في العصر الحديث بآثار سوبا وقصدها أكثر من عالم . وكان أولهم المسيو جيلود العالم الاثري الفرنسي الذي قام ببعض الحفريات في سنة ١٨٢١ وعثر على بعض القطع الاثرية . ثم جاء دومشن ، الرحالة الالماني والذي اكتشف بعض اجزاء كنيسة سوبا . وقد حمل غردون هذه الاجزاء الى الخرطوم ويقال انها باقية الى الآن في الكنيسة الانجيلية بالخرطوم . وفي سنة ١٩٠٣ وفد اليها البروفسير بدج واكتشف بقايا بوابة المدينة وبعض أطراف الكنائس .

ولما قامت سلطنة الفونج بنى الفونج عاصمتهم في سنار وصارت سنار العاصمة الاولى للمملكة . وقد جعل حلفاؤهم واتباعهم العبدلاب عاصمتهم في قرى الواقعة على بعد ٤٠ ميلا شمال الخرطوم . وهكذا ظل اقليم الخرطوم على مقربة من العاصمة الثانية . وقد بلغت قرى اوج مجدها وقوتها في عهد الشيخ عجيب المنجلك الذي تميز عصره بالفتوحات وقد قتل الشيخ عجيب في واقعة كركوج في سنة ١٦٠٤ وحملت جثته الى قرى ودفن فيها .

وفي سنة ١٧٩٠ ترك الشيخ عجيب الثالث شيخ قرى عاصمة اجداده وانتقل جنوبا ليتخذ حلفاية الملوك عاصمة له . وقد ظلت الحلفاية عاصمة للعبدلاب حتى مجيء الترك ومنذ عهد هذا الشيخ ازداد استقلال العبدلاب عن الفونج وصارت تبعيتهم للفونج تبعية اسمية . وفي نفس الوقت كان نجم قبيلة الشايقية في الصعود . وقد صار الشايقية ينافسون العبدلاب . ويناوئونهم حتى جاء الترك فقاومهم الشايقية أولا ثم صاروا حلفاءهم وعاونوهم فيما تلى من الفتوحات معاونة صادقة وظلت علاقتهم بهم حميمة ابدا .

وقد سلم الشيخ ناصر الامين شيخ العبدلاب دون مقاومة ثم ما لبث ان مات بعد قليل . وقد اقام الترك في الحلفاية حامية قوامها ٤٠٠ من الشايقية تحت قيادة سنجك ولما قتل الملك نمر اسماعيل باشا

في العام التالي وعمت الثورة الاقاليم الشمالية قام الشيخ الامين ابن الشيخ ناصر الامين على رأس قوة من أهله وهجم على الحامية وقضى عليها قضاء مبرما • ولما اسعاد الاتراك انفاسهم وقمعوا الثورات في الشمال بقيادة الدفتردار أصابوا العبدلاب وضربوهم دون رحمة فهرب الشيخ الامين الى القلابات وصادر الاتراك أراضي العبدلاب في الحلفاية وقرى واقطعوها لحلفائهم الشايقية • وقد بدأ نفوذ الشايقية يزداد في الحلفاية منذ ذلك الوقت وهم يكونون بها الآن قوة وعصبية•

قدوم المحس وأوليائهم :

وفي بداية القرن السادس عشر الميلادي وفد الى اقليم الخرطوم جماعات من المحس واستوطنوا في الخوجلاب والحلفاية وجزيرة توتى• وكانت توتى اهم مكان تجمعوا فيه • والمحس ينتمون الى القبائل التي تسكن اقليم المحس جنوبي مركز حلفا وهم يؤكدون دائما انهم من سلالة قبيلة الخزرج العربية ، وهناك من الدلائل ما يوحي بانهم على صواب وبفضل المكانة العظيمة التي خلفها لهم علماؤهم وسط عربان الاقليم والخلاوي التي أنشأوها طاب لهم المقام وتملكوا الاراضي وصار لهم نفوذ عظيم • وقد توافق مجيئهم مع قيام السلطنة السنارية اولى الحكومات الاسلامية في السودان • وبانتقال عاصمة الفونج الى سنار وعاصمة العبدلاب الى قرى خلا الجو للمحس وفقهائهم الذين سكنوا حول النيل وظلوا يتكاثرون ويتوسعون ، فانتقل بعضهم الى الخرطوم وبعضهم الى الخرطوم بحرى وبعضهم الى ام درمان • أما العربان فقد ظلوا في باديتهم وحضرهم يوقرون أولياء المحس ويقدمون لهم الهدايا وينشدون عندهم البركة • وقد صار فقهاء المحس رسل حضارة وذاع صيتهم في السودان •

وقد حرص سلاطين الفونج وشيوخ العبدلاب على ارضاءالفقهاء فاقطعوا لهم الأراضي الواسعة وملكوهم وهيأوا لهم سبل الاقامة والفراغ لخلاويهم وعلومهم •

وكان ممن اقطع لهم الارض الشيخ خوجلي عبدالرحمن وحمد ولد

ام مريوم وهما في مدينة الخرطوم بحرى الحالية والشيخ يعقـوب بن مجلى في الجريف غرب وابو سعد والحلفاية •

وقد اعطى الفونج قطعة أرض في العيلفون للشيخ ادريس ولـــد الارباب كما اقطعوا أرضا للشيخ حمد ولد زروق في الصبابي • ثـم وفد الدواليب واقطع لهم الفونج والعبدلاب أراضي واسعة في الكدرو• وهكذا قدر لمنطقة الخرطوم أن تستقبل في هذا الوقت هذا العنصـر النشيط من أهل الشمـال وان تكون منارة للعلم ومهبطـا للاوليـاء والصالحـين •

اخبار الخرطوم :

لا يذكـر المؤرخون شيئا عن الخرطوم في عهـد مملكة النوبـة المسيحية العليا • وفي العصور التالية ، اي طوال العهد الفونجي ،لايكاد يصلنا عنهـا شيء • فالرحالة الفرنسي بونسيـه (Boncet) الذي زار السودان في سنة ١٦٩٨ ذهب من قرى الى سنار مباشرة دون انيتوقف في الخرطوم أو يذكرها • ولما جاء بروس في ١٧٧٢ اتجه من سنـار الى شندى عبر الحلفاية دون ان يذكر الخرطوم • وقد ورد في خريطة اوربية صدرت في ١٧٢٩ ذكر توتى في موضعها الحالي ولكن لم تذكر الخريطة الخرطوم ، وفي خريطة اخرى صدرت في ١٨٢٠ جاء ذكر الحلفاية وام درمان بينما سقط ذكر الخرطوم وتوتى •

وفي سنة ١٨٢٠ رافق اوربيان جيش اسماعيل باشا وعبرا معـه النهر في منطقة الخرطوم وهمـا كايو وانجلش • وقـد سجل الاثنـان مشاهداتهما في كتابين • اما انجلش فلم يذكر الخرطوم ابدا • وامـا كايو فقد ذكر الموضع باسمه ووصف عبور جيش اسماعيل من امدرمان الى الخرطوم ويبدو من وصفه انه اسم موضع ليس الا • وعلى ذلك فان الخرطوم لا يشكل اهمية بالنسبة للرحالة الاوربيـين حتى الفتـح المصري • ولعل اول اوربي جاء بعد الفتح ودون مشاهداته عنالخرطوم هو أدوارد بارون فون كالو • Eduard Baron von Callot

والذي اشتهر باسم أرسلان بك • لقد زار ارسلان الخرطوم في ١٩٣١ في طريقه الى الحبشة موفدا من قبل محمد علي باشا وتوقف عندها قليلا ، وهو يسميها رأس الخرطوم كما يشير الى توتى بقوله توتى الخرطوم • وقد ذكر ان رأس الخرطوم ليس به شيء الا بعض الاكواخ الفقيرة • أما توتى فقد اكتشف بها بقايا كنيسة قديمة • هذا في الوقت الذي يصف فيه الحلفاية وذكر انها عاصمة الاقليم وان بها نحو أربعة آلاف نفس •

ومع ان الخرطوم حتى ذلك الوقت لم يكن شيئا اكثر من نقطة عسكرية بينما كانت عاصمة الاقليم الحقيقية في الحلفاية فان ارسلان بك قد أدرك أهمية هذا الموقع وارتباطه بطرق القوافل التي تتجه منها الى الشرق والغرب والشمال والجنوب ، ومن ثم اقترح انشاء مدينة تجارية بها ووضع الخرط اللازمة • لقد ذكر ارسلان هذا في رحلته التي لم تترجم بعد الى الانجليزية ولا العربية ولكن الوثائق الرسمية المحفوظة بدار الوثائق المصرية لا تذكر شيئا عن هذه المقترحات •

واذا ما رجعنا الى المصادر السودانية فاننا نجد ان وثائق الاراضي الخاصة بهذا الاقليم لا تذكر الخرطوم بينما هي تذكر توتى وأم درمان والكدرو والفتيحاب • وذكر كاتب الشونة الموضع مرة واحدة في فترة الفونج وذلك عندما وصف هزيمة جيش الفونج والعبدلاب امام جيش الفور وكيف طاردهم الفور حتى الخرطوم • ثم يأتي ذكر الخرطوم عند الكلام عن عبور جيش اسماعيل النهر من ام درمان الى الخرطوم ثم عند الكلام عن مجيء عثمان بك وبنائه النقطة العسكرية بها ثم مجيء محو بك خلفاً لعثمان بك • وبعد ذلك يرد الذكر اضطرادا أما كتاب الطبقات فلم يرد فيه ذكر الخرطوم بالرغم من ان مؤلفه من الحلفاية ويذكر كثيرا من أولياء هذه المنطقة •

والذي يستفاد من هذا كله هو أن الخرطوم لم تكن لها أهمية تذكر حتى مقدم الترك اللهم الا وجود خلوة الشيخ ارباب العقائد وبعض اكواخ الصيادين •

قرية الخرطوم :

وقد ظلت الخرطوم نفسها منطقة غير مأهولة تغطيها الغابات

وتأتيها مياه الفيضان فتغرق اجزاء كبيرة منها • وكان يأتيها المسافرون ليعبروا عندها النيل ويرتادها صيادو السمك في مواسم الصيد يقضون بها حاجاتهم ثم يعودون ادراجهم بما اصطادوا وفي حوالي سنة ١٦٩١ ترك الفقيه أرباب العقائد جزيرة توتى التي اشتهر فيها وعبر النهر لينشيء في هذا المكان أول قرية مأهولة وكان من عادة الفقيه الذي يشتهر أمره وينشد الاستقلال أن يبحث له عن مكان جديد يبدأ فيه حياته الدينية ويجد فرص الاستقلال والشهرة المتاحة وقد فعل مثل هذا الشيخ خوجلى الذي ترك جزيرة توتى وأنشأ حلة خوجلى والشيخ حمد ولد ام مريوم الذي سكن ام درمان ثم ارتحل الى الخرطوم بحرى الحالية وأنشأ بها حلة حمد الباقية باسمه الى اليوم •

وقد ولد أرباب العقائد في جزيرة توتى ونشأ بها وذاع صيته في البلاد المجاورة ووفد اليه الناس يحملون الهدايا ويتبركون ببركاته وقد ترجم له ود ضيف الله في طبقاته وذكر ان الطلبة قد توافدوا عليه من كل فج وذكر كاتب الشونة ان الرحال قد شدت اليه وان تلاميذه قد بلغوا الف طالب ونيف ، وقد يكون في ذلك بعض المبالغة وقد بلغت شهرته سنار فواصله السلطان ودعاه لزيارة عاصمته فوفد اليه ارباب العقائد بعد أن ترك ابنه علي خليفة له •

وقد وافاه الاجل في سنار فمات وبها دفن ولو انه دفن في قرية الخرطوم لعجل ذلك بنمو الخرطوم لما كان له من شهرة وصيت لم يحافظ عليهما خلفه • وكان من تلاميذ الشيخ أرباب العقائد الشيخ خوجلى عبدالرحمن والشيخ حمد ام مريوم والشيخ حتيك وكان لكل منهم طرف في نمو الخرطوم والشيخ فرح ولد تكتوك المدفون بضواحي سنار اما الشيخ خوجلى فقد قصد المنطقة المعروفة الان بالخرطوم بحرى وبنى فيها مسجدا ومنزلا • ولما توفي الشيخ في سنة ١٧٤٣ بنى اتباعه قبة فوق قبره وقد ظلت القبة حتى هدمت في سنة ١٩٣٦ واعيد بناؤها وقد نشأت حلة خوجلى الحالية حول مسكن الشيخ خوجلى وعرفت باسمه وكان هذا الجانب من مدينة الخرطوم بحرى يعرف بالقبة حتى الفتح الاخير • وقد أقطعه الفونج والعبدلاب اراضي واسعة في الخوجلاب

وجهات الخرطوم وما زال خليفته يحتفظ بسجلات هـذه الاقطاعيات الى اليوم وقد تفضل فأباح لدار الوثائق المركزية تصويرها وتقديمهـا لمن يود دراستها فله منا جزيل الشكر •

أما حمد ولد ام مريوم فقد قصد في أول الامر اقليم ام درمان وبدا بها حياته الدينية وقد ظل بها الى ان وقعت خصومة شديدة بينه وبين الشيخ عبد المحمود النوفلابي • ويقال ان عبد المحمود قد احرق منزل حمد وخلوته وكاد حمد نفسه فيما يقولون يذهب ضحيةالحريق لولا أن الشيخ خوجلى أصر عليه بالخروج من المنزل ومغادرة المكـان وقد استوطن الشيخ حمد بعدها في المكان الذي به قبته الآن ونشأت حلة حمد المنسوبة اليه حولها •

عاصمة الترك :

وفي سنة ١٨٢٠ ارسل محمد علي باشا والي مصر ابنه اسماعيل باشا على رأس قوة كبيرة لفتح الاقاليم المنضوية تحت مملكة الفونج بينما أرسل محمد بك خسرو الاستامبولي المشهور بالدفتردار لفتح مملكة الفور • وقد دخلت قوات اسماعيل البلاد دون مقاومة تذكر حتى بلغت بلاد الشايقية الذين استبسلوا في الدفاع وقاوموا الجيش الغازيمقاومة مشرفة • غير ان الشايقية ما لبثوا ان تحالفوا مع الترك وصاروا عونـا لهم ضد اخوانهم في الجنوب وبفضل تآزر الشايقية معهم والتفوق في العدد والسلاح غلب الترك العبدلاب ثم الفونج ودخلت جيوشهممدينة سنار التي طالما وصفها أهلها بانها المحروسة المحمية •

وقد بدا السودان بذلك عصرا جديدا يعرف بالعصر التركي•وقد تميزت الايام الاولى لعصر الترك بالقلاقل والحروبات وظلت جيوشهم في حركة مستمرة لاسكات الاضطرابات وفتح الاقاليم التي لم تفتـح بعد ، وقد ترك الاتراك حامية قوامها ٤٠٠ شايقي في الحلفاية كمـا سلف القول وتركوا حامية اكبر في مدينة سنار ، وقد بقيت الاولىحتى قضى عليها الشيخ الامين بن الشيخ ناصر • أما سنار فقد ظلت معسكرا للقوات ومقرا للادارة الجديدة حتى عدل عنها واتخذت مدني عوضـا

عنها لسوء جو سنار وتفشي الامراض في الجيش المرابط بها .

وبعد قليل تمكن الملك نمرملك الجعليين من قتـل اسماعيل باشا الذي وجه له اهانة شخصية عدها الملك نمر عارا عليه وعلى اثر ذلك هبت ثورات قبليـة عارمة للاطاحة بالحكـم الاجنبي واهتزت الادارة الجديدة التي لم تكن قد استقرت بعد . ولما بلغ خبر هذا الامر كردفان وفد الدفتردار مسرعا وانتقم انتقاما مريعا من الجعليين وكافة القبائل الثائرة . وقد اصاب شره أهل توتى وأثقل عليهم ثم لحق القدر المشئوم بالعليفون . وعلى العموم فقد قتل الدفتردار خلقا كثيرا وخرب الديار واثار الرعب في القلوب .

وأول خبر يصادفنا عن منطقة الخرطوم في العهد التركي هـو نزول اسماعيل باشا في ام درمان عند مقدمه للفتح . وقد ذكر كاتب الشونة هذا الحادث ووصف اثر مقدمه على الناس فقال : فهرب منه بعض الناس وقابله البعض فاعطاهم الامان لغيرهم ولانفسهم وكساهم وتكامل بالخرطوم فاخذ منهم قدر العليق وفي هذا القول ما يعني ان الخرطوم كانت مأهولة بالسكان وان لم تكن مدينة . ونحسب ان الباشا قد عبر النهر في هذا المكان .

ولما خلف عثمان بك الدفتر دار وصار مديرا نزل بالخرطوم وقابلـه الشيوخ هناك وقد بنى في الخرطوم معسكرا لجيشه وترك فيه حامية وقد كان ذلك بداية مدينة الخرطوم الجديدة . ولما مات عثمان بك خلفـه محو بك مدير بربر وكان رجلا قديرا وقد نزل محو بك في حلة حمد ـ الخرطوم بحرى الآن ـ وعسكر بها مدة من الزمن ثم عاد الى بربر ولما جاء للمـرة الثانية نزل بالخرطوم وعسكر بها . وقد روى كاتب الشونة ان جماعة من جيش محو قد استغلت غيابه ونهبت حلة خوجلي وخربوا قبتها فعاد محـو مسرعا ليحمي الناس من شرهم. وعلى العموم فقد خطت الخرطوم في عهد محو بك خطوات واسعة نحو العمران . وقد اطلق اسم محو بـك علـى منطقة الشجرة الواقعة جنوب الخرطوم وصارت المنطقة تعرف بشجرة محو وان كان الاهالي يقولون شجرة الماحي احيانا . وللشجرة قصة لا بأس من ان نرويها فقد كانت في الاصل تسمى شجرة النقارة وقد حسب قرانت في

يومياته ان وجود شجرة كبيرة في جزيرة مواجهة لها وكون طبول الخرطوم تسمع بها قد دعا الى اطلاق هذا الاسم عليها ونحسب ان هــــذا هــراء . والأدعى من ذلك ان يقال ان الشجرة كانت مكانا للتجمعات القبليــة فتدق فيها الطبول وتقام فيها المهرجانات القبلية . ويحتفظ عــرب الشجرة الــى اليوم بنقاراتهم ويدقونها في مواسمهم الخاصة والاعياد ، وفي العهد التركي اطلق الناس على المكان اسم محو وقالوا ان هذه الشجرة الكبيرة نبتت في المكان الذي ضرب فيه محو خيمته ، وظلت المنطقة تعرف بشجرة محو حتى سقوط دولة المهدية . وبعد الفتح الاخير فكر أحــــد مفتشي الحكومة في شيء يثير به السواح الذين يفدون لزيارة المناطق الاثرية فزعم بأن الشجرة شجرة ضخمة زرعها غردون ورعاها حتى كبرت ومن ثم اطلق الناس عليها شجرة غردون . اما اليوم فقد تخلى الناس عن هذا وذاك وصاروا يطلقون عليها الشجرة فقط .

ثم جاء خورشيد باشا وحل محل محو بك وقد نزل خورشيــد اولا بام درمان وقابله محو بك هناك واقاما بها عدة ايام . وقد تلقته على حــد تعبير كاتب الشونة المشايخ هناك ثم دخل المدينة . وقد اتسعت الخرطوم في عهده اتساعا عظيما ويقال انه اضطر الى توسيع الجامع الذي بناه بعــد سبع سنوات من انشائه وكان بناؤه في سنة ١٢٤٥ هجرية وتوسيعه في سنة ١٢٥٣ وقد اشار كاتب الشونة الى توسيعه فقال : وفي يوم الجمعة المباركة ٧ج ١٢٥٣ هـ اقيمت صلاة الجمعة بالجامع الشريف بعد عمارته وانشائه بعد ان امر الباشا بتوسيعه في بنائه الاول الذي هو في سنة ١٢٤٥ وقد شيــد خورشيد ثكنات للجهادية كما شجع الاهالي علــى تشييد المنازل وعاونهم بتقديم معدات البناء ويقال ان خورشيد كان يصنع الطوب الاحمر في سوبا ثم ينقله الى الخرطوم .

وقد اضاف عبد اللطيف باشا منشئات جديــدة فبنى قصر الحكمدار وهو القصر الذي قتل فيه غردون وقد شيد هذا القصر من جديد بعد الفتح وصار في العهد الوطني المقر الرسمي لرأس الدولة . كذلك بنى عبد اللطيف مبنى مديرية الخرطوم القديمة والمطبعــة ومحكمــة العمــوم والاجزاخانة

وقشلاقات الطوبجية ، وكانت كلهـا بالطوب الاحمـر وفي عهـده أنشئت مدرسة رفاعة •

وفي سنة ١٨٤٨ وصل الفوج الاول من المبشرين بقيادة الاب ريلـو وقد قدر رئيس الفوج سكان الخرطوم في ذلـك الوقت بحوالي ١٥ر٠٠٠ نسمة ، وكان الشريف حسن وهو تاجر سوداني مسلم اول مـن رحب بهم عند وصولهم المدينة ثم نشروا خيامهم على شاطىء النيل • وكانت معيشتهم شاقة لافتقارهم الى المال وتدهور حالتهم الصحية الى درجة خطيرة حتـى جاز لأحدهم ان يصفـ معسكرهم بقوله: ان بعثتنا تشبه مستشفى ومواردنا قد نضبت ــ وقد وقف معهم في هذه المحنة الشريف حسن الذي قدم لهـم مساعدات قيمة وعاونهم معاونة صادقة واشترى لهم من جيبه الخاص قطعة ارض على شاطىء النيل الازرق ، فاقاموا فيها ارسالية الخرطوم ، وكـان ذلك في الموضع الذي به بلدية الخرطوم الآن • وقد تجلت في شخص هـذا المحسن العظيم سماحة المسلمين واريحيتهم مـع مـن يخالفونهم في الرأي والعقيدة وتسامحهم الديني •

ولنقف هنا قليلا لنتساءل عـن تاريـخ بدايـة الخرطوم فالمؤرخون مختلفون في هذه النقطة اختلافا شديدا •

ذكر المبارك ابراهيم ان ميلاد المدينة ــ كان في سنة ١٨٢٤م•وقال ان المصريين قد أبقوا على سنار عاصمة لقربها مـن جبـال شنقول حيث كانوا يأملون ان يجدوا بها كميات وافرة من الذهب ولمـا ذهبت الآمال ادراج الرياح وابت الجبال ان تعطي الذهب فقدت سنار مؤهلها ولما كان جوها سيئا وتفشت الملاريا والدوسنتاريا في الجنود حتى بلغ عدد الضحايا في ١٦ اكتوبر سنة ١٨٢١م ، ١٥٠٠ دفينا كما جاء في التقارير الرسمية، والمرضى اكثر ، وبقي من الجيش ٥٠٠ فانهم قد انصرفوا الى الخرطوم واتخذوا مقرا لرئاسة الحكومة • ومن المؤسف اننا لا نقف على التفاصيل التـي يذكرها بعد ذلك لان النسخة الوحيدة التي اعتمدنا عليها من الكتـاب وهي المحفوظة بدار الكتب المصرية تسقط ورقة في هذا الموضع •

وبعضهم قال ان المصريين اقاموا بها معسكرا دائما في سنة ١٨٢٢ ثم اخذ يتوسع حتى اختيرت عاصمة في ١٨٣٠ .

وقال آخر ان تأسيسها كان بين ١٨٢٠ و ١٨٢٢ وان هذا التأسيس مهد لفتح كردفان ..

وقال بدج بان تأسيسها كان بين ١٨٢٠ و ١٨٢٣ ثم يذكر ان عثمان بك الذي عين حاكما على السودان في سنة ١٨٢٥ جعل من الخرطوم المنشأة حديثا مركزا لقيادته .

وقال آخر ان الدفتردار هو الذي اختار الموضع وهذا يعني ان التاريخ يرجع الى سنة ١٨٢٣ .

وذكر تشارلس ديدير الذي زار الخرطوم في ١٨٥٤ ان تأسيسها كان في ١٨٢٣ ، وانها اضحت فيما بعد مركز الكشف الجغرافي في مناطق النيل الاعلى .

وقال عبد الله حسين انها اصبحت معسكرا للجيش في سنة ١٨٢٣ ثم اضحت مقرا لحكمدار السودان خورشيد باشا وعاصمة للسودان في سنة ١٨٣٠ .

وقال محمد صبري ان معسكرا دائما قد اقيم فيها في ١٨٢٣ وان خورشيد اتخذها عاصمة في سنة ١٨٣٠ .

وعلينا قبل ان نصدر حكما ان نفرق بين المراحل المختلفة التي مرت بها الخرطوم . ففي المرحلة الاولى كانت احراشاً وغابات وفي المرحلة الثانية اتخذها ارباب العقائد مركزا لخلوته وبدأ بها العمار . وفي المرحلة الثالثة بنى بها عثمان بك جركس نقطة عسكرية . وفي المرحلة الرابعة صارت النقطة العسكرية عاصمة لكل السودان .

وكما قلنا سابقا فان الخرطوم كانت عبارة عن غابات واحراش في أراضيها العليا ، اما الاراضي السفلى فكانت جروفاً يزرعها أهالي توتي .

وقد جاء اسم برى من هذه الصفة اي البر بالنسبة للجزيرة . وكان

صيادو السمك يرتادون المنطقة •

ثم جاء الشيخ أرباب العقائد المحسى من توتى وانتقل اليها بجبرانه وأسس بها خلوة • وقد تحول الموضع بفضله من مزرعة الى قرية •

ولما وصل اسماعيل باشا الى الموضع في طريقه الى سنار لم يمكث بها الا ثلاثة ايام ريثما يعبر جيشه النهر ، وكان ذلك بين ٢٨ مايو وأول يونيو• وفي عهد اسماعيل ظلت حال الخرطوم على ما هي عليها وظلت سنار عاصمة• وكان مما دفع المصريين الى البقاء في سنار واتخاذها عاصمة قربها الى مناجم الذهب في جبال فازوغلي وبني شنقول والتي وضع المصريون عليها آمالا عظيمة ، واهتمام المصريين بالقضاء على نظام الفونج نهائيا ووضع نظام جديد • وكان هذا يعني البقاء في سنار العاصمة والتي تسيطر على مناطق الجزيرة كلها •

وفي نفس الوقت فإن الحلفاية ظلت عاصمة للاقاليم التي كانت منضوية لمشيخة العبدلاب مباشرة • وقد رأينا كيف ترك فيها المصريون حامية من الشايقية وكيف كان أمرها عندما اندلعت الثورة اثر مقتل اسماعيل وكيف ضرب المصريون العبدلاب على يد الدفتردار •

وعلينا على هذا الضوء ان نتابع أخبار المدن الاربعة المهمة ــ الخرطوم، الحلفاية ، مدني ، سنار ، كما ترد اخبارها في الوثائق المتبادلة بين الولاة في مصر وحكام السودان •

ففي ١٤ ذى القعدة سنة ١٢٣٦ هـ ترد اشارة الى سنار وتصفها بأنها كرسي بلاد السودان وهي تعني انها عاصمة الادارة المصرية •

وفي محرم سنة ١٢٣٧هـ نجد محمد علي باشا وابنيه ابراهيم واسماعيل مشغولين بادارة اقليم الحلفاية • فقد اقترح اسماعيل باشا على أبيه تعيين محو بك حاكما على هذا الاقليم • وقد عرض محمد علي الامر على ابراهيم باشا واستشاره فيه • وكان رأي ابراهيم الا يعين قائد مبرز مثل محو بك على الحلفاية نظرا الى انها اقليم خرب وقريب من سنار ومن الممكن ادارته منها بسبعين او ثمانين فارسا • وقد افاد محمد علي محو بك بما انتهى اليه•

وعينه بناء على اقتراح ابراهيم باشا حاكما على أقاليم شندي وبربر والرباطاب والتي ادمجت في ادارة واحدة ••• « وبناء على ذلك فقد اجعلت هذه الاقاليم الثلاثة الى عهدة حميتكم واصدرنا أمرنا هذا فيتعين بانه نظرا لكون الاقاليم المذكورة هي طريق سنار فالواجب ان تذهبوا اليهـــا مباشرة وان تقيموا في المحل المناسب لان يكون مركزا للحكومة فيها وان تعينوا لكــل محل من يقتضيه هذا المحل من رجالكم » •

وعلى ذلك فإن الامر المهم عند الوالي هو ان هذه الاقاليم تعتبــر الطريق الى سنار وسنرى اهمية ذلك عندما تتخذ الخرطوم نقطــة لبدايــة الطريق الى الغرب ، وان اختيار عاصمة الاقليم الجديد متروك لمحو ، وقد اختار بربر وهي مدينة قديمة مشهورة وتتصل عندها طرق القوافل التجارية وتتوسط هذا الاقليم الجديد •

اما الحلفاية فقد عهد أمرها الى محمد اغا القبوجي باشى ، اي كبير الحجاب • ونحن نعلم من المكاتبات المتبادلة ان القبوجي باشى قد أحضر شيخ العبدلاب ، وهو يشير اليه بملك الحلفاية ومنحه الأمان وأجلسه في مكانه حاكما •

ولعناية الذين تتاح لهم الفرصة للوقوف على الوثائق الخاصة بهــذه الاقاليم في هذه الفترة فإننا نذكر ان الوثائق الاصلية بدار الوثائق العربية باللغة التركية وتوجد بها نسخ ووثائق مترجمة الى اللغة العربية ، وهي من وضع مجموعة من المترجمين أتى بهم الملك فؤاد وعينهم في الــدار لترجمة الوثائق التركية الى اللغة العربية • وقد رأيت انهم يخلطون بين بربر ــ في السودان ــ وبربرا ــ في الصومال وبين الحلفاية وبين وادي حلفا • ولست ادري ان كان الخلط من المترجمين أو كان من الاصل •

وفي ٢١ شوال سنة ١٢٣٧ ترد اشارة الى حاكم الحلفاية •

وفي ٢٩ شوال ١٢٣٧ نقف على خطاب من محمد علي يبــين فيــه الوضع بالنسبة لادارة بربر ومحلقاته والحلفاية وسنار ومدني • وهذه هي المرة الاولى التي يذكر فيها مدني ــ اما الخرطوم فلا يرد لها ذكر • ويلاحظ في هذا الخطاب ان مدني يأتي بالاسم الاصلي وهــو ولــد مدني • يقول

الخطاب : ان فردة حلفاية قد حولت على القبوجي باشى (كبير الحجاب) محمد اغا وحولت فردة شندي وبربر على محو بك ... وانكم مقيمون بالموضع الذي يقال له ولد مدني وشرعتم في بناء ثكنة ذات تسعين غرفة وانكم عهدتم الى احد الكاشفين بادارة أمور سنار وامرتم رئيس المغاربة محمد اغا بالاقامة بها مع اتباعه ». ويرد في الهامش قوله : « لما كان حاكم حلفاية القبوجي باشى المشار اليه وحاكم القصير محمود أفندي ممن ينبغي عودتهم مع طوسون بك فارسلوهم معهم واستخدموا مكانهم اهل التجربة » .

وفي موضع آخر يكرر محمد علي نفس البيانات ثم يضيف : « وقد وافقناكم على عدم اقامتكم بسنار والى اختيار المكث في محل معتدل جوه وعلى تفويضكم ادارة شئون سنار الى الكاشف المشار اليه وتعيين كبير المغاربة المذكور في معيته اما بناء الثكنة فلا تقل استحسانا عن هذه الامور» .

وهكذا فان اقامة اسماعيل قد اصبحت في مدني وقد صارت مدني عاصمة بينما صارت سنار مجرد نقطة . والخرطوم لا تذكر ابدا . أما الحلفاية فيأتي ذكرها مع الادارات الاخرى مثل سنار وبربر .

ولما جاء الدفتردار اثر مقتل اسماعيل باشا نكل باهل توتي وكل مناطق الخرطوم كما نكل بالجعليين وسكان النيل عموما . اما في الخرطوم ذاتها فقد هدم جامع ارباب العقائد وقتل حفيده ارباب ولد كامل ولد الفكي علي بمدفع . ولم يذكر انه انشأ في الخرطوم شيئا . وعلى العموم فإن عمله كان منصبا على اسكات الثورة وضربها ولم يكن وقته وقت بناء .

وعلينا ان نلاحظ ان العواصم السابقة كانت على النيل الازرق والنيل الكبير في داخل دائرة كبيرة تتوسط اقليم الجزيرة وجزيرة الهوى وهما قلب سلطنة الفونج ومشيخة العبدلاب وقلب الادارة المصرية في أول عهدها . وتقع داخل هذه الدائرة سنار والحلفاية وقرى واربجي ، وسوبا . وقد اعتبر محمد علي ــ كما رأينا ــ اقليم شندي وبربر والرباطاب مجرد معبر الى سنار كما اعتبر اقليم دنقلا معبرا الى الغرب . وعلى ذلك كانت دنقلا

في بعض الاحيان تتبع مصر مباشرة • وفي بعض الاحيان كانت تدمج مع بربر • وطبيعة الاقليمين من حيث انهما معبر الى الداخل واحدة •

ويلاحظ ان الاقليم الذي يقع غرب النيل كان تابعا لاقليم كردفان ولم يكن هذا الاقليم تابعا لسلطنات الشرق الا في فترات قليلة • وكان اهم ما يربط كردفان بالشرق طرق القوافل لا التبعية السياسية • والملاحظة الاخرى هي عدم اهتمام النوبة والفونج بأعالي النيل ، وذلك لان نشاطهم كان يتركز على النيل الازرق ، ولذلك ظل ما يعرف عن أعالي النيل قليلا حتى جاءالمصريون وطوروا المواصلات النيلية وعبروا الى الجنوب الى ما وراء السدود وادخلوا ذلك العالم المظلم داخل دائرتهم التجارية ثم السياسية• ويكاد يكون من المؤكد عندي ان العامل الحاسم في اتخاذ الخرطوم نقطة هو ربط كردفان بإدارة سنار •

فقد كانت ادارة كردفان معزولة عن سنار ، اما لتبعيته لدارفور او استقلاله بنفسه ، ولم يصر تابعا لسنار الا لفترة قصيرة • ولما جاء الفتح المصري ارسل محمد علي باشا جيشا قائما بذاته لكردفان بقيادة الدفتردار بينما ارسل جيشا آخر بقيادة ابنه اسماعيل لفتح سنار • وقد ظلت العمليات الحربية ثم الادارة مستقلة في الاقليمين عن بعضهما البعض •

ولما جاءت الثورة بعد مقتل اسماعيل توجه الدفتردار من كردفان لتأديب الثوار• ولم يكن في ذلك شيء من الربط بين المنطقتين • ويبدو ان محمد علي قد فكر في التخلص من كردفان وتركيز جهوده في سنار حيث كان يرجو الذهب والرجال لجيشه • فقد جاء في خطاب من محمد علي الى الدفتردار بعد ان سرد تفاصيل حملة الدفتردار شمال الخرطوم حتى شندي وبربر :

« فيا ولدي العزيز قد انتهت هذه المهمة الى هذه النتيجة اذا كانت الارادة الآلهية قضت بذلك • وما علينا في هذا الأمر الا ان نصبر صبرا الهيا ونجتهد اجتهادا انسانيا لذلك اسند منصب سر عسكرية السودان على عهدة حميتكم فاروني حميتكم واحيلوا ادارة جهات كردفان الى ملك مناسب من ملوك الولاية على سبيل المقطوعية واذهبوا أنتم الى سنار واجلبوا اليها

الجنود الذين كانوا تحت امرتكم بكردفان او احضروهم عندكم ثم خذوهم معكم حتى اذا وصلتم الى سنار فافحصوا كيفية ادارة الجزيرة وتدبروا فيها وانشئوا بروجا في الاماكن المناسبة واقيموا فيها عددا من الرجال ... فاذهبوا اليها (يقصد شندي) التي اشتهرت بلطافة الجو وأسكنوها حتى يحل موسم الأمطار . حتى اذا انقضى أوان الامطار فعودوا الى سنار واشتغلوا بتسوية الشئون كما تقتضيه الاحوال ..

... واعلم اننا فوضنا مصالح سنار الى عهدة حميتك ريثما نولي عنيها سر عسكر في السنة المقبلة ونرسله اليها » .

وظاهر من هذا الكلام اولا ان محمد علي كان ينظر الى كردفان بمعزل عن سنار وملحقاتها، وان سنار وملحقاتها صارت تعرف بالسودان. وظاهر ثانيا ان محمد علي يريد ان يركز الأمر في سنار ، وانه يريد ان يجعل أمر كردفان للملك يديره بالنيابة عنه مقابل التزام يدفعه . وظاهر ثالثا ان مكان العاصمة لم يقطع فيه حتى الآن وذلك لسوء جو سنار ومدني . وكان شندي اليق من جهة الجو وصلاحيته الا ان اهله لم يكن يشجعون مثل هذه الخطوة كما ان وضعه الجغرافي لم يكن يمكن من ادارة اقليم سنار وعلى ذلك فإن الوالي يأمر سر عسكره بالاقامة في شندي ريثما ينتهي موسم الامطار وبالتوجه بعده الى سنار . وهو يرجو ان يدرس كيفية ادارة الجزيرة أي أقليم سنار وأن ينظر في أمر العاصمة المناسبة .

ثم جاء عثمان بك جركس البرنجي حاكما على « السودان وكردفان » معا وبصفة دائمة . وعلى ذلك فإن الأمر يقتضي النظر في نقطة تتحكم على اقليم سنار والحلفاية وبربر وكردفان ، نقطة متوسطة تربط هذه المناطق ويمكن ادارتها منها . والواقع ان هذا هو الذي كان يشغل بال عثمان بالاضافة الى كيفية تقسيم القوات . لقد ارسل عثمان تقريرا الى محمد علي باشا قبل ان يصل الى الخرطوم وصف فيه أحوال القرى وهروب الاهالي الى الجبال كلما حل بموضع والاجراءات التي اتخذها . ثم ذكر انه عند وصوله الى الخرطوم سوف يسير القائمقام سليمان بك الى كردفان . ثم ذكر في خطاب آخر وصوله الى الخرطوم ، وانه عازم على الاقامة بها وانه

ارسل القائمقام سليمان والاورطة الثانية واربعة كشاف الى كردفان وانه سينشيء قلعة بالخرطوم وحصنا في جهتي الشرق والغرب وانه سيجعل بها الاورطة الخامسة بينما يوزع باقي الجنود بين سنار والخرطوم • وفي خطاب ثالث وصف عثمان كيفية توزيع الجنود وذكر انه أرسل لكردفان الاورطة الثانية والثالثة والدليل باشي علي اغا الكردي واربعة من الكشاف وارسل الاورطة الاولى للمرابطة في سنار وارسل الاورطة الرابعة للمرابطة في مدني بينما جعل الاورطة الخامسة في الخرطوم •

وعلى ذلك فإن استراتيجية عثمان هي توزيع الجنود على الاقاليم المختلفة وانشاء نقطة بقلعة في الخرطوم للتحكم منها على الاقاليم ، ولذلك أنشأ النقطة والقلعة وحصن الشرق وحصن الغرب • والمقصود بالشرق الخرطوم بحري الحالية وبالغرب ام درمان •

ولقد وقفت في دار الوثائق العربية على ملخص لوثيقة هامة بالنسبة لتحديد تاريخ الخرطوم • ولكنني لم اقف على أصل الخطاب في المجموعة المترجمة الى اللغة العربية وحال عدم معرفتي بالتركية دون البحث عنها في أصلها التركي • وهذه الوثيقة فيما يقول الملخص مؤرخة في ١٦ ديسمبر ١٨٢٤ وصادرة من محمد علي باشا الى عثمان بك البرنجي ، وقد اعطى فيها محمد علي باشا موافقته على اختيار الخرطوم • ومدلول هذه الوثيقة لا يخرج عن موافقته على توزيع الاورط وبناء القلعة بالخرطوم كما سلف •

هل يعني هذا ان الخرطوم اضحت عاصمة ؟ ليس هناك من الدلائل ما نستطيع ان نقطع به ولكن يبدو ان الخرطوم لم تكن اكثر من نقطة ولكنها اكتسبت اهمية لربط كردفان بإدارة سنار ودمجه •

ولقد مات عثمان في ٢٣ رمضان سنة ١٢٤٠ بالخرطوم ودفن بها • وقبره غير معروف كما ان موضع معسكره غير معروف ايضا • ولكني احتمل انه كان الى الجنوب في اتجاه منطقة الشجرة • والدليل على ذلك اطلاق اسم محو على المنطقة على زعم انه زرع بها شجرة عرفت باسمه ، وهذا دليل على ان مقره كان هنا •

وجاء بعده محو واستقر في الخرطوم ، ولعله كان يفضل الاقامة بها

لان جوها كان احسن من جو سنار ومدني ولانها قريبة الـى الاقاليم التي خدم فيها اي بربر وشندي • اما اقليم كردفان فقد استقلت ادارته وصار سليمان بك مديرا لها بعد ان ترقى الى مرتبة اميرالاي • ماذا فعـل محـو بالخرطوم ؟ هل اتخذها عاصمة ؟ لا شيء يقطع بذلك ، ولكـن يبـدو ان اقامته كانت هناك بينما يؤخذ مـن الروايات ان دواوين الادارة كانت في مدني •

ثم جاء خورشيد ونمت الخرطوم في عهده كما بينا • وعلى ذلك فإن نقطة بدء مدينة الخرطوم كانت في عهد عثمان بك جركس البرنجي وعلـى يده ، ثم صارت المدينة تكبر حتى بلغت ما بلغت في عهد خورشيد وصارت عاصمة وفق اختياره •

وعلى ذلك كان انشاء نقطة الخرطوم في سنة ١٨٢٤ وهو تاريخ تعيين عثمان بك • وكان تعيين محو على سنار في سنة ١٨٢٥ ورفعه عن الحكم في سنة ١٨٢٦ • ثم جاء بعده خورشيد • ويبدو ان الاخير لم يتخذ النقطة عاصمة عند اول مجيئه وانما جاء ذلك شيئا فشيئا الى ان تم نقل الدواوين اليها بصفة نهائية حوالي سنة ١٨٣٠ م •

(٢) عاصمة الترك المصريين

بينما كانت عاصمة الادارة المصرية تتنقل من مكان الى آخر ويجري البحث عن مكان مناسب كان السودان نفسه يسير نحو تكوينه المندمج ليتخذ شكله السياسي والاقتصادي الحالي •

لقد كانت منطقة دارفور سلطنة منفصلة وقد سبق قيام سلطنة الفور قيام سلطنة الفونج • ولم يكن الفور اول من اسسوا الدولة في هذه المنطقة ، فقد سبقهم الى ذلك الداجو ثم التنجر الذين وضعوا قانون دالي المشهور والذي يعد المحاولة الوحيدة في السودان لتسجيل القوانين العرفية وتنقيحها • وفيما يقول المؤرخون فإن سلطنة الفور قد قامت على انقاض سلطنة التنجر في سنة ١٦٤٠ م • وقد استمرت حتى وضع الزبير باشا نهايتها في سنة ١٨٧٥م وضم اراضيها الى البلاد التابعة للإدارة المصرية • اما كردفان فكانت تقليديا تابعة لدارفور ، وكان يحكمها الكنجارة وهم بنو عمومة سلاطين الفور ، بشيء من التبعية ، تزيد أو تنقص حسب الظروف لسلطان دارفور • ونحن نعلم ان جيوش سنار قد غزت كردفان واحتلتها بعد وقائع كادت الدائرة فيها ان تدور على الفونج ويبدو ان احتلال الفونج لم يستمر طويلا ، فقد قاد الوزير محمد ابو لكيلك وقائد جيش الفونج قواته وذهب بها الى سنار ليقصي السلطان بادي بن نول ويستولي على السلطة وقد انشغلت دولة الفونج بعد ذلك بالحروب الداخلية والفتن ولم تهدأ فيها الاحوال ليجدد الفونج نشاطهم في كردفان • وقد بقيت كردفان تحت حكم الكنجارة التابعين لسيادة دارفور حتى غزت قوات الدفتردار الاقليم وأخضعته لحكم الترك ، وكان الاقليم كما اسلفنا مستقلا بادارته تحت الدفتردار ثم صار في ادارة موحدة مع سنار واقاليم النيل بعد مقتل اسماعيل • ولما جاء عثمان بك صار حاكما على كردفان وسنار وملحقاتها •

وفي عهد محو صارت ادارة كردفانمستقلة ، ثم عاد فادمج فيادارةسنار في سنة ١٨٣٢ م في عهد خورشيد •

وكانت مديرية دنقلا وحدة ادارية منفصلة حتـى سنة ١٨٣٣ ، وكان مديرها الى هذا العهد يتصل بالقاهرة مباشرة • وكانت المنطقة الشمالية منها اي منطقة المحس وسكوت وأرض الحجر وحلفا تابعة لمحافظة قنا حتى سنة ١٢٣٧هـ • ففي هذه السنةاضيف السكوتوالمحس الى دنقلا بينماظلت حلفا وملحقاتها الى حدود السكوت تابعة لقنا • وقد جاء ضم حلفا الى السودان عند قيام المهدية حيث اعتبرت الحصن الاول ضد غارات المهدية • وفي نفس الوقت فصل الطرف الجنوبي من محافظة قنا (١٢٩٢ هـ) وسمى مديريـة الحدود ثم مديرية اسوان •

وكانت حلفا قرية صغيرة عند الحد الشمالـي للشلال الثاني ، وكانت طرق القوافل والسفن تلتقي عندها • ثم اتخذت اهمية خاصة بعـد فتـح السودان على يد اسماعيل، اذ اعتبرت المحطة الرئيسية لنقل البضائع وترحيل الموظفين والجنود والحيوانات المصدرة بين أسوان ودنقلا • ولمـا جاءت المهدية أقيم فيها معسكر دائم للجيش المصري ولـم يتمكن الانصار من اقتحام هذا المعسكر أو ان يحاصروها أو يحتلوا البلاد الواقعة خلفها ، وانما تمكنوا فقط من شن بعض الغارات • وقد تمكن لنجومي مناجتيازها من الطرف الثاني من النهر الا انه وجد نهايته في توشكي • وعلى اي فان حلفا قد اضحت نتيجة لهذه الظروف جزءا مـن السودان • وصار خط الحدود يسير في شكل لسان حتى فرص بعد ان كان في بلدة صرص •

وقد تمتعت مديرية بربر ــ وهي تشمل منطقة الرباطاب وبربر وشندي بنفس الاستقلال والتبعية المباشرة لمصر حتى سنة ١٨٢٦ • امـا الاقاليم الشرقية والجنوبية فقد استولى عليها المصريون وضموها الى هذه الادارة الجديدة مع مرور الزمن • وبذلك اتخـذ السودان شكلـه السياسي والاقتصادي •

وكانت مدينة الخرطوم القديمة تبعد نحو ميل جنوب النيـل وكانت الدواوين ومساكن الموظفين وثكنات الجيش في المكان الذي به محطة السكة

الحديد الآن وكان الحي الاهلي الى الشمال منها وهو ما يعرف بحي سلامة الباشا .

وفي عهد خورشيد دخلت المدينة طورا جديدا وذلك بأن اتجهت في اتساعها نحو الشمال ، وقد شمل ذلك انشاء حي المسجد . وفي عهد عبد اللطيف اتسعت المدينة نحو الشمال الشرقي وقام حي الحكمدارية .

وفي عهد جعفر صادق حلت كارثة كبرى بالمدينة (سنة ١٨٦٦) من جراء الامطار والسيول وانهار عدد كبير من المنازل مما دعى والي‌مصر الى التفكير في بناء العاصمة في جزيرة توتي بدلا من الخرطوم . وقد جاء في ملخص خطاب الى الحكمدار بالسودان قوله « بوصول افادته بتاريخ ٢٦ ربيع أول سنة ١٢٨٣ المتضمن نزول الامطار الغزيرة في ليلة الثلاثاء الموافق ٢٥ ربيع اول سنة ١٢٨٣ وأحدث ضررا بناحية الخرطوم ولكن بسبب انها عمت جميع انحاء السودان فالمأمول باذن الله زيادة المحصولات ... وصل مسامعه الكريمة بأن موقع بلدة الخرطوم منحطة ورطبة من جهة‌ومن‌جهة اخرى فإن مساكنها مبنية بالطوب الاخضر بعضها والبعض الاخر من‌القش ولذلك يرى نقلها من موقعها الحالي الى الجزيرة التي امامها تدريجيا كلما سنحت لذلك الفرصة » . هذا هو ملخص الخطاب كما دونه أحد موظفي دار الوثائق المصرية ، اما الخطاب الاصلي فلم نعثر عليه . وقد فضل جعفر باشا المضي في عمران الخرطوم. ثم زاد اسماعيل ايوب في المباني الحكومية، وكان مما شيده معمل الورق ومعمل البارود .

ولقد بلغ اقصى امتداد الخرطوم في اواخر العهد التركي المنطقة الواقعة ما بين حديقة الحيوان الحالية وما بين مباني وزارة الصحة تقريبا . فكان ما يلي ذلك من الغرب عبارة عن حدائق وبساتين ، وما يليها الى المقرن منطقة يغمرها الفيضان . ومن هذه المنطقة كان يبدأ الشارع الذي يسير على محاذاة النيل ، وكان ينتهي في الطرف الآخر من المدينة . وكان يبدأ منه شارع آخر ينتهي بالسوق . وقد شيد الاتراك مصالح الحكومة بالقرب من النيل ، والى الجنوب من ذلك قام حي المسجد والذي‌كان ارقى احياء المدينة وكانت الاحياء الشعبية تقع في الاطراف .

وقد واجه الاتراك المصاعب والأهوال من فيضان النيل الابيض

الذي كان يغطي مناطــق شاسعة ويترك وراءه البرك والمستنقعات ، وقد ساعد ذلك في انتشار الأوبئــة الفتاكة ، وكانت الامطار والسيول تهدم مـــا يشيده الانسان • وكانت الامراض الفتاكــة كحمى ام سبعة والهواء الاصفر (الكوليرا) تنتشر من وقت لآخر وتفتك بالناس فتكا •

ومن طريف مـــا يذكر ان خورشيد باشا قـــد شيد قصرا في شندي ليقضي فيه فترة الصيف المخيفة ، وكان موسى حمدي باشا يقضي الصيف في اسوان • وقد اعتمد خورشيد في اول الامر علـــى الطوب الذي جلبه من خرائب سوبا ، ويقـــال انـــه عهـــد بذلك الى عبد السلام زعيم المغاربة والذي كـــان مرابطا بقومه في موضع حلة كوكو بالخرطـــوم بحري • ثم انشأ الاتراك كمائن الطوب الاحمر في بري والجريف ، امـــا الحجر الذي استعمل في بناء بعض القصور فقد جلب من غرب ام درمان •

وكان انعدام الحرفيين من بنائين ونجارين وغيرهم من اعقد المشاكل ولذلك احضروهم مـــن مصر ، واعدوا بلوكات مـــن الجيش لتقوم بهذا العمل • وكان بالخرطوم موظف عمله مناظرة مشاكل البناء والاشراف على المباني وهو ناظر العمارات الميريـــة • وكانت الظروف الطبيعية كالسيول والفيضانات والامطار تعقد الامور بينما لا توجد مواد البناء بشكل كاف•

يقـــول الحكمدار في خطاب الى المعية السنية بتاريـــخ ٤ محرم سنة ١٢٨٧ ، مستعرضا مشاكل العمران وذاكرا له الخطة التـــي بدا تنفيذهـــا منذ ثلاث سنوات :

« ••• السودان لاستغراق ايرادها في المصاريف لم كان جاري بها عمارات ميرية وطوابي ومساكن عسكرية حتى مـــن الجملة لم يوجد بهـــا اشوان وقشلاق وجبه خانات ودواوين واستباليات الا شيء قليـــل مبني بالطين والطوب الاخضر • وفي كل سنة يهد من الامطـــار ويصير تجديده سنوي بمصاريف زايدة ومشقة بدون فايدة كون ان جهات السودان لغاية حضوره بها لم كانوا يعرفون الطوب الاحمر ولا الجير ولا كان يوجد بها بنايين وحجارة ونجارين وفعلة وحدادين • ولما اتضح له ان احداث المباني

بالحجر والطوب الأحمر والجير هو اوفر وارجح للميري وانـه لشرف الحكومة في ابقى اثـار العمارية في زمن الحضرة الخديوية فلذلك رتب بلوكات عمارة مـن العساكر السودانيين المتقدمين في السن بالخرطوم والتاكة وكردفان وسواكن ومصوع واعرض كيفية ذلك شفاهي وتحريري للحضرة الخديوية وصار اسعافي بارسال حجارة ولغمجية وبنايين ونجارين وحدادين وبواسطتهم قد صار تعليم جملـة اشخاص مـن العبيد واهالي السودان • وانه لما كـان بالمحروسة وطلب منه تقديـم ميزانية الصرف (اتضح ان هنـاك وفر كتير) لانـه اذا شرع في بناء لا يصرف الا اجرة البنايين والحجارة والجيارة والنجارين • واما ضرب الطوب وقطع الحجر ونقل الاخشاب فهو بمعرفة عساكر بلوكات العمارة ونقله لمحل العمل هو بمراكب الميري وجمال وحمير الميري واغلب الفعلا هم من المحابيس المذنبين وكلما صرف بهـذا الوجه تخصم بالابعادية على كـل عمـارة حتى صار احداث مبـاني وعمارات وارصفة ومحطات للتلغراف ومساجد ومكاتب ودواويـن وكمارك واستحكامات وشون ومخازن باغلب مراكز المديريات خصوصا سواكن ومصوع ••• »

وغني عن البيان ان الخطاب يعالج شأن العمران بصفة عامـة ، وان كثيرا مما ذكر لا ينطبق على حالة الخرطوم بالذات ولكن مشاكل العمران العامة ينبغي ان تفهم حتى تتضح صورة عمران الخرطوم بشكلها الطبيعي•

ويبدو أن الحكومة كانت تشجع الموظفين والضباط لبناء مساكنهم فقد جاء تعليق الخديوي على عريضة احد الضباط ما يلي : اذا كـان المذكور حفر بير وغرس أشجار مختلفة ونخيل ويلزم جهدا لتقدم العمران فإن من اللازم مساعدته وامثاله بما يتناسب •

وعن مدينة الخرطوم وعمارتها وجملة من شئونها يصدر الخديوي أمرا الى الحكمدار ، يشير فيه الى ان التصورات المعقولة التي ابداهـا الحكمدار « في ادخال اصلاحات جديدة على الأبنية الاميرية في بنـدر الخرطوم هي في محلها وانها تستحق الاستحسان والتقدير • بيـد انه

روى من المناسب ان يقام ديوان مديرية الخرطوم وديوان الحكمدارية ودار المحكمة في سمت واحد وان يرتب لبنادر الخرطوم والاقاليم السودانية كدنقلة وبربر وكردفان وكسلا وسواكن ومصوع مأمور وضبطية وقواصون على نحو ما هو جار في اقاليم هناء وان ينشأ محل خاص لديوان الضبطية قريبا من ديوان الحكمدارية وان يختار محل المستشفى في مكان معروض للهواء واسع الجوانب وان تكون له حديقة كبيرة وان يكون في البندر قشلاق كذلك في مكان بعيد مع الاهتمام بتنظيم الشوارع وتوسيعها على قدر الامكان ورعاية اصول الصحية والهندسية في بناء المحلات المنشأة وتصريف المياه التي تتجمع من السيول المعتادة صونا للمدينة من الغوائل للبحر • ولما كان ترتيب الضبطية ومأموريها على النحو الآنف ذكره سيترتب عليه ان يناظر حفظ الامن العام والمنازعات والمخاصمات بهؤلاء المأمورين فيجب اختيار الموظفين من رجال العمل المتحلين بصفات الاستقامة لتعتمدهم العامة وكذلك يجب اختيار القواصين من عساكر الباشبوزق (غير النظامية) المهذبين لا من غواة الهندام والجراءة والسفه والتهتك • وبما انه سترسل ٤٠٠ كسوة لإلباس هؤلاء فيجب اعطاء كل واحد كسوتين وتعيين بلوكباشي على رأس كل تسعة منهم وعلى رأس كل ٥٠ نفر ملاحظ (قفوش اغاسي) وان يعطي النفر ماهية قدرها ٢٠٠ قرش والبلوكباشي ٢٥٠ قرش والقفوش اغاسي ٣٥٠ قرش على الا يزيد عددهم على ما يتي نفر الآن• ثم يوزعون على البنادر بحسب اهميتها ما عدا سواكن ومصوع اللتين سيرسل اليهما من هنا • ولما كانت الحكومة تعتني بوضع لائحة لمأموري ضبطية الاقاليم فسنرسل لكم صورة عنها عند استكمالها • فعليكم تصريف الشئون الآن وفق درايتكم حتى نرسل اليكم اللائحة • أما ما يعطي للاهالي والاجانب من الطوب والحجر والجير والبلاط والخشب من أجل العمارات فيجب ألا تضاف اليه ارباح ترغيبا للاهالي في العمران • ولما كان من مقتضيات رغبتنا توطيد الامن والسكينة في البلاد وتحسين حالة العباد وترك اثر بارز في اصلاح السودان فإن كل جهد تبذلونه في استكمال ذلك يوجب ارتياحي • فشمروا عن ساعد الجد

وابذلوا في سبيل الاصلاح الذي أشرتم اليه في خطابكم كل جهده

وصف الخرطوم :

كانت المدينة مقسمة الى احياء ، وكان كل حي يسمى قسما واليك وصفا لأهم احياء المدينة •

حي الحكمدارية :

كان حي الحكمدارية أهم احياء الخرطوم وقد تجمعت فيهدواوين الحكومة ومصالحها وبيوت كبار الموظفين وثكنات الجيش والمرافقالتابعة له • وكان هذا الحي يمتد من المكان الذي به الآن مصلحة المراجعة الى المكان الذي به جامعة الخرطوم ، وهو المكان الذي تتركز فيه السلطة الآن • وكان أهم مباني الحي هو قصر الحكمدارية ، وهو المقر الرسمي للحكمدار ، وكان موضعه في المكان الذي به وزارة المالية والاقتصاد والميدان الذي على شماله • وقد شيد هذا القصر في عهد أحمد ممتاز باشا ، واستجلب لبنائه الحجر الابيض المنحوت من غرب ام درمان • وكان المدخل الرئيسي للقصر وهو الذي يدخل منه العموم بالناحية الجنوبية • أما المدخل الخصوصي الذي يدخل منه الحكمدار فكان بالشرق وكان المدخل الرئيسي يتكون من ثلاثة أبواب وأمام كل باب دكتان طويلتان إحداهما بالناحية الشرقية والاخرى بالغربية ، ويجلس على هذه الدكك القواصة الاتراك بسراويلهم المقصبة وارديتهم القصيرة وسيوفهم الكبيرة • وبشرق هذا المدخل رواق مستطيل فيه غرف من الجانبين وله باب شرقي يوصل بين القصر والسراي وهو باب الحكمدار• وكان في غرب هذا الرواق مكاتب القلمين التركي والافرنجي ومكتبة القصر •

والىالشرق من قصر الحكمدارية كان السراي وهو القصر الذي أعد لسكنى الحكمدار وعائلته • وقد شيد هذا القصر خورشيد باشا ثم جدد بناءه عبداللطيف • وقد بني القصر بالحجر الابيض المنحوت الذي استجلب من ام درمان • وكانت تحيط به من الشرق والغرب والجنوب

حديقة واسعة • أما البناء نفسه فكان مطلا على شارع النيل • وقد ظل هذا القصر مسكنا للحكمداريين حتى شغل غردون في سنة ١٨٨٤ اي في أثناء الحصار بعض اجزائه بالدواوين ، وقد جعل في الدور الارضي مصلحة المالية وجعل طرفا من الدور الاعلى مكاتب له ولمعاونيه بينما اكتفى هو بجناح لسكناه • وقد قتل غردون على يد انصار المهدي في هذا الجناح ، واسدل بذلك الستار على الحكم التركي الذي استمر اكثر من ستين عاما • ان هذا القصر هو قصر الذكريات ، فقد أقام فيه الحكام الاتراك الى أن لقى آخرهم مصيره على يد الانصار • ولما دارت الدائرة على الانصار وعاد الامر للغزاة اتجه كتشنر لتوه الى هذه البقعة ليرفع على انقاض القصر العلمين المصري والبريطاني ويقيم صلاة جنائزية على روح غردون • وبعد فترة وجيزة شيد على نفس الاساس القديم القصر الحالي واقام فيه حكام عام السودان ، وكانوا هذه المرة من البريطانيين ، وقد ظلت الايام تدور والعلمان يرفرفان فوق القصر رمزا للحكم الاجنبي المشترك حتى جاء اليوم المعلوم وانزل العلمان في حشد كبير وحل مكانهما علم السودان المستقل • وقد غير هذا العلم نفسه في احتفال رسمي في مايو ١٩٧٠ ، وقد اضحى القصر اليوم مقر رأس الدولة وصار يعرف بالقصر الجمهوري بعد ان كان سراي الحاكم العام •

والى الشرق من السراي كانت الشونة ، وهي مخزن للغلال وكان موضعها في المكان الذي به وزارة الاشغال الآن • وكان يعمل بهذه الشونة أحمد بن الحاج أبو علي المشهور بكاتب الشونة والذي وضع المخطوط المنسوب اليه في تاريخ سلطنة الفونج واوائل العهد التركي ، وهو مخطوط قيم ، ويعد الاثر السوداني الوحيد في موضوعه • ولهذا المخطوط نسخ خطية كثيرة ونسختان محققتان مطبوعتان ، حقق احداهما البروفسير مكي شبيكة واخراهما الاستاذ الشاطر بصيلى عبد الجليل • وقد روى كاتب الشونة الشيء الكثير عن مدينة الخرطوم ، وهو مصدر أساسي في هذا الموضوع • وتجاور الشونة من الشرق الترسانة ،وكانت هذه من أهم مصالح الحكومة ، وهذا أمر طبيعي بالنسبة لاهتمام

الاتراك بالنقل النهري بين مصر والسودان ولاعتمادهم على المواصلات النهرية في توسعهم نحو اواسط افريقيا ، وقد تم لهم بالفعل فتح بلاد شاسعة امتدت حتى يوغندة • وبخلاف ترسانة الخرطوم اقام الاتراك مراكز لبناء السفن من خشب السنط في الكاملين وبربر وود شلعي وسنار ودنقلا • وقد استجلبوا لذلك العمال المهرة من مصر وأدخلوا طرازا جديدا من المراكب لم يكن للاهالي به عهد ، وبفضل اهتمامهم بالنقل النهري ونمو التجارة النهرية اتسعت صناعة المراكب وعادت لاهلها بالربح الوفير ، فوفد الصناع الى أواسط السودان حيث يكثر السنط ويشتد الاقبال على المراكب ، وكان من هؤلاء عبدالله بن فحل والد الامام المهدي •

وكانت الترسانة في أول امرها بغرب المدينة في الموضع الذي به الآن طلمبة مياه المدينة بغرب متحف الخرطوم • وقد أمر الوالي بنقلها الى مكان مرتفع تفاديا لمياه الفيضان فنقل الجزء الخاص بالسفن الى الشرق في الموضع الذي يبناه ، بينما ابقى على الجزء الخاص بصناعة المراكب الشراعية في الموضع القديم ، وهو الذي عرف بالمنجرة • وكان به أيضا طرف اهلي تصنع فيه مراكب الاهالي • وحتى بعد ان نقل ذلك الجانب من الترسانة ظل معظم عمال الترسانة ، واغلبهم من السود يسكنون بها حتى جاءت المهدية • والى وقت قريب كان هذا الموضع عامرا بسكانه وقد رحلوا بعد الاستقلال الى أماكن اخرى بعد ان اعطوا أراضي البناء والتعويضات اللازمة •

وكان بالترسانة ١٢ سفينة بخارية كبيرة وعدد من الصنادل الصغيرة وعدد كبير من السفن الشراعية • وكانت كلها مملوكة للحكومة لتؤدي أعمالها ، كما أنها كانت تؤجر للتجار وكل من أراد • وكان اغلب السفن والمراكب التي استعملها الاجانب في التجارة بأعالي النيل مؤجرة من الحكومة • وقد انشئت في هذه الترسانة البواخر : محمد علي ،ونيانزا ، وشبين ، والتوفيقية ، والحسينية ، والفاشر ، والزبير • وقد احصى قرانت البواخر والسفن التابعة للترسانة فعد ٤٥ سفينة وذهبية تحت

البناء وعشر سفن جاهزة للايجار ، ومائتين تعمل على النيل الابيض • وكان للترسانة ناظر كما كان بها مهندس ميكانيكي نمساوي الاصل (١٣٨٨ هـ) وعدد كبير من النجارين والحدادين وغيرهم من العمال •

ولقد لعبت البواخر دورا خطيرا أثناء حصار الخرطوم ، وكان من المقدر الا تقاوم المدينة كل هذه المقاومة لولا هذه البواخر التي كانت ترسل حممها على الانصار وهي في وسط النهر ولا سبيل الى الوصول اليها • ولما سقطت المدينة استولى الانصار على ما بقي من هذه البواخر وأضافوها الى بيت المال • وبدار الوثائق المركزية بعض وثائق هذه الترسانة في عهدها التركي وعهدها المهدوي ، وهي تفيدنا بمعلومات كثيرة عن السفن وتلقى اضواء كثيفة على دور النقل النهري في العهدين التركي والمهدوي •

وعلى ما نحسب كانت المطبعة الاميرية ملحقة بالترسانة او على الاقل لم يكن موضعها بعيدا عنها • وكانت ادارة المطبعة تتكون من المطبعة ومخزن كبير للورق وورشة لتجليد الكتب والدفاتر • وقد طبع الاتراك في هذه المطبعة دفاتر الحسابات وأوراق الدمغة وكل مستلزمات الحكومة من المطبوعات ، ولما اشتد حصار الخرطوم وشح النقد في المدينة طبع غردون بوناته المشهورة والتي بلغت قيمتها ستين الف جنيه ، وكانت البونات عبارة عن سندات حكومية تعهد غردون بدفع قيمتها نقدا من خزينة الخرطوم أو مصر بعد ستة اشهر من تاريخ اصدارها •

ولقد كانت بونات غردون أول نقد ورقي عرفه السودانيون •

وكان مما طبع في هذه المطبعة الرسائل التي ألفها علماء الخرطوم في الهجوم على المهدي وانكار مهديته ، وقد تم طبعها في سنة ١٢٩٩هـ ومنها كتاب هدى المستهدي الى بيان المهدي والمتمهدي للشيخ الأمين بن محمد رئيس ومميز علماء السودان ، ورسالة الغزي وحتيك ومن معهما • وتوجد النسخة الوحيدة من هدى المستهدي في الخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية وعدة نسخ من الرسالة الثانية بدار الوثائق المصرية ولا توجد نسخ لها في غير هذا الموضع •

وكان بشرقي الترسانة بعض ثكنات الجيش ومصنع حربي لصناعة الذخيرة وملابس الجيش والاحذية ثم مستشفى الخرطوم • وقد بـدأ انشاء هذا المستشفى في عهد ممتاز باشا وبلغ كماله في عهد اسماعيل ايوب ، وكان يسع ٢٧٠ سريرا • وقد وصف احد السواح الذين زاروا هذا المستشفى بعد افتتاحه بسنوات وصفه بالرداءة والقذارة بينماوصفه الدكتور فلكن الذي زاره بعد هذا السائح بقليل بأنه مستشفى فسيـح وممتاز • ومما يذكر ان الاتراك بنوا مستشفى في كـل عاصمة مـن عواصم المديريات ما عدا فاشودة •

والى الجنوب من قصر الحكمدارية كانت مباني المديرية ومصلحة البوسته ومصلحة المالية وميدان فسيح تقام فيه الحفلات الرسمية •وكان يحيط بها كلها سور كبير • وكانت مباني المديرية اقل ارتفاعا من مبـاني الحكمدارية ، وقد شيدت مبانيها في عهد خورشيد باشا وكان بجنوبها دهليز مستطيل وبوابة جنوبية مزخرفة ، وتوصل بين الدهليز والبوابة فرندة ذات اعمدة شاهقة يجلس عليها اصحاب المطالب والمصالح مـن الاهالي • وكان على جانبي الدهليز غرف يسكنها البلك المكلف بحراسة هذه المصالح • وكان في الطرف الشمالي الغربي من هذا المربع مصلحـة البوسته والمالية ، وقد نقلت الاخيرة الى السراي في عهد غردون كمـا اسلفنا • والى الجنوب من هذا المربع كانت مباني مصلحة الصحة وكـان موضعها في المكان الذي به مصلحة المراجعة الآن •

حي المسجـد :

والى الغرب من حي الحكمدارية كان حي المسجد وهو اهم الاحيـاء السكنية • وقد نشأ هذا الحي حول المسجد الذي بناه خورشيد باشـا ثم وسعه كما سبق القول في المقال السابق • ويخيل الينا ان هذا المسجد لم يكن بعيدا عن البقعة التي كانت بها حلة الخرطوم القديمة • وكـان أهم معالم هذا الحي المسجد المذكور • وهو المسجد الذي صلى فيـه الامام المهدي في اول زيارة له لمدينة الخرطوم بعد سقوطها في يـده ، ثم السوق ، وكانمقسما الى قسمين ، السوق العربي والسوق الافرنجي،

وكان كل منهما يتكون من أربعة شوارع ، وقد امتدت يد الاصلاح اليه في عهد اسماعيل أيوب ووسعت شوارعه • وكانت بيوت الاهالي في هذا الحي مبنية الى عهد خورشيد باشا بالطين والشكاب وجلود البقر والقش ، ولم يكن بها منازل بالطوب الأحمر الا العدد القليل • وقد شجع خورشيد الاهالي على التعمير وظل يمدهم بالاخشاب والالواح فحلت المباني الراقية مكان بيوت الشكاب والقطاطي والزرائب • ومع مضي السنين صارت هذه البقعة مسكن علية القوم وسراتهم ، فاقيمت فيها القصور وسكنها كبار التجار والاعيان والاجانب بينما تراجع الفقراء الى اطراف المدينة • وكان من هذه القصور قصر علي الخلوصي وكان مقاما في المكان الذي به قصر السيد علي الميرغني الآن ، وقصر الخواجة جورج تشيادي الذي كان مشيدا في المكان الذي بين سراي السيد علي واستراحة الري المصري ، وقد شغل صاحبه الدور الأرضي بحانوت مستطيل مملوء بأصناف المشروبات الاوربية وبار وقهوة على الطراز الافرنجي ، وكان في هذا الحي بعض القنصليات الاجنبية ، وكانت القنصلية المجرية على الشارع المطل على النيل بينما كانت القنصلية الايطالية شرق المسجد وكان من القصور المهمة قصر الجاركوك ، وقد خصص هذا القصر لسكني الامام المهدي بعد سقوط المدينة • وقد كان المهدي يحل به للراحة عندما يقوم بزيارة المدينة ولم يتخذه مسكنا دائما لأنه ظل معسكرا في الجانب الغربي من النيل الابيض حتى شرع في بناء معسكر الهجرة والذي تطور الى مدينة ام درمان •

وفي الموضع الذي به المجلس البلدي الآن شيد المبشرون الكاثوليك مبنى الارسالية الرومانية الكاثوليكية ، وقد كان ذلك أول بناء حجري عرفته المدينة ، وقد الحقوا به مدرسة لتعليم الصبيان وحديقة واسعة امدت الارسالية بمطالبها • وقد كانت الارسالية تشغل المنطقة التي تشغلها الآن بلدية الخرطوم ومكاتب الري المصري ومنزل مفتش الري المصري ومصلحة النائب العام • وقد جلب المبشرون طلمبة بخارية للري، واستخدموا ايطالياً يدعى دومنيكو ليشرف على المزرعة وقد بقي دومنيكو يقوم بهذه المهمة بحماس حتى توفي بعد سقوط المدينة في يد الانصار

بزمن • والى الشمال الغربي من هذا الحي كانت كنيسة الاقباط ، وقد اقيمت الكنيسة الحالية في موضع الكنيسة القديمة •

وكان بالموضع الذي يسمى الآن المحطة الوسطى ارسالية بروسيا البروتستنتية التي أقامت معبداً ودارا ومدرسة •

الاحياء الشعبية :

وكانت هناك أحياء اخرى أقل أهمية من الاحياءالسالفة وهي الاحياء الشعبية التي يسكنها عامة القوم ممن هم دون كبار-الموظفينوسراةالمدينة• وقد قامت هذه الاحياء في أطراف المدينة وكان جل سكانها من المواطنين•من هذه الاحياء حي سلامة الباشا ، وكان موضعه في الجنوب الغربي من المدينة ومكانه الآن جنوب السوق العربي • وكان سكانه من الدناقلة والنوبة وغيرهم من أهل البلد • ويعتبر هذا الحي أقدم أحياء المدينة ، ثم حي النوبة ونقصد بهم الوافدين من جبال النوبة وهم بخلاف الوافدين من حلفا ، وكان هذا الحي يقع الى الشرق من حي سلامة الباشا وكان سكانه في الغالب من النوبة والعناصر السوداء المتقاعدين عن خدمة الجيش •• وكان هناك حي يسمى « هبوب ضرباني » وهو أفقر أحياء المدينة ، كما يبدو من اسمه وكان يسكنه الفقراء • وفي المنطقة الواقعة غربي شارع الحرية الحالي كان حي الترس ، وقد أخذ اسمه من الجسر الذي اقيم جنوبيه لحماية المدينة من فيضان النيل الابيض وكان سكان هذا الحي من المصريين والسودانيين • وكان هناك حي الكاره وهو حي يسكن فيه العسكر المصريون والسودانيون ، وحي الطوبجية ، وكان يسكنه الطوبجية • وفي أقصى الشرق كان حي بري المحس وهو حي الوطنيين من أهل الجهة ، وقد ظل هذا الحي في مكانه الى أن نقل الى موضعه الحالي بالبراري في سنة ١٩٠٠ واقيمت في مكانه ثكنات الجيش البريطاني •

ادارة المدينة :

وقد أنشأ الاتراك في الخرطوم محكمة شرعية عليا كان من اختصاصها النظر في القضايا الجنائية والمدنية بجانب القضايا الشرعية • وكان أول

من تولى القضاء الشيخ أحمد السلاوي الذي وفد مع الجيش الفاتح ، وقد رأيت تأشيرة له على بعض سندات الاراضي وصف فيها نفسه ومحكمته بقوله : بالمحكمة الشرعية المطهرة المرضية بخرطوم جزيرة سنار المحمية لدى، متوليها السيد أحمد افندي السلاوي قاضي بلاد السودان • وكان دون هذه المحكمة محكمة مأمور ضابطية الخرطوم التي كانت تنظر في القضايا الصغيرة • ثم انشئت المجالس المحلية في السودان على غرار المجالس في مصر للنظر في القضايا الجنائية والمدنية الكبرى • وكان من نصيب الخرطوم مجلس محلي • ثم أسس في الخرطوم مجلس للاستئناف ، تستأنف فيه جميع الاحكام الصادرة من المجالس المحلية وكان يجوز استئناف احكام هذا المجلس عند مجلس الاحكام بمصر • أما الادارة المحلية فكانت في يد ناظر قسم الخرطوم ، وهو يوازي المركز في نظام الحكم الثنائي الذي تعدل مؤخرا • وكان قسم الخرطوم يمتد جنوبا على النيل الازرق الى مسافة بعيدة • وكان أول النظار تركياً يدعى بكر بك ثم خلفه سودانيون ، وكان اغلب هؤلاء من قبيلة الشنابلة والمحس • اما المديرية فكانت تتكون من عدة أقسام كما هو العهد بمحافظة الخرطوم سابقا •

التعليم :

كان السودانيون يعتبرون التعليم مهمة انسانية يقوم بها من له القدرة والكفاءة بعون ذوي الاريحية مقابل حسن الجزاء في الآخرة • وقد قامت مدارسهم المنبثة في القرى والتي عرفت بالخلاوي على هذا الاساس • ولم تكن لهذه المدارس برامج ولا رابطة تجمع بينها ، وكانت شهرة الخلوة تقوم على شخص الاستاذ ومبلغ علمه وماعسى أن يكون لاجداده من الشهرة والصيت • ولقد سبق القول ان قرية الخرطوم قد قامت حول احدى هذه الخلاوي • ولما جاء العصر التركي وتحولت القرية الى مدينة عامرة لم يغير ذلك من نظر الوطنيين الى التعليم كثيرا ، فارتاد ابناؤهم الخلاوي التقليدية واستنكفوا عن مدارس الحكومة ومدرسة الارسالية لما كانوا يرون فيها من الخطر على ابنائهم •

وقد اهتم المصريون بهذا النوع من التعليم ، وأعطوا الخلاوي

المهنة مساعدات مالية نقدا ونوعا ، أي جراية • وكان من الخلاوي التي تحصل على هذه الاعانة خلوة الغبش المشهورة التي تتلمذ فيها المهدي لفترة ، وقد رفض المهدي انيأكل طعام الخلوة لاعتباره اياه من جراية الحكومة ، لما انها حرام عليه في اعتقاده ، ذلك لان بعض المتدينين كانوا يسيئون الظن بالحكومة ويرون انها تجمع أموال المسلمين بغير وجه شرعي • وقد رأيت خطابا في دار الوثائق القومية العربية يعد شاهدا على نسط الاعانة • وقد جاء فيه أن خلوة الشيخ أبي صالح بن الشيخ أحمد الطيب كان بها ٥٤ طالبا من الفقراء وقد خصص لها ٢٥٠ قرشا شهريا ، منها ١٠٠ للخلوة و ١٥٠ للشيخ نفسه بالاضافة الى أربعة ارادب وسدس من الذرة •

وخلوة الشيخ الامين محمد خوجلى كان بها ١٥٣ من الفقراء ، وخلوة الشيخ محمد عبدالله خوجلى بالغبش ٥٧ فقيرا ، وذكر ان الاوائل يحفظون القرآن ، وأن الأواخر يدرسون العلم الشريف • وقد خصص لخلوة الشيخ الامين ٤٠٠ قرش ومن الذرة ستة ارادب • أما لخلوة الغبش فقد خصص ٢٥٠ قرشا وأربعة ارادب ذرة • وكان المصريون يجعلون في كل مسجد من مساجد المدن مدرسة لتعليم الدين يرتادها الكبار والصغار • ففي دنقلا انشأوا في سنة ١٢٦٣ هـ مسجدا ومدرسة والحقوا بها ١٦ دكانا ليصرف ريعها على المؤسسة الدينية •

وكان أول مسجد ادخل فيه نظام التعليم مسجد الخرطوم ، وقد أمر بذلك سعيد باشا عند زيارته للخرطوم ثم أصبح الامر بعد ذلك سنّة يحافظ عليها في كل مسجد كبير • يقول خطاب عن هذا المسجد : « اجبتم بأن موكب جناب الخديو لما كان في السودان انشيء بموجب ارادة سنية مسجد لتعليم من له رغبة بتعلم العلم الشريف وخصص له من جانب الحكومة مائة وخمسون قرشا ولكن بالنظر لوجود الفقراء في المسجد المذكور بكثرة ترون انه اذا أضيف على ذلك المرتب القديم مائة قرش أيضا حتى يكون المجموع مايتين وخمسين قرشا مع ترتيب ثلاثين أردب من الذرة في السنة يمكن ادارة آمور ذلك المسجد بمن فيه » • وقد طلب الخطاب الموافاة بعدد الفقراء ومقدار حصة كل منهم

وقد جاء الرد بأن الفقراء يبلغون ٨١ وان المرتب مائة وخمسون قرشا وان ذلك كله مقيد من قديم باسم الشيخ ابراهيم ، وهو شيخ هذه المدرسة .

ويقول الخديو في خطاب عن مدارس المساجد بعد أن يشير الى القرار بتعيين الاساتذة المرتبين لأجل نشر العلوم والمعارف : « بعد انشاء الجوامع في مثل هذه الجهات والنواحي التي دخلت تحت ادارة الحكومة وتبعيتها وبعد انشاء مدرسة واسعة في جانب كل جامع من الجوامع المذكورة لأجل نشر العلوم والمعارف يلزم انتخاب الذين سيكونون اساتذة لهذه المدارس من أصحاب الاهلية والكفاية . وحيث ان رؤساءهم بالطبع سيكونون من زمرة العلماء فالأصوب ان يكون تلقيبهم بعنوان رئيس الاساتذة أو بعنوان آخر بدلا من أن يكون بعنوان شيخ » . وفي خطاب آخر يقول : « ان المدرسين الذين يعينون لنشر العلوم في المدارس الواسعة التي تستحدث في نواحي وجهات تدخل تحت ادارة الحكومة في جنب جوامع تنشأ فيها يلزم أن يكونوا من أهل الكفاءة والاهلية . ومن الضروري انتخاب هؤلاء المدرسين من قبل العلماء فينبغي تسمية من يقوم بانتخابهم باسم مميز المدرسين أو رئيس المدرسين بدل تعبير الشياخة » .

وبالاضافة الى ذلك اهتم المصريون بارسال الطلبة السودانيين الى مصر ليلتحقوا بالازهر الشريف أو المعاهد المختلفة . وفي سنة ١٢٦٣ انشيء الرواق السنارى لينزل به طلبة السودان الذين يدرسون بالازهر . وقد فكر المصريون في تدريب السودانيين ليحلوا محل المهندسين المصريين الذين يقومون بتركيب مصانع الحلج ومكابس القطن والاشراف عليها ، وفي ذلك يقول خطاب بدار الوثائق القومية : « بخصوص وفيات المهندسين الذين يحضرون من مصر لتركيب دواليب الحلاجة والمكابس يقترح فرز مائة شاب من الاهالي ان كانوا من تلاميذ مدرسة الخرطوم أو من أولاد العساكر وخلافهم ويرسلوا المحروسة لتعليمهم في مدارس العمليات الميكانيكية والزراعية » . وجاء في خطاب آخر ما يلي : «افادتكم المؤرخة في ١٩ شعبان سنة ١٢٨٧ تقترحون فيها انتخاب عشرين تلميذا

يختارون من تلاميذ المدارس هناك وايفادهم الى مصر ليتعلموا فن الطبابة « اي الطب » والصيدلة وذلك بناء على ندرة الاطباء في بلاد السودان • وقد رفض هذا الطلب لان الاطباء والصيادلة الذين يوكل اليهم الشئون الصحية يجب أن يكونوا حاذقين ومهرة في فنهم ولا يمكن تخريج أطباء اكفاء في مدة وجيزة » •

ولما غضب عباس باشا الاول والي مصر على رفاعة رافع الطهطاوي مدير مدرسة الالسن وأحد مشاهير رجال التربية في مصر ، نفاه هو وبعضا من المثقفين الذين شملهم غضبه الى السودان تحت ستار انشاء مدرسة في الخرطوم ، وكان من بين هؤلاء محمد بيومي مدرس الرياضة بالهندسخانة وابراهيم سليم مهندس مديرية القليوبية سابقا • وعندما بلغت هذه البعثة العظيمة الخرطوم لم تكن الظروف مواتية للمضي قدما بالمدرسة المزعومة • فقد كان رجال البعثة يعلمون انهم مبعدون عن بلادهم اكثر من كونهم رسل علم وحضارة ،وقد أظهروا تبرما واضحا من هذه المهمة • ولم يكن استقبال الحكمدار اسماعيل حقي بخير ، فقد صرف النظر عن المدرسة ووزع معداتها على الجيش وأهمل شأن رفاعة وصحبه وقد قيل انهم بقوا في الخرطوم مدة طويلة دون عمل • وبلغ الهوان برفاعة مبلغه عندما ندب لاحصاء النخيل • أما الاهالي فقد استقبلوا الخبر بخوف وتوجس • قوم ظنوا ان الهدف من وراء المدرسة هو التجنيد ، وآخرون كانوا يخشون على ابنائهم من الكفر والالحاد لزعمهم ان المدرسة مفسدة اي مفسدة ورجس من عمل الكفار • وقد كان هذا الزعم عالقا باذهان العامة حتى وقت قريب واخشى أن يكون فينا شيء منه حتى اليوم • على أن الحال قد تغير قليلا عندما تذكرت القاهرة الرسالة المنسية وجاء سليم صائب خلفا لاسماعيل حقي الذي آثر جيشه بطرابيش المدرسة ومعداتها • وقد قدر لهذه المدرسة ان تفتح أبوابها في سنة ١٨٥٣ ، وكان قوامها ١٢ مدرسا وضابطا للصحة • أما الطلاب فقد كانوا من أبناء الموظفين وأثرياء المدينة ، أما أبناء العامة فكانوا يذهبون الى الخلاوي • وكان يدرّس في هذه المدرسة القرآن الكريم واللغتان العربية والتركية والرياضة • ولما توفي عباس

باشا وخلفه سعيد باشا في الحكم استدعى هذا الاخير رفاعة وزملاءه الى القاهرة ، وكان قد مات منهم بيومي وآخرون وبذلك انتهت قصة هذه البعثة التعليمية التي تأخذ بريقها من شخص رفاعة وزملائه اكثر من المهمة ذاتها • وفي سنة ١٨٦٨ استجد الاهتمام بالتعليم وفتح المصريون مدرسة ابتدائية في الخرطوم بينما فتحوا بعد قليل مدرسة مماثلة في بربر واخرى في دنقلا • وقد كان برنامج هذه المدارس على نمط برامج التعليم في مصر •وكانت مدة الدراسة ثلاث سنوات • وقد وظف اغلب خريجوها في الترسانة والتلغراف • وفي سنة ١٨٦٩ ارسل ١٠٠ من خريجيها الى القاهرة ولكن يبدو أن رحلتهم لم تكن موفقة لضعف مستواهم بالمقارنة الى مستوى زملائهم في مدارس مصر • وبخلاف هذه المدرسة كانت هناك مدرسة حربية لتعليم الفنون العسكرية •

وقد أسس الآباء الكاثوليك مدرسة ارتادها ابناء الاوربيين وبعض أثرياء المدينة ، كما ارتادها الاطفال السود الذين تبنتهم الكنيسة •وقد كان برنامج هذه المدرسة يشتمل على الموضوعات الفنية والعملية والموضوعات الانسانية • ولم يكن الاقباط اقل اهتماما من غيرهم فقد بنوا مدرسة خاصة بهم وارسلوا اليها ابناءهم •

سكان المدينة :

كان سكان مدينة الخرطوم خليطا من أجناس كثيرة • ومن الممكن تقسيم هذه الاجناس الى أقسام ثلاثة ، الجالية الشرقية والجالية الغربية ثم الوطنيين ، أما السودانيون فقد كان اغلبهم من مواطني الأقاليم القريبة من المدينة ، وقد وفدت اليها مع مرور الزمن جماعات كبيرة من الجعليين والشايقية والدناقلة وقد تركز أبناء كل قبيلة منهم في حي من الاحياء ، كما يحصل عادة في المدن السودانية • واذا ما نظرنا الى عدد السودانيين بالنسبة الى عدد الاجانب فإن عددهم يبدو صغيرا وقد قدر أحد الرحالة عددهم في أواخر العهد التركي بخمس السكان اي نحو عشرة آلاف •وكان نصيب السودانيين من ثروة المدينة وخيراتها نصيبا ضعيفا لتفوق الوافدين من الخارج عليهم حضاريا وماديا •

الجالية الشرقية :

تتكون هذهالجالية من خليط من أبناء الشرق ، وكان اغلبهم من المصريين ثم الشوام • وكان الاخيرون يعملون بالتجارة وكان اغلب المصريين من مديريتي اسنا واسوان ، وقد كان ابناء هاتين المديريتين على علاقات تجارية قوية مع السودانيين منذ أزمان بعيدة ولم تكن كثرتهم الغالبة في المدينة امرا عفويا وانما كانت امتدادا لهذه الظاهرة التاريخية•وكان المصريون يحتكرون أغلب مناصب الدولة الا ان الوظائف الكبيرة كانت شبه محتكرة للاتراك المتمصرين • كما كان العهد بهم في مصر • وكان من ضمن المصريين مجموعة كبيرة من الاقباط ، وقد قدر أحد السواح عددهم في سنة ١٨٤٢ بنحو المائتين بينما قدر قرانت عددهم في سنة ١٨٦٣ بخمسمائة ، وقد شيد الاقباط مدرسة لتعليم أبنائهم وكنيسة لاداء شعائرهم ، وقد بقيت هذه الكنيسة حتى خربها الأنصار بعد أن سقطت المدينة ، وقد سافر آخر ابائهم وهو ابونا حنا ، الى مصر عندما اشتد خطر الانصار على المدينة • وكان أغلب اقباط الخرطوم يعملون بالتجارة وكانت أعمال الحسابات في الدولة شبه محتكرة لهم وهذا مجال يجيده هذا العنصر النشط الدؤوب ، ويقال انهم كانوا يضعون العراقيل أمام غيرهم ليكون هذا العمل لهم وحدهم• وكان هناك العبابدة وهم قوم كانت لهم السيطرة على الطريق الصحراوي بين مصر والسودان منذ عهد الفونج نسبة لوضعهم الجغرافي الممتاز • وعندما دخلت جيوش اسماعيل باشا السودان قدم العبابدة خدمات جليلة له • فقد رافقه خليفة ود حاج محمد وأخوه داود ، وهما من زعماء احدى بطون العبابدة ومعهما ٧٠٠ من عربان العبابدة وثلاثة آلاف جمل وقد كافأهم اسماعيل باشا على ذلك بان امضى لهم احتكار الطريق كما كانوا وجعل لهم عشر الصادرات مقابل تسهيلات الترحيل وتأمين الطريق • وتنيجة لذلك تزايد نفوذ العبابدة وازدادت هجرتهم الى السودان ، ولولا أن علاقات زعماء العبابدة مع الحكومة كانتتتوتر من وقت لآخر لكان لهم شأن أكبر • وقد كان مركز ثقل العبابدة في بربر أما في الخرطوم فقد كانت فيها مجموعة كبيرة منهم ، بعضهميقيمون

في المدينة ويعملون بها وبعضهم الاخر يتردد اليها للتجارة او عمليات الترحيل • وقد كانت العلاقات الاجتماعية بين أفراد هذه الجالية وبين الوطنيين حميمة الى درجة بعيدة ؛ وقد أدت في النهاية الى ظهور طبقة جديدة في السودان نتيجة التزاوج بين العنصرين ؛ وهي طبقة المولدين التي تتركز في المدن الكبيرة وتقوم بدور بارز في بناء السودان الحديث •

الجالية الاوربية :

كان اوائل الاوربيين الذين وفدوا الى المدينة يشغلون الوظائف الفنية في الجيش المصري كاطباء ومهندسين ومستوظفين ثم وفد بعد قليل بعض التجار الكبار الذين كانوا يعملون في محيط التجارة المحتكرة للحكومة • وفي عهد خورشيد ازداد عدد الفنيين الاوربيين في الجيش المرابط في الخرطوم ، وكان اغلبهم من الفرنسيين والايطاليين • ولما الغى احتكار الحكومة للتجارة في عهد احمد ابوودان، فتح الباب على مصراعيه امام التجار والمغامرين فوفد عدد كبير من اليونانيين والايطاليين وغيرهم من الاوربيين ؛ وقد قدر عدد الاجانب في المدينة في اواخر العهد التركي بنحو ٢٤٥ أسرة ؛ منهم مائة اسرة يونانية و ٤٠ أسرة المانية و ٤٠ أسرة نمسوية و ٢٠ أسرة فرنسية وعشرين اسرة روسية و ١٥ اسرة ايطالية و ١٠ اسر من الأرمن • ولم تكن هناك أسر انجليزية • وكان بخلاف هؤلاء المشردون على المدينة للتجارة والسياحة والاكتشافات والتبشير • وكان اغلب الاوربيين يعملون بالتجارة • وكان اليونانيون منهم يحتكرون أعمال البقالة • وتبعا لتضخم المصالح الاوربية في السودان افتتحت القنصليات في الخرطوم • وكان اقدم هذه القنصليات القنصلية الفرنسية التي افتتحت في سنة ١٨٣٩ ويبدو ان ذلك كان امتدادا لاهتمام فرنسا بالشئون المصرية • وكان اهم القنصليات القنصلية النمسوية المجرية التي اتخذت اهمية خاصة لكونها راعية الارسالية الكاثوليكية • وقد افتتحت هذه القنصلية في سنة ١٨٥٣ •

وعينت بروسيا المسيو دبوبسبرج الذي سبق ان جاء السودان

تاجرا ، قنصلا لهـا • وكـان لفرنسا قائم باعمـال القنصلية ببربـر وهو فريديناند لافارج والذي كان تاجرا • وكان قبسوبى كوزى قنصلا لبريطانيا في بربر ، وقد عينه غردون في هذا المنصب بالاضافة الى كونه ممثلا شخصيا له عندما مر ببربر في طريقه الى الخرطوم في آخر رحلة لـــه ••

وفي سنة ١٨٥٨ عينت بريطانيا المستر بتريك قنصلا لها في الخرطـوم ، وكان لا يتقاضى مرتبا • وقد اتهم بتريك باقتناص الرقيق تحت ستـار الكشف الجغرافي والتجارة ورفعت العرائض للحكومة البريطانية التي اكتفت باستعفائه • وكانت لساردينيا قنصلية ، ولتوسكانا قنصلية ثـم ادمجت القنصليتان تحت راية ايطاليا الموحدة • وكانت لليونان ايضـا قنصلية ، اما الروس فلم تكن لهم قنصلية • وكان جرجس بولص وهو قبطي كما يبدو من اسمه يمثل مصالح ايران بينما مثل احد الشرقيـين مصالح الولايات المتحدة •

ان ازدياد نفوذ الجاليات الاوربية وقناصلهم في الخرطوم كـان امتدادا لنفوذهم الطاغي في مصر والامتيازات الاجنبية التي ارهقـت كاهل شعوب الامبراطورية العثمانية وأهانت غرورهم • ولم تكن علاقة التجار الاوربيين بحكومة السودان علاقة حميمة بل اخذت دائما طابع المشاحنات والمناورات ، وقد بلغت العلاقات حدها من السوء في عهـد عبداللطيف باشا فطلبت الدوائر الاجنبية سحبه من السودان وخاطبـه تجار الخرطوم بلغاتهم التي لم يكن له من يترجمها نكاية واستخفافا به • وقد سحب بالفعل في سنة ١٨٥١ •

وبدار الوثائق القومية خطاب من اصطفان رسمي وكيل الامـور الخارجية الى الكاتب الخصوصي للخديو يطلب فيه ان يعـرض عـلى الخديو عريضة من اربعة من القناصل بالخرطوم ، وهم المسيو هوبـر قنصل النمسا العام ، والمسيو جلبر وكيل قنصل انجلتـرا ، وقنصـل ساردينيا وقنصل فرنسا • وقد ارفق معه عريضة القناصل ، وكتابا من لطيف باشا الى الجناب العالي • والقناصل المذكورون يشكون مـن

تصرفات لطيف باشا حكمدار السودان ازاء التجار الاوربيين • ويذكر اصطفان ان لطيف ارسل قبلا كتابا الى الكتخدا بك يشكو له من أحوال الاوربيين الذين يتجولون في السودان باسم التجارة والسياحة ، وانه اقترح منع هؤلاء التجار والسواح من استئجارهم الرجال وشرائهم العبيد وحملهم السلاح •

لقد سيطر التجار الاجانب على التجارة ، وتوسعت على ايديهم وأيدي شركائهم من السودانيين الشماليين والجنوبيين تجارة الرقيق واستفحل أمرها في وقت كانت فيه تنحسر في البلاد الاخرى • وقد ذهب التجار الاجانب بالمغانم والثروات الطائلة التي جمعوها من ورائها • بينما ألصق عارها بالسودانيين الشماليين وحدهم •

(٣) الحياة في الخرطوم

لقد رأينا اتماما للفائدة ان ننقل بعض الفصول في وصف الخرطوم والحياة فيها في العهد التركي • وقد رجعنا في ذلك الى كتاب صديقنا المرحوم سليمان كشة : « تأسيس مدينة الخرطوم والمهدية » • وغيره من المصادر •

١ ـ مقتطفات مما كتبه احد ادباء مصر في جريدة الاهرام سنة ١٨٩٦ • وقد نشر الطرف الاول من هذه المقالات في كتاب بغير اسم مؤلفه ، وينتظر الباقي من يجمعه من الجريدة وينشره ••

يقول الاديب بعد أن يحدد موضع الخرطوم : « وتحيط به بساتين خصبة نضيرة يبلغ عددها نحو مائتي بستان ، مساحة اصغرها نحو ستة افدنة ما عدا البساتين الصغيرة التي لا تبلغ الأربعة أفدنة وهي اضعاف الاولى ويبلغ ثمن ثمار البستان الواحد نحو ٥٠٠ جنيه في السنة•

ويسكن هذه المدينة نحو ٢٥٠ الف منهم نحو الخمس من السودانيين ، والاخرون من الاتراك والمصريين والسوريين والاوربيين والمغاربة بين تونسيين وجزائريين ومراكشيين • وفيها من الأوربيين نحو ٢٠ عائلة فرنسوية اشهرها عائلة الدكتور بتيه ونحو ١٥ أسرة ايطالية و ٤٠ عائلة نمسوية ومثلها المانية ، واشهر العائلات الايطالية عائلة الخواجا دفيد النقاش • ومن العائلات النمسوية عائلة الخواجا هالك ماخبر ايضا • وبها ١٠٠ عائلة يونانية ونحو ٢٠ عائلة روسية اشهرها عائلة الخواجا كاموسكى الساعاتي ونحو ١٠ عائلات من الأرمن اشهرها عائلة بطرس بك سركيس ولم يكن بين تلك العائلات عائلة انجليزية » •

وبعد ان يعدد اقسام المدينة يقول :

« مدينة الخرطوم جامعة الى جمال الموقع الطبيعي محاسن النظام المدني والرونق الحضري . واكثر ابنيتها من الحجر واللبن الاحمر مزدانة بالجبس والآجر . وقصورها في غاية البهجة والرونق وشوارعها منتظمة جدا . وفيها شارع يبتدىء من شاطىء البحر الازرق وينتهي في جنوب المدينة يسمى السكة الجديدة استعارة من اسم السكة الجديدة في القاهرة . وجميع سكانها محافظين على عاداتهم الاصلية ثم نشأ فيها التقليد الغربي وعادات المدنية الأوربية واصبحت اخلاق وعادات السكان من الطبقة الاولى والثانية حتى في المأكل والمشرب أوربية محضة . وذلك لسببين، اولهما وجود المدارس الاوربية التي تقدمت ونمت بسبب قبولها التلاميذ بلا أجرة وثانيها ميل سكان الخرطوم الى كل ما يقرب من المدنية الاوربية والى الاوربيين ولا سيما الفرنسيين . والدليل على ذلك ان في الخرطوم نحو الف شاب يتكلم باللغتين الفرنسية والايطالية .

ولسكان الخرطوم ميل شديد الى تزيين المنازل بادوات الرياش الفاخر وهم يقتدون بالاوربيين فيما يخترعونه من اصناف اثاث المنازل وانواع الملابس وعندهم من الملاهي وأماكن الرقص والقهاوي ما يزيد على الخمسمائة .

تجارة الخرطوم :

التجارة في هذه الحاضرة مهمة جدا حتى انها تعدل وحدها تجارة جميع الاقاليم السودانية . اما مقاديرها في الحبوب فهي أجل من ان تحصر . وللخرطوم اهمية عظيمة في تسفير القوافل والسفن التجارية والشراعية حاملة صنوف التجارة الى جميع مدن السودان . وأهم هذه الصنوف الانسجة المصرية وسن الفيل والصمغ والريش . ويبلغ ما يتجر به من السن نحو ٤٠ الف قنطار . اما الصمغ والريش فتضيع

عندهما فذلكة الرقم حتى ان ما يوزن منها كل يوم تبلغ أجرته نحو الف جنيه فاكثر عدا موزونات سن الفيل التي يزنها وازنو المصالح الاميرية •

المصالح الاميرية في الخرطوم :

اولاها ديوان الحكمدارية ثم ديــوان المالية فديــوان المديريــة فالمحافظة فالضبطية اي حكمداربة البوليس فديوان العسكرية العمومي الجند السوداني فالترسانة وفيها من البواخر نحو ماية باخرة عدا المراكب الشراعية ؛ وهي من احسن مصالح السودان نظاما واتمها معدات • وفيها من المعدات والالآت والمواد والادوات الصناعية ما تبلغ قيمته اربعــة ملايين من الجنيهات • وفيها مطبعة اميرية ومكان لتجليــد الكتـــب والدفاتر ثم مخازن الميرة الحربية والذخائر وغيرها • وفيهــا مدرســة اميرية تحوي نحو ٤٠٠ تلميذ ؛ واساتذتها من المصريين البارعين•وتدرس فيها اللغتان التركية والفرنسية عدا العلوم الهندسية والرياضية وغيرها على نمط المدارس المصرية • وفيها ايضا مدرسة حربية لتعليم الفنــون العسكرية ومدارس الآباء الكاثوليكيين تقدمت تقدما عظيما وكثر طلابها ونجح غالب الذين خرجوا منها منذ ٤٠ عاما • وكان السودانيــون لا يدخلون اولادهم في تلك المدارس مع تعددها من اميرية واهلية ومدارس الآباء الكاثوليكيين ولكن معظم سكان الخرطوم من مصريين وسوريين واوربيين يدخلون اولادهم فيها • اما المدارس الاميرية فكانت مخصصة للغلمان الذين فقدوا كل سند وعضد بموت آبائهــم وأقاربهــموبأولاد العساكر ايضا • وكانوا كلهم يعطون مرتبات وأكسية • ومن ظهــرت نجابته منهم كان يرسل الى مصر على نفقة الحكومة لتكملــة دروسه • وكان يرسل منهم نحو ٣٠ تلميذا سنويا يوزعون على المدارس الحربية ومدارس الزراعة ومدارس الصناعة حتى اذا اتموا دروسهم عادوا الى بلادهم بالشهادات الدالة على براعتهم •

اما المتخرجون في المدارس الاهلية والمدارس الكاثوليكية فكان اكثرهم من ابناء الاغنياء » •

٢ ــ وقال محمود طلعت في كتابه غرائب الزمان في فتح السودان :

« انتهينا الى ساحل الخرطوم في غروب الاحد يوم ٥ ربيع الاول ١٢٩٢ - ١١ ابريل ١٨٧٥ • وفي صباح يوم الاثنين حضر الينا معاون الضبطية وارشدنا الى محل نقلنا اليه متاعنا • ثم توجهنا الى الحكمدارية وسلمنا افادة المالية فأمرنا انا ومن معي بالانتظار حتى يتم اعداد الجمال اللازمة لسفرنا عليها الى كردفان • ولا ينسى القارىء اللبيب ان طول المسافة قد ادهشني جدا وان الثلاثة اشهر التي استوليت على استحقاقها ستنقضي قبل أن أصل المركز الذي تعينت لأجله • وفي هذه الحالة شعرت بألم الفراق الحقيقي فاستخرطت في البكاء وسكبت الدمع مدرارا على فراق حبيبتي واهلي •

وبعد انصرافنا من الحكمدارية اخذنا نطوف بالخرطوم التي هي عاصمة بلاد السودان ومحط رحال تجارتها ، فاذا هي بلدة حسنة الموقع جميلة المنظر تحييها امواج البحرين الازرق والنيل غدوا ورواحا• ويوجد بها من الجهة الشمالية المشرفة على البحر الازرق كثير من البساتين النضرة الشائقة والقصور الباذخة الشاهقة حتى لقد يعترى القادم على هذا المنظر البهيج حيرة لا يكاد يصدق معها حقيقة ما ينظره او يرى انه قادم على اجمل بلد واعظمها تمدنا وحضارة • ولا غرو فان الخرطوم كانت المحل الاول لاشغال الحكومة المصرية في اواسط افريقيا ومركز تجارة السودان ومحط أعظم تجارة وعاصمة بلاد فسيحة الارجاء واسعة الاطراف كثيرة الخيرات جزيلة البركات ، ترابها تبر وحصادها در ويسكن الخرطومخلق كثير لا يقلونعن مائة الف نسمةوبها ايضا كثيرمن الافرنج لكن الجنس اليوناني اكثر من غيره لان كل البقالين (البدالين) هناك يونانيو التبعة ، وما بقي منهم يشتغل بالتجارة • غير ان الجنس الانجليزي وان كان متشاغلا ومتظاهرا بأشغال التجارة كسائر الاجناس الا ان ذلك لم يكن الا صفة اسمية فقط أو هو وسيلة لبلوغ غاية كامنة في النفس •

ويوجد في الخرطوم كثير من الشوارع المنظمة وعلى جانبها قصور مشيدة ومنازل جميلة تسر الناظرين • وهذه الشوارع تكنس وترش صباحا وعصرا وهي لا تقل في نظافتها عن شارع محمد علي • وبها ثلاثة مدارس احداها للحكومة ، وهي كاملة المعدات حسنة الترتيب • والاخريتان صغيرتان احداهما للجزويت والاخرى للاقباط • أما المكاتب الصغيرة (الكتاتيب) التي يدرس بها القرآن الشريف فهي مما لا يدخل تحت حصر • وبها أيضا كثير من القهاوى ، منها ما هو على شاطىء النيل الأزرق ومنها ما هو داخل المدينة وجميعها منتظمة ومبيضة تبييضا جميلا • واراضيها مكسوة بألواح الخشب • وقد علقت على جدرانها الصور الجميلة الى غير ذلك من وسائل الزينة • وبها ما تشتهى الأنفس وتلذ الاعين من المأكولات والمشروب فضلا عن انواع الالعاب والملاهي كالبلياردو والشطرنج والنرد وغيرها مما لا يقل عن ما في مجتمعات مصر العمومية •

وبالجملة فالخرطوم مدينة توفرت فيها وسائل اسباب المدنية وكملت فيها وسائل العمران وسكانها على جانب عظيم من الرقة ودماثة الخلق والكرم والشجاعة •

اقمنا بها خمسة وعشرين يوما اخذنا فيها حظنا من الراحة واتممنا لوازم السفر ثم انتقلنا من الخرطوم الى ام درمان ، وهي واقعة على الشاطىء الغربي للنيل الابيض فوجدناها عبارة عن مكتب تلغراف وبعض أماكن خالية من السكان • وقد خصصت هذه البقعة لاقامة الواردين من داخل السودان الغربي والمترددين عليه • وقد خيل لنا ان جميع عساكر مصر قد نقلت الى هذه البقعة لكثرة من بها من الجهادية وعساكر الباشبوزق • فأقمنا هناك ثلاثة ايام حتى جاءتنا الابل وقد ايقنا عند رؤيتها اننا هالكون لا محالة لبشاعة منظرها ولانها متناهية في الطول والارتفاع وشديدة السواد ولم يسبق لنا رؤية ما شاكلها • وفي يوم الاثنين ٥ ربيع الثاني ١٢٩٢ الموافق ١٠ مايو سنة ١٨٧٥ علونا تلك الابل وازمعنا المسير » •

٣ ـ وقال محمود القباني :

ان الخرطوم كان لعهد دولة سوبا التي نجهل تفاصيل كيف بادت مسكونة من الناحية الشرقية « البراري » وفي جهة الجنوب الشرقي اذ رأينا أثرا ظاهرا لذلك هو الذي كنا نعرفه باسم جبل سوداء ، وما هو بجبل بل كثيب من رمل تكون ممتزجا بقمامات من أوساخ عمران آدمى شبيه بالتلال التي لا يحصيها عدد في مصر . وهناك يسمونها الكفرية نسبة الى الاجيال التي كانت قبل الاسلام .

وموقع هذا الجبل المجازي الذي أزيل بعد فتح الحكومة الحالية شرق المقبرة المسيحية مع انحراف لجهة الجنوب . وفي ركنه الجنوبي الغربي مقبرة الاقباط . أما المقبرة الافرنجية فموقعها الحالي وانما زيدت ووسعت من جوانبها الاربعة . وفي مدخلها من جهة الشمال تمثال ملك بجناحين صنع من حديد أسود كالصلبان التي توضع على القبور ، وكان العامة يسمون هذا التمثال باسم كنيسة نكولة ، والخاصة يقولون مقبرة الافرنج . اسست هذه المقبرة مع كنيسة الكاثوليك ، وقد بنيتا بحجارة منضدة ، وسقوف الكنيسة ومساكن القساوسة مسقوفة بعقود حجرية غاية في الاتقان والمتانة والابداع بأيدي الصناع الايطاليين من نحات وبناء ونجار وحداد . وقد انفقت نفقات طائلة لجلب الحجارة من جهات جبل أوليا وغيرها . ومهما يكن سمعنا من كبارنا انها كانت حركة اقتصادية في الخرطوم وضواحيها ملأت جيوبا كثيرة بالنضار من الجنيه الفرنسي البنتو والريال القشلي النمسوي . وقد سمى هؤلاء القساوسة باسم المرسلون الافريقيون وتعهدت بحمايتهم امبراطورية النمسا والمجر واعترفت بهذه الحماية الامبراطورية التركية سيدة مصر والسودان وقتئذ .

واني لأذكر ان للآباء الكاثوليك مدرسة انتظمت في تلامذتها لما بدأت حوادث المهدية سنة ١٨٨١ ، وابطلت دروس اللغة الفرنسية في المدرسة الاميرية بالاشتغال بالاهم من المهم . سلخت في هذه المدرسة ٣٢ شهرا وشهدت الاحتفال بجنازة المطران دانيال كمبوني الذي أسس

كلية كمبوني هنا احياء لذكراه ، وكان احتفالا رائعا حضره حكمدار عموم السودان محمد رؤوف باشا واورطة الجند النظامي وقناصل الدول والاعيان والموظفون • وقد خلفه في هذا المنصب المطران سوغارو • ثم غادر القساوسة الخرطوم في أوائل شهر ديسمبر سنة ١٨٨٣ • وموضع هذه الكنيسة هو ديوان مديرية الخرطوم وأقول ايضا ان مكتب محكمة الجنايات ، ذات غرفة المطران كمبوني التي لفظ روحه فيها •

وقد كانت هذه الكنيسة من عمائر الخرطوم الجميلة تمتد حديقتها الى الشمال • يفصل بينها وبين النيل ، شارع عبدت أرضه يتنزه فيه المتنزهون في الأصيل وفي الليالي يمتد من شرق السراي الى غرب حديقة الحيوانات التي كانت ملكا للعم المرحوم ابراهيم بك خليل من أكابر سراة الخرطوم •

وتمتد الحديقة الكاثوليكية شرقا الى آخر عمارة الري المصري ، وتسقي بوابور بخاري من النيل باشراف خولي ايطالي يدعى دومنيكو أبى أن يترك ما غرسته يده حتى أدركته المنية في ايام المهدية • ففي هذه الحديقة العنب يثمر مرتين ، وكثير من النخل وفيها ما يكفي أهلها من فواكه وخضروات وبطاطس يباع الباقي في الاسواق • وان ذكرت عمارة الكاثوليك لمساهمتها في عمران المدينة وزهوتها أذكر انه كان قبل أن أخلق بسنوات ارسالية بروسية بروتستنتينية أقامت في الخرطوم وأسست معبدا ودارا ومدرسة من الآجر لا بأس بعمارتها ثم قفلت راجعة من حيث جاءت بعد أن باعت ممتلكاتها •

وفي الأزمنة الاخيرة كانت دورهم ملكا للمغفور له الزبير رحمة باشا ثم صارت هذه الدار مقرا للمدرسة الاميرية الى سنة ١٨٨٥ • واحذر أن موقع هذه الدار غرب محطة ترام الخرطوم الوسطى بقليل • أعود بعد هذا البيان الى العهد الذي أسس فيه الجامع والثكن العسكري والسراي ودواوين الحكومة لكي اتدرج منه الى الطور الثاني ، وهذا الطور الانشائي قام بانفاذه المرحوم علي خورشيد باشا رابع حكام السودان وأطولهم مدة اذ دام حكمه نحو ١٣ سنة واكثر من أسندت

اليهم هذه الوظيفة كانت أيامهم على الاكثر لا تتجاوز الثلاثة سنوات لما يرميهم به الاعداء من الطموح والاستقلال أو الميول الى ضم السودان الى تركيا التي كانت تمتلك شواطىء البحر الاحمر سواكن ومصوع • وعلى كل فان اعمال علي خورشيد باشا لم تخرج عن كونها مقاصد حسنة للعمران وتوالت وفود التجار المصريين على الخرطوم واكثريتهم من اسوان واسنا فساهموا في تشييد عمران المدينة وتقدمها بما انشأوا من منازل وغرس البساتين واصلاح فنون الزراعة وتوسع صناعة السفن الشراعية على ايدي السفن ومالكيها بالذهب المصري الذي لم يكن قاصرا على الجنيه ونصف الجنيه بل هناك قطع من الذهب قيمتها خمسة قروش وعشرة وعشرين وخمسين وما زالت موجودة الى سنة ١٨٨٥ • وقد اتخذ منها حلى النساء ، فضلا عن الريالات التركية « المجيدي » والنمساوي القشلي • اما النقل على ظهور الابل فكله بأيدي شيوخ قبيلة العبابدة سواء كان حكوميا او تجاريا •

اما رخص الاقوات في الخرطوم فقد أدركناه ورأيناه • فان قيمة اردب الفتريتة من عشرة قروش الى اثني عشر • وسمعنا كبارنا يتزمرون ويقولون انه كان بخمسة او ستة قروش • وأردب القمح من ٢٥ الى ٣٠ ، وكان من ١٥ إلى ٢٠ قبل ان نخلق •

والحكومة تعتبر الريال التركي ١٦ قرشا وربع ، والاهالي يتعاملون به بعشرين قرشا صاغا ، والقرش الصاغ ثمانية قروش نحاسية تسمى « خردة أو طبر » • وتجري حسابات الحكومة بالقروش ورسمها هكذا (بارة قروش) • والقرش الصاغ اربعون بارة • وهناك ما يسمى كيس ، والكيس خمسماية قرش • وتجري مخاطبات الحكومة الادارية والعسكرية باللغة التركية كما تجري الحسابات والضرائب ومخاطبة شيوخ القبائل باللغة العربية • والى آخر أيام الخرطوم تجد عنوان المخاطبات تركى اللغة والخطاب عربي اللغة هكذا : سودان حكمدارى وخرطوم مديري •

***

كانت الحكومة تبذل المعونة لساكني الخرطوم حتى انها لم تقف عند حد منحهم الاراضي بلا ثمن بل كانت تعاون بمنح أخشاب السقف للعمارات حتى كانت سنة ١٨٧٤ وفشت الأوبئة فمن حمى « ام سبعة » الى الهواء الاصفر « الكوليرا » • وقد هجر الخرطوم كثير من السكان وعد في ذلك الزمن انه مناخ موبوء لما كان يكتنفه من نواحي الجنوب والشرق من مستنقعات تتعفن فيها المياه •

وكان جل ما يرد الى السودان من المنسوجات هنديا علاوة على الطيوب من عطور وعطارة وأسرة الساج واسرة الحق •

وقد بذلت الحكومة مجهودات لا يستهان بها في ردم المستنقعات وفتح المجاري لتصريف المياه والسيول التي كانت تنحط على المدينة • وقد ادركنا هذا المجرى وموقعه في الساحة الواقعة جنوب سراي الحقانية ثم ينحني شمالا فيصب في النيل الأزرق • ومنذ نشأتنا وجدناها مدينة زاخرة بالعمران وبنايات بالاجر « الطوب الاحمر » والحجارة المنضدة وكانت تستخرج من حفر الشاطىء الغربي بام درمان • كما ان القمائن التي تشوى بها اللبن كانت في الضاحية الشرقية البراري والجريفات • واكثر المنازل كانت دورين وأقلها الدور الارضي •

والحكومة تشدد في تعميق الاسس وعرض الجدران • وأقل ما يسمح به في عرض الجدار ذراع معماري ونصف ذراع نحو متر وعشرين سنتيا • وقد ارتفعت اسعار الاراضي التي على شاطئ النيل أولا اذ كانت مرغوبة لغرس البساتين لسد حاجيات سكان المدينة من فاكهة وخضروات ونخيل واعناب تأتي أكلها في العام مرتين ، واحدة في الشتاء وأخرى في الصيف • فكان سكان الخرطوم يأكلون العنب شتاء وصيفا من النوع الاحمر أكثر والقليل من الابيض •

ولما كثر عدد الاجانب من سراة الاوربيين رغبوا في تشييد دورهم على شاطئ النهر فبذلوا اثمان عالية لأصحاب البساتين حتى بلغت قيمة المتر الواحد من جنيهين الى ثلاثة •••

ان مصالح الحكومة بالخرطوم متعددة وأماكنها متدانية مواقعها وأعظم تلك البنايات هي بناية الحكمدارية اعني السراي التي لم تكن ديوانا بل هي دارسكنى أسرة الحكمدار . وفي العهد الاخير تحولت ثلاثة اجزائها الى دواوين حكومية ، فعل ذلك غردون سنة ١٨٨٤ ، اذ اكتفى هو بالجناح الاعلى بمكتبه ومعاونيه وشغل الدور الارضي كله بمصلحة مالية السودان .

ديوان الحكمدارية : بني بحجارة بيضاء جميلة منحوتة ذات منظر يضارع أعظم مباني القاهرة ومرتفع سطحه عن سطح الارض بأكثر من ثلاثة امتار وله نوافذ شمالية تطل على النهر والشاطىء مرصوف بالحجارة وقد غرست حول النوافذ أشجار باسقة . ومدخل ايوان جلوس الحكمدار من الجهة الجنوبية بثلاثة ابواب كبيرة جدا يجلس القواصة الاتراك على دكتين شرقية وغربية بسراويلهم المقصبة وارديتهم القصيرة سلطة وسيوفهم الكبيرة المعقوفة . هذه الابواب الثلاثة هي التي يدخل بها العموم لمقابلة الحكمدار . وفي شرق هذه الابواب رواق مستطيل فيه غرف من الجانبين وله باب شرقي يدخل منه الحكمدار من والى السراى . والغرف التي بجانب هذا المدخل احداها مكتبة لحفظ الكتب ومكاتب لموظفي القلمين الافرنكي والتركي وأوراق هاتين القلمين . ويقابل بناء الحكمدارية بناء مديرية الخرطوم وهو منزو الى جهة الغرب وأقل ارتفاعا من بناء الحكمدارية الذي يسامته من الجنوب دهليز مستطيل وبوابة جنوبية كبيرة مزخرفة يتوصل من فرندة ذات اعمدة شاهقة يجلس فيها ذو الاشغال من الاهلين وكثير ما هم . والغرف التي بجانبي الدهليز معدة لسكن البلك النظامي وضباطه المنوط بهم حراسة السراي ودور الحكومة اسبوعيا . ثم هناك مصلحة التلغراف وخزانة الحكومة ثم الدفترخانة في الجناح الشرقي والزاوية الجنوبية . يجمع هاته المصالح حوش واحد متسع تقام فيه الحفلات الرسمية ...

.... ومما يستحق الذكر مناظر المتنزهين حول المدينة من الشرق والغرب والجنوب والشمال وفي الزوارق وان كانت قليلة . فانها تمثل

منظر النزه في زوارق البسفور في استانبول كما يقول الاتراك ومن شاهدوها واحتذوا مثالا هنا • فأنت ترى مناظر المتنزهين في الارياض ركبانا على الخيول المختلفة في آلتها فتلك بسرج تركي واخرى بسرج سوداني أو افرنكي والكل في غاية الفخامة من رشمات فضية مطليه بالذهب • واختلاف الازياء في المتنزهين له منظره البديع ؛ فهذا يلبس زيا افرنجيا انيقا مع الطربوش وبجانبه آخر يلبس الزي القديم (السراويل والشيكن) • اما الطربوش المضلع فهو الزي الرسمي لجند الباشبوزق على اختلاف أجناسهم • وكنا نرى قساوسة الارسالية الكاثوليكية باثوابهم الكهنوتية وغطاء رؤوسهم الطربوش • وكانوا قبل زماننا يتعممون كقساوسة الاقباط • والميزة بينهما ان القبطي بقفطان وجبة او زعبوط وهم بثوبهم الطويل المزرر • وقد رأيت في كنيسة الكاثوليك تمثالا نصفيا من الرخام وضع احياء لذكرى انياسو كنونجير الالماني الذي أسس الكنيسة لابسا قفطان وفرجية وعمامة •

وبالجملة ان الازياء في الخرطوم كانت معرضا محتويا لأزياء اهل الارض كلهم تقريبا • ومن بين المعممين زي العمائم المتباينة من مصرية وصعيدية الى سودانية الى سورية الى هنديةالى بخارية الىتركية•وكذلك اللحى الافرنجية • وكثير منهم كانوا يحلقون لحاهم من أسفل الحنك فيسميهم الناس ابو دقنين •ومن مشاهد النزهةالتي تجري فيالخرطوم فيأغلب أيام الاسبوع لعبة الجريد التي يقوم بها جنود الباشبوزق والاتراك والمغاربة والشايقية والاهالي • وهي تمثل مبارزات الحروب والترامي بالسهام ولست بناس حلقات الحاوي المشعوذ والالعاب المدهشة من فنون السيما • وفي مرة وفد الخرطوم حاوى شهدناه قطع شابا اربا اربا الى عشرين قطعة والدم قد ملأ الارض وصرخ الحاضرون ثم تمثل لأعيننا ان الدماء والاجزاء المقطعة تتحرك وتقترب من بعضها حتى استوت شخصا سالما بجلابيته الزرقاء وطربوشه قبل ان يذبح ويقطع اربا • ومن مناظر الشعوذة التي نراها كل يوم رجل من ساكني الخرطوم قصير القامة ضخم الجثة كبير الوجه ضخم الرأس يبلغ شعره منكبيه

يحمل مسمارا غليظا مستطيلا ، على رأسه حلقات حديدية لا يقل وزنها مع المسمار عن عشرين رطلا ، يغرس هذا المسمار في عينيه حتى تراه لامعا شبرا في قفاه وقد سالت الدماء ثم يستله ولا اثر للدم ولا ضرر بالعين . وهكذا يعيده دواليك . وقد يضعه في صدره وقلبه وبطنه حتى صارت شعوذته هذه مألوفة لدينا .

٤ — وقال رفاعة رافع الطهطاوي في قصيدة نشرها في كتابه مناهج الالباب ، وكان كما قلنا كمن نفى الى الخرطوم :

وما السودان قط مقام مثلى ... ولا سلماى فيه ولا سعادى
بها ريح السموم يشم منه ... زفير لظى فلا يطفيه وادى
عواصفها صباحا او مساء ... دواما في اضطراب واطراد
ونصف القوم اكثرهم وحوش ... وبعض القوم أشبه بالجماد
فلا تعجب اذا طبخوا خليطا ... بمخ العظم مع صافي الرماد
ولطخ الدهن في بدن وشعر ... كدهن الابل من جرب القراد
ويضرب بالسياط الزوج حتى ... يقال أخو بنات في الجلاد
وشرح الحال منه نصف صدر ... ولا يحصيه طرسى أو مدادى
ولولا البعض من عرب لكانوا ... سوادا في سواد في سواد
وحسب فتكها بنصيف صحبى ... كأن وظيفتي لبس الحداد
ثلاث سنين بالخرطوم مرت ... بدون مدارس طبق المراد
وكيف مدارس الخرطوم ترجى ... هناك ودونها خرط القتاد
نعم ترجى المصانع وهي احرى ... لتأييد المقاصد بالمبادي
علوم الشرع قائمة لديهم ... لمرغوب المعاش او المعاد

٥ — الخرطوم كما راها الرحالة الاوربيون :

كانت مدينة الخرطوم نقطة البداية بالنسبة للرحالة الاوربيين الذين كانوا يأتون الى السودان للكشف الجغرافي وخاصة في اعالي النيل . وقد سجل اغلبهم مشاهداتهم في كتب . وقد فعل ذلك أيضا

عدد من الاوربيين ممن كانوا في خدمة الحكومة المصرية • وقد اخترنا هذه الصورة السريعة لاعطاء فكرة عن مشاهداتهم •

لقد وصل فردناند ورن Ferdinand Wern الى الخرطوم في ١٨٣٩ ، وعاش في الخرطوم قرابة سنة • وكان أخوه جوزيف جراحا في الجيش المصري وعمل في سنار والخرطوم ، وقد أقام معه فرديناند اثناء مقامه بالخرطوم • ويذكر الرحالة انه عانى طوال اقامته في الخرطوم من الحمى وسوء الطقس والذي بلغ من الرداءة حده • ثم يذكر ان الخدمات الصحية كانت سيئة للغاية وان العاملين بها كانوا يجهلون أصول الطب وتركيب الادوية فضلا عن انهم كانوا يسرقون الاغذية وأقمشة الطب والادوية وانهم كانوا يحضرون أدوية مغشوشة • ويبدو ان حالة الامن كانت سيئة • فقد أفاض الرحالة في وصف حالة القلق الذي كان ينتاب الموظفين الاقباط عندما يتركون عوائلهم في المنازل ويذهبون الى أعمالهم وكيف انهم كانوا يغلقون الابواب على عوائلهم ويأخذون المفاتيح معهم• وقد عانى ورن الامرين من جراء الاهوية الشديدة التي تسبق الخريف والامطار الغزيرة • ويذكر انه شاهد في ٣١ اغسطس ١٨٣٩ اعنف العواصف التي شاهدها • وقد هطلت الامطار وفاضت المياه حتى ابتلعت المنازل ودكت بعضها •

وجاء في ١٨٥٠ جورج مللى George Melly وقد وصف المدينة وصفا أخاذا وهو قادم اليها من جهة الشرق ، ثم وصف القصر والمنزل الذي نزل به ، وكان في جوار القصر ، وحديقة الحيوان • وقد وصف حدائق الخرطوم والسوق • وسجل مشاهدات دقيقة عن شعور الناس نحو والدته واخته وكيف تجمعوا للنظر اليهما •

وكان جون باتريك قنصلا لبريطانيا في الخرطوم • وكان قبل ذلك تاجرا ، وقد اتهم بالاتجار في الرقيق • وقد وصف الخرطوم كما شاهدها وعرفها في سنة ١٨٤٦ والسنة التي تليها وقدر عدد سكانها بنحو ٦٠ الف شخصا • وبعد أن عدد المباني الحكومية والتي كانت مشيدة بالطوب

الاحمر ذكر ان المبنى الوحيد الذي شيد بالحجر هو الارسالية الكاثوليكية . اما بيوت الاهالي فكانت بالطين ثم عاد باتريك الى الخرطوم في سنة ١٨٦٠ ، ومعه زوجته ليقوم بمهمة القنصل . وقد وصف الحياة الاجتماعية في المدن وبالذات حياة الاوربيين .

وجاء صمويل بيكر في ١٨٦٢ . وقد وصف المدينة بانها بدائية وانها مركز تجمع قوافل التجار (تجار الرقيق والعاج) . وعاصمة الادارة التركية التي كانت تسيطر على موارد البلاد بطريقة شرهة ولا تعطى الاهلين مقابل ذلك حكما صالحا .

وقال : كانت عملية نهب بشعة لم يعرف التاريخ لها مثيلا ، اشترك فيها كل موظف في الدولة من الحاكم العام — موسى حمدي باشا في ذلك الوقت — الى اصغر خفير . اما الجنود الاتراك والمصريين الذين كانت تتكون منهم حامية الخرطوم فقد بلغ عددهم حوالي خمسة عشر الفا من الجند كانوا يعيشون في البلاد كجيش محتل . وقد انعدمت في قلوبهم الرحمه . كان كل ما يهمهم هو جمع الضرائب والتي كانت تجبى بالهاب ظهور الناس بالسياط او بالغارات المسلحة على مخازن الذرة وزرائب الماشية في البلاد النائية .

وكانت شوارع الخرطوم مهملة وقد تراكمت عليها القمامة ورمم الحيوانات وتزاحم فيها نحو ثلاثين الف نفس هم سكان الخرطوم في ذلك الوقت . وكان الواحد منهم لا يستطيع ان يقضى غرضا دون ان يستعين بالرشوة . وكان الجلد والتعذيب شيئا عاديا . وكان موسى باشا حمدي يجمع أرذل خصائل بني جلدته واضاف عليها الوحشية المتناهية . والجو شديد الحرارة وعندما تهب العواصف الرملية يتحول ضوء النهار الى ظلام ليل شديد السواد ... ان كل قافلة تقدم من الجنوب الى الخرطوم تأتي بشيء جديد من الاكتشافات والطيور والحيوانات والسلع والنباتات الغريبة التي لم تعرف الى ذلك الوقت .

وقال برون روليه Brun Rollett ذلك الفرنسي الذي قضى في السودان ردحا طويلا ، ان الخرطوم كانت مدينة واسعة في الازمان الغابرة حتى دخلها الشلك في ليلة من الليالي حوالي ۱۷۸۰ • وقتلوا سكانها وخربوها خرابا تاما ثم يذكر ان جيش محمد علي لم يجد عند وصوله الى المكان الا ثلاث قطاط ومقبرة كبيرة • وقد قدر روليه سكان الخرطوم في وقته (اي حوالي سنة ١٨٤٠) باربعين الى خمسين الفا •

وقال اللورد بروذوى Prudhoe والذي وصل الى الخرطوم في ١٠ مارس ١٨٢٩ في طريقه الى سنار ان المدينة تتكون من نحو ثلاثين منزلا من الطين وقطاطي من القش • وقد اقام هو وصحبه في خيمة • وكان الحاكم العام نفسه يسكن في منزل مشيد بالطين • ولم تكن بالمدينة اشجار •

وذكر المسيو كومبى Combes الذي زار الخرطوم في سنة ١٨٣٤ ان سكانها يبلغون نحو ١٥ ألفا ، وذكر ان الناس كانوا يتعاملون بريالات مارياثريشا النمسوية والمحمودية التركية والبيوظة المصرية والسافريتا النمسوية والمصفاني •

ويقول شوينفيرت عن الخرطوم في سنة ١٨٦١ ان الحالة الصحية فيها كانت في غاية السوء من جراء اجزائها المنخفضة عن منسوب النيل والتي كانت تصير بركا ومستنقعات تفوح منها الرائحة الكريهة ويتوالد فيها الذباب والناموس • وقد تفشت الملاريا بشكل مزعج •

ولما جاء دى كوسون DeCosson في سنة ١٨٧٣ فانه لم يكن برما بالمدينة كأصحابه السابقين وانما ذكر ان المدينة حسنة لولا امراضها • وقد طاف كوسون المدينة على حصان • ودون مشاهدات طريفة عن أطراف المدينة وبساتينها وخاصة منطقة المقرن • كذلك وصف شاليه لونج المدينة وصفا طيبا •

والظاهر ان جملة الرحالة الاوربيين كانــوا ناقمــين على الادارة المصرية مع انهم بفضلها قد جمعوا الثروات الطائلة وتسنى لهم القيــام برحلات الى أعالي النيل والقيام باكتشافاتهم • وقد كانوا يحصلون على البواخر والسفن الحكومية بايجار بسيط • وكانوا ناقمين ايضا عــلى السودانيين وعلى جو الخرطوم وأمطارها وقد كتبوا كثيرا عن تجــارة الرقيق وعابوا أمرها على الشماليين مع ان القدح المعلى في هذه التجارة كانت للاوربيين الذين يؤجرون الشماليين • وكــان باتريــك القنصل البريطاني نفسه متهما بالاتجار في الرقيق • والرحالة الاوربيون نادرا ما يلتفتون الى حياة السودانيين أو الى الطرف الاهلي وانما غالب كلامهــم عن متاعبهم وما كانوا يعانونه وعن مجتمع الاوربيــين واهتماماتهــم الكشفيــة •

(٤) ـ المهدية والخرطوم

المهديـة :

في أواخر يوليو سنة ١٨٨١ أماط المهدي اللثام عن حركة كان يعمل لها منذ فترة • وأعلن عن عزمه على القضـاء على النظـام التركي في السودان واقامة مجتمع اسلامي ثم القيام بسلسلة من الفتوحـات حتى يدين له العالم اجمع وينعم بهذا النظام الذي أتى به •• ان حركة المهدية هذه كانت حركة دينية ذات أعماق بعيدة وكانت تعادي بشكـل مباشر المجتمع الذي تمثله مدينة الخرطوم ، عاصمة الترك ، وقصبة النظـام السياسي الذي اعلن المهدى انه لا يزول الا بحد السيف ومركز القـوة والثقل في المعارك التي سيخوضها هو وأنصاره •

ولما بدأت الدعوة في الجزيرة ابا لم تصل انباؤها الى المسئولين في الخرطوم بشكل رسمي وانما نقل انباءها نفر من الناس فعدها الحكمدار رؤوف باشا وشاية مغرضة من ذوي المنفعة عنده او الغـرض السيء في فقيه ابا ، أو لعله قد استهون شأن هذا الفقيه وعده متطاولا على قـوة وسلطة عصرت قبله الآلاف ووقفت دون الوصول اليها جحافل الوهابيين وجيوش سنار وفرسان الشايقيه والعبدلاب وعزم الملك نمر وفرسانه ، أو لعله حسب الامر في عداد المناوشات التي تقع بين الطوائف الدينيـة المتنافسة ، وعلى أية حال فقد سكت رؤوف ولم يتحرك الا بعد شهـر كامل من اعلان المهدية علنا بعد أن ظل الامام المهدى يعمل لها سرا نحو أربعة شهور • ولما كثر اللغط وتناقل الناس اخبار الفقيه وثورتـه في

أسواقهم ادركه القلق فأرسل أبا السعود بك لعله يستيقن من حقيقة الشيخ وحوارييه أو لعله يستدرجه الى الخرطوم فيقضي على أمره • وقد عاد ابو السعود ليبلغ الحكمدار ان الامر جد لا هزل ، وان المهدي مصر على ما اعلنه ، وانه ينذر الحكمدار وقومه بالويل • وقد أكد الامام المهدي نفسه هذا التقرير ببرقية أرسلها من الكوة ، وفي الحال وجه الحكمدار قوة يقودها ابو السعود نفسه للقضاء على الحركة • وارسل يبلغ رؤساءه في مصر بما وقع ولكن الخيبة هذه المرة كانت أسوأ وأمر من سابقتها ، فقد هزم الفقيه وحواريوه بفئوسهم وعصيهم وسيوفهم جنود الحكمدار المدججين بالاسلحة النارية هزيمة نكراء • وعاد ابو السعود يحمل أنباء الهزيمة وغصة الخيبة •

كان ذلك اول لقاء بين الدعوة الجديدة وبين مدينة الخرطوم ، وقد جرى اللقاء في مهبط الدعوة ، ولما انتقل الامام المهدى الى الغرب ابتعد شبح الخطر المباشر عن الخرطوم ، ولكن أنباء الانتصارات التي حققها الامام المهدى في الغرب ظلت تقلق المدينة وأهلها •

نحو الخرطوم :

عندما انتصر الامام المهدى على هكس تأكدت سيطرته على الاقاليم الغربية بصفة نهائية ، وتلاشت احتمالات ارسال قوة اخرى كبيرة للقضاء عليه • وقد فتح الطريق أمامه ليعود الى النيل مرة أخرى ويواجه المدينة الاولى وقصبة النظام ، وبالفعل ارسل الامام المهدى خطابا الى محمد الطيب البصير ليقوم هو وانصاره بمحاصرة الخرطوم كما أرسل امرا عاما لاهالي الجزيرة واقليم الخرطوم للاشتراك في الحصار • وفي هذه الاثناء وفد غردون الى الخرطوم واعلن سياسة الاخلاء فساعد ذلك في مسعى الامام المهدي وانحاز العبيد بدر والمضوى عبد الرحمن واحمد الامين ام حقين وعبد القادر قاضي الكلاكلة وكثير ممن لهم وزن الى جانب الامام المهدي وبالتالي فقد بدأت المرحلة الاولى من مراحل الحصار •

ولقد حاصر محمد الطيب البصير صالح الملك في فداسى ، وزحف ابراهيم العباس العبيد بدر والشيخ المضوى عبد الرحمن نحو مدينة الخرطوم من الجهة الشرقية الشمالية • وقد التقوا بقوة من الباشبوزق الشايقيـــة في الحلفاية فهزموها هزيمة نكراء في منتصف مارس ١٨٨٤ • وقد ارســل غردون قوة نهرية بقيادة ابراهيم فوزي فوجدهم وقــد شادوا المتاريس والطوابى وتحصنوا بها ، فعاد بعد ان ناوشهم قليلا • وبعد ايام ارسل غردون قوة كبيرة بقيادة السعيد باشا حسين الجميعابى ووكيله حســين باشا الشلالي ، فالتقت القوة بالانصار ووقعت معركة انتصر فيها الانصار وقد قيل ان قائدي القوة الحكومية كانا على اتفاق مع الثوار وانهمــا عملا لهزيمة جنودهم ، وقد حوكما بتهمة الخيانة واعدما وبعد هــذه الواقعة تقدم الانصار حتى بلغوا حلة الشيخ خوجلى وعسكروا فيهــا بقيادة ابراهيم العباس والشيخ المضوى وبدأوا مــن هنــاك حصــار المدينة • اما العباس العبيد فقد اجتاز النيل الازرق ونــزل في الجريف وحاصر المدينة منها • وأنضم عبد القادر قاضي الكلاكلة الى جانب الثوار فوفد على رأس قوة كبيرة من اهله ونزل في مواجهة المدينة من الجهــة الجنوبية الغربية • وتقدم مصطفى الامين ام حقين من جهة اسلانج ونزل خور شمبات وحاصر منها ام درمان ، وجمع احمد ابو ضفيرة الجموعية والفتيحاب وحاصروا ام درمان من جهة الجنوب •

وفي نفس الوقت عقد الامام المهدى لقائده المشهــور ابي قرجــة اللواء ، ولقبه بامير البرين والبحرين ، يقصد النيلين والجزيرة ونواحي الخرطوم ، وأوفده على رأس قوة كبيرة ليتولى قيادة القوات المحاصرة • وقد تقدم أبو قرجة فسلم له صالح الملك في فداسى ، وثم نــادى بالنفير العام في الجزيرة وتقدم الى الخرطوم وقواته تزداد عددا وخطورة • نزل أبو قرجة بالجريف وبعث بانذار قصير الى غردون يخطره فيه بقدومــه اميرا على البرين والبحرين وتسليم فداسى له ثم طلب منه التسليم •

حصون الخرطـوم :

شرع عبد القادر باشا الذي خلف رؤوف في تقوية دفاع المدينـة فحفر خندقا حولها وبنى حائطا • وبعد هزيمة هكس أضاف كوتلوقن وهو احد ضباط هكس بعض الاضافات الى الحصون • ثم جاء غردون فأكملها • وكان الحصن ممتدا من الجهة الجنوبية للمدينة بين النيلـين الابيض والازرق في شكل نصف دائرة • وقد قدر طوله بنحو سبعة آلاف متر عند الفيضان ونحو تسعة آلاف متر عند انخفاض النيل•وكان الحصن يتكون من خندق عريض يبلغ عمقه في أقصاه ١٨ قدما ، وقد كوم التراب الذي اخرج منه الى الداخل ثم بنى حائط سميك من الطـين وجعـل المزاغل ليكون سترا يقي العساكر من نار العدو ويمكنهم من اجـادة التصويب ووضعت أهرام فارغة خلف الخندق مباشرة عثرة في سبيـل العدو ، وعلى بعد ٣٠ مترا من الخندق غرزت في الارض أوتـاد مـن الخشب محددة الاطراف ثم ربطوها بالاسلاك على هيئة شباك وعلى بعد ١٠٠٠ متر من الخندق وضعوا دانات ملؤها البارود والمواد الملتهبـة في شكل الغام لتلتهب بمجرد اللمس •

وكان الطرف الغربي هو أضعف جوانب الحصن لان النيل يترك فجوة كبيرة عند انخفاضه • وفي أوائل ايام الحصار كانت هناك سفينتان مسلحتان تقومان بحراسة البقعة ، وكان من المقرر في اول الامر بناء طابية قوية من الحجر او الطوب الاحمر في هذا المكان ثم صرف النظر عنها بعد ان ارتفع البناء عن الارض وبدلا عنها أنشئت نقطة مراقبة للحراسة عند انخفاض النيل •

وكان للحصن ثلاثة ابواب هي باب الكلاكلة وباب المسلمية وباب برى • اما باب الكلاكلة فكان يدخل منه العربان الذين كانوا يجلبـون اللبن والخضروات وقد اغلق هذا الباب عندما وصلت أنباء هزيمة هكس• ولما جاء غردون أمر بفتح الباب ثم عاد فقفله عند بدء الحصار • اما بوابة المسلمية فكانت أكبر الابواب وأوسعها ، وكانت توصد بباب كبير من

الحديد يرفع بالاوناش • وقد مرت بها الجيوش التي خرجت من المدينة للغزو • أما الباب الثالث فكان بابا صغيرا وقد اوصد منذ بداية الحصار لان طابية الانصار في برى كانت قريبة منه • وقد بنيت الطوابى حول المدينة • كانت هناك طابية المقرن في مواجهة جزيرة توتى وكان عليها مدفعان ، وقد قاومت هذه الطابية مقاومة عنيفة عند سقوط المدينة وكانت باقية حتى هدمها الانصار في سنة ١٨٩٧ لبناء طابية اخرى بالقرب من النيل ، وقد ظلت الاخيرة باقية حتى هدمت في سنة ١٩٣١ عند توسيع شارع النيل • وكانت هناك ثلاث طواب على الخندق وهي طابية الكلاكلة وطابية المقرن ، وفي الشرق بنيت طابية عند قصر راسخ وفي أم درمان أنشئت طابية على بعد ١٢٠٠ مترا من النيل وقد حفروا خندقين يحيطان بها ويصلان الى النيل •

غردون :

كانت الامور في العاصمة وفي مصر تتطور بسرعة•وال يفد وراء وال وثورة في مصر ضد الطبقة الحاكمة ثم تفشل الثورة ويدخل الانجليز مصر ثم يظهرون على مسرح الحوادث في السودان تبعا لذلك • وفي الغرب يوالي الامام المهدي ضرباته القوية فينتصر على راشد والشلالى ثم يحتل الابيض ثم ينتصر على هكس ويسحق جيشه سحقا • لقد خلقت هذه الظروف بلبله عظيمة ، وقد تمخضت البلبلة عن بلبلة جديدة هي بعثة غردون وسياسة الاخلاء ثم سياسة القضاء على الامام المهدى التي نادى بها غردون بعد ان فشلت سياسة التهدئة •

وعندما بلغ غردون الخرطوم كان بها نحو ٥٠ ألف من المدنيين ونحو ٩ الى ١٠ آلاف من العساكر والضباط • وقد أعلن غردون سياسة الاخلاء وخلق السلطنات السودانية وعفا عن الضرائب وأدوات التعذيب فأحرقها علنا • وكان قد عزم على هدم الحصون التي أنشأها عبد القادر الا انه تركها بعد أن ألح عليه الأهالي • وقد بدأ رحيل المصريين ، وندب غردون

أحد أعوانه ليتولى امر الجلاء • وعسكرت أورطتان مصريتان في أم درمان تمهيدا للرحيل • وقد صار غردون دواما يعلن عن نواياه الطيبة نحـو السودانيين ونحو الامام المهدي نفسه ويمنى نفسه بالأماني ولكنه استيقظ يوما من حلمه فاذا بطبول الحرب تدق بعنف واذا بالقبائل المجـاورة للخرطوم تنحاز الى الامام المهدي وتستعد للزحف على المدينة • وجاءه رسول من عوض الكريم ابى سن زعيم الشكرية وابلغه انه لا يستطيع ان يتقلد منصب مدير الخرطوم الذي عرض عليه • وكان غردون قد خاطب الامام المهدي بخطاب وعرض عليه سلطنة كردفان واقامة علاقات وديـة بينهما ، وارسل اليه هدية وقد جاء الرد فاذا بالامام المهدي يرفض الهدية ويعيدها ، ويعرض عليه بدلا عنها جبة الانصار المتواضعة ويرفض عروضه كلها ويدعوه للسلام والقاء السلاح •

وتتيجة لهذه الظروف اضطر غردون الى العدول عن سياسة الاخلاء والتهدئة وبدأ يستعد للقاء الامام المهدي وصار شعاره ان لا بد مـن تحطيم المهدي • وقد أمر بالغاء رحيل الاورطتين الحربيتين وصار يقوي دفاع المدينة للقتال ، وقد عمل على تجنيد الاهالي وتدريبهم ووزع قواته على طول خط القتال •

الحصـار :

ترك ابو قرجة قوة بقيادة محمد الطيب البصير في الجريف ، وتقدم هو بقوته الرئيسية حتى بلغ برى • بنى طابية في مواجهة طابية المدينـة بينما شرع محمد الطيب في بناء طابية في الجريف وقد عسكر الطاهـر ابن العبيد بدر في منطقة تقع بين ابى قرجة ومحمد الطيب وقد شرعـت القوات الثلاث تقذف الحمم على المدينة •

وفي هذه الاثناء كانت بواخر غردون تقوم بمهمات على النيل الابيض فأرسل أبو قرجة صديقه أحمد فضلو على رأس قوة ليبني طابية قـرب حلة الشجرة غير ان غردون وجه ضربة قاضية على الطابية وهدم حلـة

الغرقان التي كانت تجاورها • وقد ظل المحاصرون في الجهات الباقية في قوة حتى ارتفع النيل وتمكن غردون من استغلال البواخر • وبعـــد سلسلة من الوقائع انحسر ابو قرجة وجماعاته بعيدا عن المدينة وقـــد واصل غردون انتصاراته ونقل المعركة الى الجريف فانتصرت قواته ، ثم تقدمت القوات الى ام ضبان ولكنها هزمت هزيمة نكراء فاستعاد الانصار أنفاسهـــم قليـــلا •

وفي هذه الاثناء كان النجومى قد فرغ من حرب الدائر فندبـه الامام المهدى على رأس قوة كبيرة تبلغ نحو اربعة آلاف وارسله اميرا عاما على المحاصرين • وقد التقى النجومى بابى قرجة في شكرالله ، ومن ثـم زحفا على الخرطوم وقد بدأت بذلك المرحلة الثالثة من مراحل الحصار • وقد بنى النجومى طابية في الكلاكلة وجعل قيادته هناك ، بينما تـرك العائلات مع ابي قرجة في حلة الغرقان • وقد جعل عبد القادر مدرع امير الحسنات في مواجهة بوابة المسلمية بينما جعل عبدالله النور في طابيـة برى • أما قوات الشيخ العبيد والشيخ المضوى فقد عسكرت في حلـة خوجلى وقد عززها النجومى بالاميرين عبدالله ولد جبارة وابي بكـر عامـــر •

وخرج الامام المهدى من الرهد في اغسطس سنة ١٨٨٤ قاصـــدا الخرطوم وقد بلغ تخوم ام درمان وعسكر في ابي سعد في أكتوبـــــر • وبحلول الامام المهدي بدأت المرحلة الاخيرة من مراحل الحصار • وقد ركز الامام المهدي هجومه على نقطة ام درمان وحاصرتها قوة بقيـــادة حمدان ابى عنجة حتى سلمت في يناير سنة ١٨٨٥ •

المدينـــة :

ومع الهزائم المتتالية وتفاقم الموقف العسكري تضخمت مشاكــل المدينة وقد بلغ القلق قمته عندما سقطت بربر وفقدت المدينة الاتصـــال بمصر • وقد واجه غردون هذه المتاعب باصدار المناشير ونشر الانبـــاء

السارة وقد صنع نجمة سماها نجمة الحصار ثم وزعها على العسكريين ثم المدنيين • ولمانفدت النقود من الخزينة صار يقترض من التجار لدفع المرتبات ثم لجأ اخيرا الى طبع اوراق البون ، فكانت اول عملة ورقية في السودان • وقد توقف الاهالي عن قبولها فاجبرهم غردون عليها • ومن طريف ما يذكر أن بعضهم قد تمكن من طبع بونات مزورة بعد أن زور امضاء غردون وختمه ونقشها على القرع • وقد أخذ التجار في اخفاء الغلال في المطامير فشدد عليهم غردون ، ووزع ما عندهم ثم وزع من مخزون الشونة • وقد جمع فقراء المدينة وظل يوزع عليهم حتى شح مخزن الغلال فاضطر الى اخراجهم من المدينة وقد تمكن من الحصول على بعض الغلال عندما هزم قوات ابى قرجة في الجريف وبرى ثم في سنار ، ولكن الناس اتوا عليها وانتشرت المجاعة في المدينة وصار الناس يأكلون الكلاب والحمير وكل ما تصل اليه اليد •

النجدة الانكليزية :

تحت ضغط الرأي العام البريطاني أرسلت الحكومة الانجليزية قوة انجليزية لانقاذ غردون • وقد التقت هذه القوة في ابى طليح والمتمة بقوات الامام المهدى ، وتمكنت من التقدم بعد ان هزمتها وكان غردون قد ارسل عددا من البواخر تحت قيادة نصحي باشا ليوافيه باخبار الحملة •

الهجوم :

بلغت انباء القتال في ابي طليح والهزيمة التي لحقت بالانصار معسكر الامام المهدى وخلقت بلبلة وقلقا • وقد اختلفت الآراء فقال البعض بالعودة الى كردفان ونادى البعض برفع الحصار عن الخرطوم ، والتوجه شمالا لملاقاة الانجليز • وطالب البعض الآخر بتوجيه ضربة قاضية على المدينة لاحتلالها ثم الاستعداد للقوات القادمة • وقد انتصر الرأي الاخير وهاجمت قوات الامام المهدى المدينة مركزة هجومها على الطرف الجنوبي الغربي الذي انكشف بعد ان انحسر الماء ، وبعد قتال

مرير سقطت مدينة الخرطوم في يد الامام المهدى وقتل غردون وقطع رأسه وكان ذلك في ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥ •

استبد القلق بأهالي الخرطوم وبلغ اقصاه عندما بلغتهم هزيمة هكس وبات الناس في خوف شديد • ولما جاءتهم أنباء القاهرة بعودة الجنرال غردون حاكما عاما للسودان استرد الناس أنفاسهم واستبشروا خيرا لما كان لهذا الجنرال من سمعة عالية • وقد عاش الناس على امل عظيم وفي حلم الانتصارات المرتقبة حتى حلت ركابه السعيدة وخطب فيهم قائلا :

« جئتكم وحدي غير مصحوب بالعسكر والاسلحة اعتمادا على معونة « الله وولائكم للحكومة » • واعلن العزم على جلاء القوات المصرية عن البلاد واقامة السلطنات السودانية والاعتراف بالثائر الذي توقعوا قهره والقضاء عليه سلطانا على كردفان ، وأشياء اخرى كثيرة قالها الجنرال فلم يفهمها أهل الخرطوم ولا وجدوا لما يسمعونه مكانا في عالم الواقع والحقيقة • وفي يأس سعوا اليه لعله يعود الى الواقع الذي يعيشون فيه وألحوا عليه واكثروا السعي والرجاء فابقى على الحصون وابطأ في جلاء القوات قليلا • وقد ظل الناس في حيرة من أمر الجنرال وأمر انفسهم حتى زحف الانصار على المدينة وانتصروا على قوات الحكومة في أطرافها وضربوا حولها الحصار وعندئذ عبر الناس عن غضبهم ومعارضتهم لسياسة غردون واستيائهم لما بلغت اليه الحال •

وقد هاج الناس وماجوا لاعتقادهم ان قائدي قوات الحكومة ، السعيد حسين الجميعابي والحسن ابراهيم ، قد خانا العهد لتواطئهم مع الانصار وأديا الى هزيمة الحلفاية ومقتل عدد كبير من العساكر ، وقد ذهبت المظاهرات الهادرة الى السراي طالبة برأسيهما ، ولعل ذلك كان اول عهد الناس بالمظاهرات في هذه البلاد ، وقد تمت محاكمة القائدين بالفعل واعدما •

وبعد واقعة الحلفاية اعتدى على حياة استيوارت نائب غردون

وساعده الايمن باطلاق الرصاص ولكنه نجا ، وفي الحال الغى غـردون المجلس الاهلي الذي كونه من أعيان المدينة للنظر في قضايا المواطنين وعهد لمحمد نصحي باشا بالأمن فنظم ديوان المحافظة ووضع حراسة عسكرية في الشوارع والاسواق والمعادي ودور الحكومة ثم وجه منشورا للاهالـي يحذر فيه من اطلاق الاسلحة النارية داخل المدينة ومنع التجول ليلا . وقد اتخذت اجراءات حاسمة للقضاء على اللصوص الذيـن انتشروا في المدينة وسطواعلى البيوت ليلا لما ادركوا ضعفالامن واضطرابالاحوال.

وقد دارت حرب كلامية بين المهدويين وبين غردون وجماعته وتبادل الطرفان الرسائل وقارعا الحجة بالحجة والدليل بالدليل وتبادلا التهديد والوعيد وقد بلغ ما كتبه المهدى لأهالي الخرطوم رسالتين وهذا بخلاف ما كتبه لبعض الشخصيات خاصة وبلغ ما كتبه لغردون خاصة ٨ رسائل .

وقد نقل نعوم شقير بعض هذه الوثائق في تاريخه كمـا ان مصنفى مجموعات الرسائل كانوا ينقلون في مصنفاتهم ما يقفون عليه ومن الممكن جمعها من هذه المصادر مجتمعة . وقد وجه النجومى وابو قرجة والامراء المحاصرون للخرطوم عددا من الخطابات الى غردون ومساعدين ولم ار مصدرا نقل هذه المحررات ولكنني وقفت على أصولهـا في المتحـف البريطاني . ولما بلغ النجومى اطراف الخرطوم وجه لأهالي الخرطـوم خطابا تكلم فيه عن المهدى والمهدية فانبرى له علماء الخرطوم واعـدوا رسالة يدحضون فيها مهدية الامام المهدي وينكرونها . وقد طبعت هذه الرسالة بمطبعة الخرطوم الاميرية ووزعت على الملأ . وجـاء في آخـر الرسالة اسماء العلماء الذين أعدوها وهم محمد الامين الضرير والشيخ شاكر وحسين المجدى ومحمد خوجلي والشيخ موسى . وقد غفلـت مصادر المهدية المطبوعة عن هذه الوثيقة المهمة ولكن توجد منها عـدة نسخ في دار الوثائق المصرية ، ولم أر نسخا لها في غير هذا المكان .

وقد انفرد الشيخ محمد الامين الضرير برسالة انكر فيها مهديـة

المهدي • وقد طبعت الرسالة بمطبعة الحكومة الحجرية في ١٢٩٩ هـ • وهناك نسخة وحيدة منها ، في الخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية •

وفي أواخر ايام الحصار بات الناس في قلق عظيـــم وصاروا في موقف يفقد فيه ضعفاء النفوس ، وهم كثيرون ، سند العقل والضمير ولا يستقرون على شيء • فها هنا مدينة بلغ بها التعب مبلغه من جــــراء الحصار والمجاعة والارهاق المادي والمعنوي معا ، وفي الخارج جحافـل المهدي الهادرة التي احكمت الحصار على المدينة ، ومن الشمال تتقــدم الحملة الانجليزية لانقاذ المدينة • وقد بات الناس يوازنون بين هـــذه وتلك ولمن عسى أن يكون النصر والظفر • ولقد كثر الهاربون مـــن المدينة عندما نزل المهدي في أبي سعد لانهم ظنوا ان لا محالة من سقوط المدينة في يده • وقد كتب اليه جماعة من كبار المدينة وأعيانها كتابـــا يقولون فيه انهم مؤمنون برسالته ومؤيدون له وانهم ساعون في اضعاف الحكومة بكل جهد وينتظرون الفرصة للالتحاق به ، وقد ضبط الكتاب وألقى على اصحابه القبض ، وكان منهم ابو بكر الجاركوك واحمـــد جلاب مدير الخرطوم وادريس بك النور والفضل ابراهيـم ومحمـد خوجلي قاضي عموم السودان والشيخ محمد الامين الضرير • وقـــد وقفت على خطابات المهدي التي يرحب فيها بخروج بعض الهاربين كمـا وقفت على وثائق تدل على ان بعض أعيان المدينة كانوا يعملون لمؤازرة المهدي واخراج الناس من المدينـة •

ولما حملت الانباء انتصار الحملة الانجليزية على الانصار في ابى طليح عادت كفة الميزان وصار بعض الناس يهربون من معسكر المهـدى الى المدينة الجائعة لعلهم يجدون بعض النصيب عندما ينتصر الانجليـز على المهدى •

وقد رحب المهدي بالهاربين ترحيبا حـارا ووجـه منشـورا الى جماعاته يحثهم فيه على الترحيب بالمهاجرين وعدم الانتقام منهم لموتاهم • وقد طلب الى احمد سليمان امين بيت المال احصاء الذين يخرجون مـن

المدينة وتقديم سبل العيش لهم ، ولما احصى الامين هؤلاء والمساكين الذين طردهم غردون وجدهم يبلغون المئات فأنشأ لضعفائهم ملجأ يقيمون فيه ويقيهم من العوز والسؤال ، وألحق القادرين منهم برايات الجيش ، وكان من الاخرين العطا محمد الدود الذي عين اميرا على السروراب ولحق بأحمد الامين ام حقين الذي كان معسكرا في السبلوقة ليمنع وابورات الحملة الانجليزية من الاجتياز ، والعطا هذا من المتهمين بافشاء سر الضعف الذي اعترى الخندق من جهة الغرب وتشجيع المهدى على الهجوم الذي قام به على المدينة .

وقد دارت حرب عنيفة بين جواسيس غردون وجواسيس المهدي ، وقد تمكن الجانبان من الوقوف على ما يجري في الطرف الآخر عن طريقهم كما تمكنوا من نقل الرسائل وتوصيلها خارج الحدود ونشر الاشاعات . وكان غردون كلما أحس بضعف في موقفه العسكري يعمد الى نشر الاعلانات عن الحملة الانجليزية وقرب وصولها ليرفع من روح العساكر المعنوية وليبث الخوف في نفوس الانصار وفي نفس الوقت كان يتصدى له عملاء المهدى والمؤيدون له فينشرون الاخبار المناوئة ويؤكدون للناس كذب غردون ويصفون قوة المهدي وجيوشه التي لا تقهر . وكان لغردون كاتب يدعى ابراهيم رشدي وثق فيه غردون وأولاه ثقة عظيمة وأطلق يده في الامور فانقلب هذا يبيع الوظائف ، ولما ادرك عملاء المهدي ذلك ابتاعوا بعض الوظائف منه وتسللوا الى أسرار الحكومة وظلوا يمدون المهدى بها . ولما كتب المهدي منشوره المشهور الى أهالي الخرطوم استنسخ الكتاب عددا وافرا منه واعطوه لاحد الجواسيس فوضعها في اناء من صفيح على شكل ابريق وقطع به النيل الابيض سباحة بالليل ودخل المدينة وألقى بالمنشورات في الأزقه والطرقات وقذف بها في المنازل ثم عاد أدراجه . واحسب ان ذلك كان أول عهد الخرطوم بالمنشورات المحظورة التي توزع خفية ، وهكذا سبق الانصار اخوانا لهم جاءوا من بعدهم اتفقوا معهم في الطريقة والوسيلة وان خالفوهم في المذهب والرأي .

وكان من اهم المناوئين لغردون والمتحمسين لقضية الثورة المهدية رجل يدعى احمد العوام ، وهو مصري الجنسية ومن خطباء الثورة العرابية ، وقد شاء له القدر ان يواصل جهاده السياسي الذي بدأه في مصر فتبنى قضية الثورة السودانية وظل يدافع عنها حتى سقط شهيدا • وقد أشار العوام الى هذا الموقف في رسالته فقال: « فاني طال ما جادلتهم (يقصد علماء الخرطوم) بالحق سرا ونصحت لهم حتى في دار الحكومة جهرا على يد وسمع من حضر من كتبة الديوان في ليلة النصف من شعبان هذه السنة (سنة ١٣٠١ هـ) رجاء ان يسعوا في ايجاد الصلح بين الطائفتين المتحاربتين » • وقد قبض عليه غردون بتهمة الاثارة ومساندة حركة المهدي ووضعه في السجن وكبله بالحديد ثم عفا عنه بعد ان توسط لديه ابو بكر الجاركوك والحق معاونا في الحكمدارية براتب قدره ١٥٠٠ قرش في الشهر ، وهو مبلغ كبير بارقام ذلك الوقت ، ويبدو ان غردون حاول اغراءه بهذا السبيل عن مناصرة قضية المهدي • ولكن العوام ظل على عهده ومضى يثير الناس ، ولما بلغ المهدي نواحي الخرطوم ازداد نشاطه. وظل يكذب علنا دعاوي غردون عن قرب وصول النجدة الانجليزية•

ثم اقدم على تدمير مخزن الذخيرة الذي كان يجاور منزله وذلك بان أغرى امرأة بالقاء جمرة على المخزن من شباك ، غير ان الحراس تنبهوا للامر قبل ان يستفحل ففشلت الخطة وقبض على المرأة ودلت هي على العوام ، ولما فتش منزل العوام عثر فيه على قصائد تحض على الثورة وعلى رسالته المشهورة وقد حوكم العوام وأعدم ، قيل أعدم في منزله ليلا وقيل اعدم في قصر راسخ بالطرف المقابل للمدينة • وقد وقف الامام المهدي على هذه الرسالة وأجازها ، وهي احدى ثلاث رسائل طبعت بمطبعة المهدية اما الاخريان فهما رسالة الشيخ ابراهيم زهرا ورسالة الشيخ حسن سعد محمد العبادي ، وقد دافعا فيهما عن المهدي وعقدا مقارنات بين علاماته وصفاته وبين العلامات والصفات التي ذكرها القوم عن المهدى المنتظر وبالذات الشيخ محيي الدين بن عربي الذي افرد كتابا خاصا لهذا الموضوع • اما العوام فلم يتكلم عن المهدي ولا المهدية

عن هذا الوجه التقليدي وانما تعرض الى قضايا فكرية وسياسية كانت تشغل بال المفكرين السياسيين الذين ناصروا الثورة العرابية مثل امامة الخليفة العثماني وشرعية خلافته وفساد نظامه والوضع السياسي في مصر وتسلط العناصر الاجنبية على مصر وفلاحيها ، ويبدو لي ان العوام كان يناصر الثورة المهدية من هذه الزاوية ، اي طريقا للخلاص من النظام العثماني في تركيا والولايات التابعة له لا تأييدا لفكرة المهدية ذاتها ، فهو يدين الوضع السياسي في تركيا ومصر ويحمل على السلطان عبد الحميد واسرة محمد علي ويحض على الثورة عليهما ، ولكنه يتفادى الكلام عن المهدي ويعلن انه يرجئه حتى يلتقى به ، ولست أرى في هذا العذر الا هربا ومداراة ، وقد غلب عليه الصدق عندما قال في الصفحة التاسعة : « وان يمكن لنا (الله) ديننا الذي ارتضاه لنا دينا وفاء بصادق وعده وتصديقا لحديث نبيه سواء كان بالامام المهدي هذا عليه السلام . فقد ظهرت كواكبه ولاحت بوارقه ، او بغيره من عباد الله الصالحين » . فالمهم عند العوام ليس شخص القائم بالامر وانما المهم هو الامر نفسه . وعلى أي حال فقد سقط العوام شهيدا قبل أن يلقى المهدى وقام بالمهمة التي ارجأها الشيخ حسين زهرا فأتم الفصل الخامس وعدد مناقب الامام المهدى .

وقد سقطت المدينة في يد المهدي في ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥ ، وبسقوط المدينة ومقتل الجنرال غردون لم يبق للحملة الانجليزية التي أشرنا الى قدومها لنجدة غردون هدف فعادت مسرعة الى الشمال بينما زحفت على اثرها جيوش المهدية ، وبانسحاب الجيش الانجليزي هذا خلا الجو للمهدي واعوانه فاقبلوا بجد الى العمل . وكعهدنا بهم بعد كل انتصار كبير انصرفوا الى التنظيم الداخلي واعطوه الجانب الاكبر من اهتمامهم، وكانت مشاكل مدينة الخرطوم من أولى المشاكل التي تصدوا لها . وقد اعلن المهدي مصادرة أموال الميرى وأموال اعيان الخرطوم وكبار الموظفين وقصورهم كما صادر المواضع التي تنتج منها المصالح العامة كالدكاكين والوكالات والطواحين التي على شاطىء النيل وطلب اخلاءها من السكان

لتؤدى فيها مصالح المسلمين • وقد رأيت كتابا يأمر فيه أميرا مقربا اليه باخلاء منزل بجوار الترسانة ليسكن فيه بعض عمال الترسانة •

وقد قام احمد سليمان امين بيت المال بحصر الغنائم وجمعها فكانت شيئا وافرا وان كان يقال ان كنوز الخرطوم ما زالت حبيسة الارض لان اهلها ضنوا عن الافصاح عنها للفاتحين •

وقد قتل في يوم الفتح خلق كثير ، ويعجب المرء من الوصف الذي يسوقه الذين شاهدوا الواقعة كيف نجا من نجا وسلم من القتل ، وقد وقفت على خطاب من المهدي الى الخليفة عبدالله يقول فيه ان ستر الجيف التي تملأ الشوارع واجب ويدعوه الى حث أهل القتلى لدفن قتلاهم • وكان من المشاهير الذين قتلوا في ذلك اليوم الشيخ حسين المجدي رئيس اساتذة المدرسة الاميرية والمدرس بجامع المدينة والشيخ فايد شيخ السجادة الاحمدية والشيخ موسى مفتي المحاكم الشرعية والشيخ محمد حتيك قاضي القضاة ، وذلك بخلاف الجنرال غردون وبعض القناصل • أما الشيخ الضرير فقد دخل عليه ابنه علي وكان اميرا في جيش المهدي ، وصحبه الى عبد الرحمن النجومي القائد الفاتح ثم الى الامام المهدي ثم الى الخليفة عبدالله ليأخذ له العفو ، ويذكر ابراهيم فوزي أن الاخير قد أغلظ له القول • وقد مات الضرير بعد ذلك بقليل • ولو أن قادة الفتح أدركوا ما أدركه علي بن الضرير وسعوا الى المحافظة على كبار الخرطوم وأعيانها لما خولف امر المهدي الصريح بعدم الاعتداء عليهم ولما قتلوا على يد العامة •

وكان من القادة الذين أسروا ابراهيم باشا فوزي الذي كان محافظا للخرطوم ، وقد بقى في ام درمان حتى الفتح وقدر له ان يكتب كتابا عن حياته وذكرياته في السودان • وكان منهم فرج باشا الزيني وسرور بك بهجت ، وقد حكم عليهما بالاعدام انتقاما لمقتل السعيد باشا الجميعابي وحسن باشا ابراهيم الذين حكم عليهما الزيني بالاعدام اثر اتهامهما بالخيانة في واقعة الحلفاية • وقد قبض ايضا على حسن بك البهنساوي الا انهم

اخلوا سبيله بعد أن صادروا أمواله فاقام في ام درمان مدة ثم تمكن من الهرب الى مصر عن طريق الحبشة ليواجه فيها تهمة الخيانة لاعتقاد شاع عندئذ بأنه سهل للانصار احتلال المدينة • وكان من الذين نجوا ابراهيم البردنين وقد اتهم فيما بعد بأنه أرشد الانصار الى بيوت الاغنياء ودلهم على الكنوز المدفونة ويبدو من المكانة التي أعطيت له انه لم يكن بعيدا عن هذه المهمة •

وكان من أدق المشاكل التي واجهت المهدى بعد الفتح نساء المدينة، وقد ذهب ابراهيم فوزي ، وهو رجل يغالى في وصف الحوادث ، الى انهم قسموا الحرائر الى قسمين ففرزوا الابكار الحسان وجعلوهن للمهدي واعوانه بينما سرحوا غيرهن • وقد روى آخرون نفس القصة باختلاف في التفاصيل والدرجة ، ولكن الذي يظهر لنا من الاوامر التي أصدرها المهدى بشأنهن انه منع زواج الانصار من حرائر الخرطوم ، وقد أمر بان تشدد العقوبة على كل من يخالف هذا الامر • وقد أمر بان يرد كل من لها زوج الى زوجها وكل من لها ولي الى وليها ، اما غيرهن فيبقين عند امين بيت المال حتى ينظر في أمرهن • وقد رأيت خطابا منه الى امين بيت المال يحثه فيه على معاملتهن بالحسنى كما وقفت على امر منه الى أمير كبير يطلب اليه اعادة زوجة احد كبار الضباط الى ذويها ، وفي خطاب آخر يذكر المهدى للخليفة عبدالله ان بعض الانصار قد تعدوا على زوجة ابي بكر الجاركوك فاستجارت المرأة به وقد وجه المهدي نظره ونظر الخلفاء والامراء الى مثل هذه الحالات وطلب توقيع عقوبات صارمة على من يعتدون على حرائر الخرطوم • على ان المهدى وكبار أعوانه قد تزوجوا بعض نساء الخرطوم ، وقد اعلن المهدى في خطاب الى اتباعه انه خطب آمنه بنت الجاركوك ثم تزوجها ، وقد طلب في خطاب تسليم عوائل الجاركوك الى ذويهم ، ومثل هذا كثير •

وقد نزل كبار الانصار في قصور الدولة وقصور الاعيان في حي المسجد • أما أهالي الخرطوم فقد جمعوا في الطرف الجنوبي من المدينة•

وقد خصص قصر الجاركوك للمهدى الذي كان يحل به كلما زار المدينة .
وقد وقع الاختيار على هذا القصر بالذات لقربه من المسجد ولاتساعه .
أما الخليفة عبدالله فقد نزل في السراي واحتكر حديقتها . وقد نزل الخليفة شريف في مبنى الكنيسة الكاثوليكية بينما احتل ابو قرجة ديوان المديرية. وقد باشر الانصار بهمة ونشاط ادارة مصالح المدينة التي يحتاجون اليها، فعين المهدى قريبه أحمد محمد حاج شرفي ليباشر ادارة الحدائق كما عين خاله طه محمد ليباشر ادارة الترسانة ، وعين عبد الرحيم الطريفي للمحافظة على الجبخانة ومباشرة تعبئة الخرطوش وتصليح آلات الحرب.
وقد دارت المطبعة بعد قليل وصدرت مناشير المهدى وتعليماته مطبوعة .

وقد عين خالد العمرابي مسئولا عن أهالي الخرطوم الذين نجوا من المذبحة ، فجمعوا أولا لحصر الممتلكات والغنائم ثم اطلق سراحهم وخصص لهم الطرف الجنوبي من المدينة . وفي مايو سنة ١٨٨٥ أمر الخليفة كل القاطنين في الخرطوم باخلاء المدينة والانتقال الى ام درمان ، وقد أستثنى الاشراف من هذا الامر وكلفوا بطرد من يبقى من الاهالي وسمى ابراهيم البردنين لمراقبة المتخلفين ورفع أمرهم الى الامير عبد الحليم مساعده ويبدو ان الخليفة كان على الاقل في أول الامر حريصا على الابقاء على مدينة الخرطوم ، فقد وقفت على كتاب منه الى احمد سليمان يقول فيه :
« بعلمك اني نبهت غير ما مرة بعدم تهديم منزل واحد من منازل الخرطوم على وجه العموم من غير استثناء واكدت في ذلك غاية التأكيد واعلمتك بانه اذا حصل من اي احد هدم بيت واحد فاذا لم تستطع منعه خابرني به وما تركت لك في هذا الخصوص شيئا . وقد كنت اظن انك تقوم في تنفيذ هذا الامر بهمة عالية ولكن بحضوري بالخرطوم ومناظرتي اليه وجدت كثيرا من المنازل مهدوما بل وجدت البلد في بعض المحلات صار خربا وكل ذلك حصل وانت بالبلد لاصقت من ارتكب ذلك ولا اخبرتني باقل شيء في هذا الخصوص . على انه لم يخف على الله أمر الناس الذين اجروا ذلك لما انه ظاهر على مساكنهم وقد كان الواجب عليك واللائق بحالك الاهتمام بتنفيذ هذا الامر اول صدوره منا لما انك تعلم

انه لا قصد لي غير اجراء ما فيه مصلحة الدين العمومية ، وحق تلغرافك هذا ان يأتيني منك اولا قبل خراب البلد لامكان المداركة » .

لقد صدر هذا الخطاب في اغسطس سنة ١٨٨٥ ، وظاهر منه ان الخليفة لم يكن راضيا عن التخريب كما انه يتهم بعض الاشراف ويأخذ على احمد سليمان سكوته على ذلك . وفي ذلك ما يعني ان الاشراف كانوا يقطنون الخرطوم حتى ذلك التاريخ ، كما يبدو ان بعضهم قد بدأوا يبنون المنازل في المدينة الجديدة ، ولكن هل كان من المتوقع ان تبقى المدينة وقد اتخذ المهدي أم درمان قاعدة . ان انشاء مدينة حديثة بجوار مدينة قديمة لا بد ان يسرع بخراب القديمة وزوالها ، لان المدينة الحديثة تنشأ على حساب المدينة القديمة سواء كان ماديا بأخذ طوبها وأحجارها واخشابها كما وقع لمدينة سوبا عند انشاء الخرطوم وللخرطوم عند انشاء ام درمان ، او بانتزاع الاهمية التجارية او الحضارية كما وقع لمدينة الفسطاط عند انشاء القاهرة ، ولمدينة سواكن عند انشاء بورسودان ولمدينة بربر التاريخية التي اضعفها ظهور عطبرة ، وفضلا على ذلك فان اهمال امر الخرطوم يبدو امرا منطقيا بعد الخلاف الذي وقع بين الاشراف والخليفة لان سكناهم هناك يرمز الى عصبيتهم والى مكانتهم العالية . ومن الملاحظ ان الانصار كانوا على وجه العموم يعزفون عن المدن القديمة لكونها لا توافق طبيعة تجمعاتهم العسكرية والقبلية وتقسيماتهم، وقد ظل الانصار بعد فتح الابيض في معسكر الجنزارة الذي انشأوه عندما كانوا محاصرين للابيض ولم يدخلوا الابيض الا بعد الحريق الذي أتى على المعسكر ، وهذا شبيه بما فعله المحاربون العرب عندما انشأوا مدينة الكوفة على مبعدة من مدينة الحيرة . ويجب ان نذكر ان الخليفة نقم في هذه الفترة على مدينة اخرى قاومت الانصار مقاومة عنيفة وهي سنار وأمر بتخريبها تخريبا تاما .

جديدة او ان يجعل من المكان الذي اختاره عاصمة وانما كان غرضه ان يعسكر في مكان فسيح ريثما يوزع انصاره للجهاد في الجهات المختلفة •

وقد قيل في مناسبة اختيار الموضع ، ان الامام المهدى خرج في جماعة من اصحابه وهو على جمل أطلق له العنان فسار الجمل من ابي سعد شمالا حتى برك في الموضع الذي به القبة الان • وقد وقع اختيار المهدى على الموضع وبنى حجرة من الطين في المكان الذي برك فيه الجمل ، ولما توفى الامام دفنه أصحابه في حجرته أسوة بما فعله الصحابة عندما دفنوا الرسول في حجرة السيدة عائشة التي مات فيها • وقد أقام الخليفة عبدالله القبة فوق هذا الموضع • وقد أقام اصحاب المهدى الكبار منازلهم حول منزل المهدى فبنى الخليفة عبدالله وكبار أمراء رايته الى الجنوب من منزل المهدى وبنى الخليفة شريف والخليفة على الحلو وكبار أمراء رايتيهما بالناحية الشمالية • أما الجانب الغربي فقد خصص ليكون المسجد • وقد تسابق الانصار فوفدوا الى المكان وأقاموا فيه المنازل بالقش والجلد والشكاب وما اتفق لهم من المواد حتى تحول المكان بسرعة الى معسكر كبير •

اطلق المهدى على هذا المعسكر اسم البقعة وهو اسم درج المهدى على اطلاقه على الاماكن التي يعسكر فيها • وبروح التفاؤل والاعتزاز والتبرك كان يقال البقعة المباركة والبقعة الطاهرة • وعرف الموضع أيضا بدار الهجرة ، وهذا هو الاسم الذي نقشه المهدى على العملة التي ضربت في عهده ، وقد طوى النسيان هذا الاسم فيما طوى بعد ان تحول المعسكر الى مدينة كبيرة • وبدافع الاعتزاز واليمن وصف الانصار مدينتهم بقولهم: بقعة ام درمان أمان الخايف ما يا باها غير الخايب ، وقالوا ايضا « ام درامان » ويعنون بذلك مكان الدر المأمون • وقد أشاروا اليها في مكتوباتهم بأسماء اخرى كمدينة المهدى ودار الفلاح ومركز الارشاد وما الى ذلك من الاسماء الدالة على الاعتزاز والتفاؤل •

وقد توفى الامام المهدى بعد انتقاله الى ام درمان بقليل • وتولى

تلقائيا في هذه المرحلة التي اضحت فيها عاصمة بدلا من مدينة الخرطوم •

واسم ام درمان اسم قديم ، وقد وقفت عليه في وثائق ترجع الى العهد السنارى ، وقد ذكره ود ضيف الله المتوفى ١٢٢٤ هـ في معرض كلامه عن الشيخ حمد ولد ام مريوم ، وفي اماكن اخرى مما يعني ان الاسم كان معروفا في زمنه ، بل هناك من الروايات عن اصل الاسم ما يفيد انه يرجع الى عصر العنج ، اي العصر السابق لعصر الفونج • وقد ذهب الناس في تفسير أصل هذا الاسم مذاهب شتى • وأكثر هذه المذاهب رواجا هو القول بانه راجع الى امرأة كانت تسكن الجهة ولها ولد يدعى درمان • وقد ذهب قوم الى ان هذه المرأة كانت بنت أحد ملوك العنج وانها كانت تسكن منزلا مبنيا بالحجر ومحاطا بسور متين وذكروا ان آثار هذا المنزل كانت ظاهرة بحي بيت المال الى وقت قريب •

نشاة المدينة :

عندما سقطت مدينة الخرطوم كان معسكر المهدى في ابي سعد ، الى الجنوب من ام درمان ، وقد زار الامام المهدي مدينة الخرطوم عدة مرات كان ينزل فيها في قصر ابي بكر الجاركوك الذي خصص له غير انه لم يقم بالمدينة اقامة دائمة • ويقال انه ختم احدى خطبه الاخيرة بمسجد الخرطوم بقوله تعالى : « وسكنتم في مساكن الذين ظلموا انفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الامثال وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وان مكرهم لتزول منه الجبال الى قوله هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا انما هو اله واحد وليذكر اولو الالباب » • سورة ابراهيم الايات ٤٥ ــ ٥٢ •

وقد اشار المهدى بذلك الى انه لا يعتزم أن يتخذ عاصمة الترك مقرا له ، وقد سبق له ان رفض الانتقال الى مدينة الابيض عندما سلمت له ، وبقى معسكرا باتباعه في بقعة الجنزارة التي أسسها عندما كان محاصرا للابيض حتى اتى حريق هائل على المعسكر واضطر الى الانتقال الى المدينة • ومن المحقق ان المهدي لم يكن يرمي الى انشاء مدينة

جديدة او ان يجعل من المكان الذي اختاره عاصمة وانما كان غرضه ان يعسكر في مكان فسيح ريثما يوزع انصاره للجهاد في الجهات المختلفة •

وقد قيل في مناسبة اختيار الموضع ، ان الامام المهدى خرج في جماعة من اصحابه وهو على جمل أطلق له العنان فسار الجمل من ابي سعد شمالا حتى برك في الموضع الذي به القبة الان • وقد وقع اختيار المهدى على الموضع وبنى حجرة من الطين في المكان الذي برك فيه الجمل ، ولما توفى الامام دفنه أصحابه في حجرته أسوة بما فعله الصحابة عندما دفنوا الرسول في حجرة السيدة عائشة التي مات فيها • وقد أقام الخليفة عبدالله القبة فوق هذا الموضع • وقد أقام اصحاب المهدى الكبار منازلهم حول منزل المهدى فبنى الخليفة عبدالله وكبار أمراء رايته الى الجنوب من منزل المهدى وبنى الخليفة شريف والخليفة على الحلو وكبار أمراء رايتيهما بالناحية الشمالية • أما الجانب الغربي فقد خصص ليكون المسجد • وقد تسابق الانصار فوفدوا الى المكان وأقاموا فيه المنازل بالقش والجلد والشكاب وما اتفق لهم من المواد حتى تحول المكان بسرعة الى معسكر كبير •

اطلق المهدى على هذا المعسكر اسم البقعة وهو اسم درج المهدى على اطلاقه على الاماكن التي يعسكر فيها • وبروح التفاؤل والاعتزاز والتبرك كان يقال البقعة المباركة والبقعة الطاهرة • وعرف الموضع أيضا بدار الهجرة ، وهذا هو الاسم الذي نقشه المهدى على العملة التي ضربت في عهده ، وقد طوى النسيان هذا الاسم فيما طوى بعد ان تحول المعسكر الى مدينة كبيرة • وبدافع الاعتزاز واليمن وصف الانصار مدينتهم بقولهم: بقعة ام درمان أمان الخايف ما ياباها غير الخايب ، وقالوا ايضا « ام درامان » ويعنون بذلك مكان الدر المأمون • وقد أشاروا اليها في مكتوباتهم بأسماء اخرى كمدينة المهدى ودار الفلاح ومركز الارشاد وما الى ذلك من الاسماء الدالة على الاعتزاز والتفاؤل •

وقد توفى الامام المهدى بعد انتقاله الى ام درمان بقليل • وتولى

الخليفة عبد الله الامر وصار يعرف بلقب خليفة المهدى • وفي عهد الخليفة استمر توسع المدينة بينما بدأت المنازل المبنية بالطين والطوب الاحمر والحجر تحل مكان منازل القش والجلد • وصار المكان يتحول الى مدينة دائمة بعد ان كان معسكرا للهجرة • ففي سنة ١٨٨٥ ، وهي السنة التي توفى فيها الامام المهدى ، بنى الخليفة عبدالله بيت المال والسجن المعروف بالساير • وفي سنة ١٨٨٧ شيد الخليفة الدور الارضي من منزله بمواد أحضرها من مدىنة الخرطوم ، وقد بنى عليه الدور الثاني في سنة ١٨٩١ • وفي سنة ١٨٨٨ شيد بيت الامانة • وهو مخزن كبير للسلاح ومعدات الحرب ، وقبة الامام المهدى • وبدأ بناء سور المدينة الذي أحاط بقلب المدينة حيث قبة المهدى ومنازل الخلفاء وحرس الخليفة وعصبيته والمصالح العامة وفي سنة ١٨٨٩ احاط المسجد الجامع بسور عظيم •

وقد بلغ امتداد المدينة ما بين طابية ام درمان وشمبات ، وقد قدر طوله جنوبا وشمالا بنحو ستة أميال وقدر عرضه شرقا وغربا بميلين • وقد أخذت المدينة هذا القدر من الاتساع طولا لان الناس كانوا يفضلون قرب النيل لسهولة جلب الماء • وقد قدر سكان المدينة قبل مجيء أهل الغرب بما بين ١٥ الف و ٢٠ الف ، وقدر في سنة ١٨٩٥ بأربعمائة الف نسمة •

وفي قلب المدينة تقع قبة المهدى ، وبغربي القبة المسجد الكبير وبين المسجد الكبير والقبة كان جامع الصفيح • وتكاد هذه البقعة تقطع المدينة الى قسمين او جناحين ، الجناح الجنوبي وهو جناح الخليفة عبد الله وأقربائه وحرسه وأهل الغرب عامة ، والجناح الشمالي وهو جناح الخليفة علي والخليفة شريف وأهل البحر عامة • وكان السوق الكبير يقع في الحي الاخير ، وقد نصبت المشانق في هذا السوق • وكانت المصالح العامة كالسجن وبيت المال وبيت الامانة على مقربة من حي القبة • وقد أحاط الخليفة ذلك الجزء الذي فيه المصالح ودور الدولة ومنزله ومنطقة حرسه وأهل عصبيته بسور عظيم ظل يبنيه بالحجر من

سنة ١٨٨٨ حتى سنة ١٨٩٥ ٠

ويبدأ السور من القبة ويسير شمالا نحو ١٥٠٠ ياردة ثم يسير الى الجنوب نحو ٧٠٠ ياردة حتى البوابة الشرقية الكبيرة ثم يستمر الى الجنوب نحو ٩٠٠ ياردة ٠ وكان من المقدر ان يسير السور الى الغرب ثم الى الشمال حتى يبلغ القبة غير ان ظروف الدفاع ومواجهة الجيش الفاتح الذي كان يتقدم نحو أم درمان قد حالت دون اتمامه ٠ ومن الملاحظ ان المسجد الجامع لم يكن ضمن المباني المحاطة بالسور ، وما ينبغي للمسجد ان يكون كذلك لانه لكل المسلمين ٠

وفي الطرف الجنوبي من المدينة كانت الطابية التي بناها الجنرال غردون ، وقد حولها الانصار الى معسكر للجهادية وسموها الكارة وكان للجهادية مسجد خاص لبعد المسافة بين الكارة وبين مسجد المدينة ٠ وكان هناك شارع طويل يصل بين الطابية وبين القبة ، وكان هنا شارع آخر من القبة حتى العرضه يسير فيه الخليفة في موكب عظيم الى مكان العرضة لاستعراض جيشه ثم يعود منه وكان السكان يدفنون موتاهم داخل المدينة ثم انقلبوا يدفنون موتاهم في الخلاء الواقع شمال العرضة ٠ وعلى العموم فقد قامت المدينة على عجل ودون تخطيط وبنى الناس دورهم حيثما اتفق لهم ، وقد وصفت شوارع المدينة بالضيق والفوضى ٠ وقد أمر الخليفة ففتحت شوارع واسعة طويلة تقطع المدينة شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ٠

تمتد مدينة ام درمان شمالا وجنوبا في محازاة النيل ، وهناك شوارع رئيسية تقطع المدينة ٠ كما ان في وسطها ميدانا فسيحا يبدأ من النيل ويسير غربا ثم يتجه شمالا الى المسجد الكبير وجنوبا الى القطاع الجنوبي من المدينة ٠ ويمكننا ان نقسم المدينة الى قطاعات اربعة : القطاع الجنوبي والقطاع الشمالي الغربي والقطاع الاوسط ثم القطاع الشمالي ٠

١ ـ القطاع الجنوبي :

في أقصى امتداد المدينة تقع حلة الفتيحاب ، وأهل هذه الحلة من مواطني الجهة وهم فرع من قبيلة الجموعية الكبيرة • والى الشمال من هذه الحلة فضاء واسع ووراء الفضاء الى الشمال اول المدينة حيث ديم يونس ، وهو المكان الذي عسكر فيه الامير يونس الدكيم بقواته • وفي هذا الحي يقع أحد منازل الخليفة ، وللخليفة منزل آخر على النيل قصاد كارة الجهادية ، والى الغرب من هذه الكارة منزل قائد الجهادية ثم حوش الجهادية السود • والى الشمال من هذه البقعة يقع مشرع الموردة وهو الميناء الرئيسي للمدينة واكبر مشرع على النيل الابيض • ويقيم في هذه البقعة ايضا مجموعة كبيرة من اهل الغرب ، وعلى امتداد هذا القطاع من الجانب الغربي تسكن مجموعات القبائل الغربية كالهبانية والرزيقات والحمر ، وتقع في نهاية القطاع من الجانب الشمالي وفي مواجهة الفضاء الواسع مصنع الذخيرة وبيت الامانة ومخزن صغير تودع فيه الرايات والطبول •

ويسيطر هذا القطاع على المشرع الرئيسي في المدينة ويقع فيه مخزن الذخيرة وآلات الحرب وبعض منازل الخليفة ومنزل يعقوب • ويخيل الي ان الخليفة قد خطط هذا القطاع على هذا الوجه ليلجأ اليه اذا اندلعت حرب داخل المدينة واضطر الى الانسحاب من حي المسجد ، ذلك لانه سيجد نفسه في هذا القطاع وسط الجهادية وقبائل الغرب الموالين له وتحت يده مخزن السلاح ورايات الجيوش وطبوله • وربما كان القصد من الفضاء الواقع شمالي هذا القطاع هو ايجاد فاصل طبيعي بينه وبين القطاعات الاخرى ليسهل الدفاع عنه عند الضرورة •

٢ ـ القطاع الشمالي الغربي :

يفصل بين هذا القطاع والقطاع الجنوبي الفضاء الواقع بينهما

والممتد من النيل الى الغرب ثم يدور الى الشمال حتى نهاية المسجد من الجانب الغربي والشمالي ، ويصير الفاصل بعد ذلك الشارع الذي يسير شرقا وغربا من شمال المسجد ثم الشارع الذي يتجه شمالا بعد المسجد محازيا للسور الغربي • وينقسم هذا القسم الى أحياء • هناك حي قبيلة كنانة في مواجهة المسجد من الغرب وحي قبيلة دغيم الى الشمال من المسجد • ويقع بين هذين الحيين حي عرب النيل الابيض • اي ان القبائل المنضوية تحت راية الخليفة علي الحلو كانت تحتل المنطقة الواقعة شمال المسجد وغربيه • وهم بالتالي يفصلون بين أهل الغرب الذين يسندون الخليفة وبين القبائل النيلية التي يخشى منها على نظام الخليفة عبدالله • ومن الطريف أن نلاحظ ان موقف الخليفة علي من المنازعات الدائرة بين اهل النيل وبين الخليفة عبد الله حول الحكم كان مطابقا لموضعه وموضع قومه هذا من المدينة ، فهو ليس مناصرا للاشراف كل المناصرة لان قضيتهم تقوم على ان الخلافة لهم دون غيرهم بينما كان الخليفة علي يأمل ان تكون الخلافة له بعد عبد الله نظرا الى انه خليفة عمر بن الخطاب الذي ولى الامر بعد ابي بكر الصديق ، وهو لا يناصر الخليفة كل المناصرة لان الخليفة كان يهدف الى السير بالخلافة الى بيته لتكون لاخيه يعقوب او ابنه عثمان شيخ الدين ، وهذا يخالف مقصد الخليفة علي • وكان الخليفة علي يضطر الى الوقوف بجانب الخليفة عبد الله لانه لا يأمن من جانب الاشراف وكان لايجأر بعداوة الاشراف لانه لا يضمن نصيبه عند الخليفة عبد الله ، وكان موقفه عندما تبلغ الامور مبلغها وتوشك الفتنة ان تهز كيان النظام كله هو القيام بدور الوسيط المحافظ على الولاء الكامل للنظام الديني الذي اقامه المهدى ، وانه لما يذكر له انه وقف بجانب الخليفة حتى لقى مصرعه معه شهيدا •

والى الشمال من حي قبيلة دغيم ، والى الغرب منه يقع حي المسلمانية ، ثم المقابر ثم حي الدناقلة فحي الكنوز والنوبيين ومنازل احمد شرفي وعائلة الخليفة شريف • كما ترى فان هذه الاحياء تقع على مبعدة من حي المسجد والسلطان ولكنها تمتاز بقربها من السوق • وبين

حي الدناقلة وحي كنانة يقع السوق الكبير وهو مقسم حسب الصناعات كما هو العهد الآن بسوق ام درمان ، وكان اكبر اجزائه منطقة الجزارين ومنطقة الحدادين ومنطقة النجارين ومنطقة الحلاقين ومنطقة الترزية وسوق الخضار وسوق القش وسوق العيش وسوق الحطب وسوق الحريم . وكانت الاحكام التي تصدرها المحكمة تنفذ في السوق على مشهد من الناس ، وقد نصبت فيه المشانق ، وكان العهد بمن حكم عليهم بالاعدام قطع الرأس ثم صار الاعدام شنقا ، وكان يتولى ذلك ، وقطع الايدي والارجل جزاران احدهما يدعى بخيت والثاني سعدالله ، وما ابعد هذين الاسمين عن مهمة صاحبيهما !

٣ ـ القطاع الاوسط :

يعتبر هذا القطاع قلب المدينة ومكان السلطة وهو محاط بسور عظيم من جهاته الشمالية والشرقية وطرف من الجنوبية ، ومن الشرق النيل الكبير . وكان اهم مواضعه هو المسجد الكبير وقبة الامام المهدى وجامع الصفيح ومنزل الخليفة علي ومنزل عائلة المهدي وبعض اقربائه ومدرسة المهدية وبيت الخليفة عبد الله ومنزل يعقوب ومنازل القضاة وكتبة ديوان المهدية وحي الملازمين .

٤ ـ القطاع الشمالي :

ويعد هذا القطاع امتدادا للقطاع الشمالي الغربي والقطاع الاوسط. ففي هذا القطاع كان ما يعرف بدار الهجرة وهو يتكون من بيت المال ومنازل كتبة بيت المال ومساكن المصريين وأهل مدينة الخرطوم القديمة . وفي الجانب الشرقي الشمالي من هذا القطاع كان ما يعرف بدار الهجرة وهو يتكون من مسجد ودار للخليفة عبد الله ودار أخرى للخليفة علي الحلو ، وقد سميت دار الهجرة لان الخليفة كان يقيم فيها عندما يقوم بتوديع القوات المتجهة الى الشمال ، وكانت العادة ان يسير معها حتى كررى ، وقد صار هذا الامر سنة منذ ان سار المهدى مع قوات النجومى المتجهة للشمال حتى كررى وودعهم فيه . ولعلنا نذكر هنا كيف كان

النبي يخرج خارج المدينة مودعا قواته ، ولعلنا نذكر ايضا ان منشأ مدينة ام درمان يعود الى الرغبة في ايجاد دار للهجرة لتبدأ منه القوات مسيرها الى جبهات القتال • وكان للقوات القادمة الى المدينة والخارجة منها موضعان آخران للهجرة تعسكر فيهما ريثما تدخل المدينة او ريثما تكتمل استعداداتها للمسير ، وهما شجرة الهدية لقوات الجنوب والغرب وقبة الشيخ فوجلي لقوات الشرق وكانت البواخر القادمة من الجنوب تقف في الشجرة حتى يؤذن لها بالدخول • واليك وصفا للمواضع المهمة في المدينة :

المسجد الكبير :

كان المسجد حتى وفاة الامام المهدى عبارة عن فضاء محاط بالشوك، وقد كانت بيوت أم درمان كلها بالقش حتى ذلك الوقت وكان البناء الوحيد هو منزل المهدى المبني من الطين والذي صار مدفنه • وبعد وفاة المهدى بقليل شرع الخليفة عبد الله في بناء سور من الطين حوله ، وقد أشار الخليفة في خطاب منه الى حمدان في ٤ ذي الحجة سنة ١٣٠٢ هـ الى انه يبنى سورا حول المسجد ، ومن المحقق ان هذه الاشارة تذهب الى سور الطين • وفي سنة ١٨٨٩ اقام سورا من الطوب الاحمر مكان سور الطين وطلاه بالجير الابيض • وقد وصف الشيخ اسماعيل عبد القادر الكردفاني هذه الواقعة في كتابه المستهدى فقال ان وضع اساسه كان في يوم الاربعاء ٤ ربيع الاول سنة ١٣٠٥ هـ ، وذكر ان الفراغ منه كان في يوم الاربعاء ١٧ جمادى الاولى سنة ١٣٠٥ هـ ، وذكر ان الخليفة عبد الله تولى وضع حجر الاساس في محفل عظيم وأنه باشر ذلك وهو يقرأ سورة الاخلاص ، وبعد ان وضع الخليفة عشرين طوبة احتذى حذوه الخلفاء والامراء وعلية القوم ثم عامة الانصار ، وقد كان البناء بالتطوع تبركا به ورغبة في الثواب ، اما طوب البناء فقد جلب من الخرطوم •

وقد اختلف الناس في ابعاده ، فذكر ونجت في تقرير أعده في سنة

١٨٩٠ ان طوله يبلغ الف ياردة وان عرضه ٨٠٠ ياردة بينما ذكر سلاطين في كتابه ان طوله يبلغ ٤٦٠ ياردة وان عرضه ٣٥٠ ياردة • واحسب ان ابعاده الصحيحة هي ما ذكره اسماعيل عبد القادر في المستهدى ، قال ان طوله من الجانب الغربي يبلغ ٤٧٠ ذراعا وان طوله من الشرق ٤٦١ ذراعا ، وان عرضه من الجهة الجنوبية يبلغ ٢٩٨ ذراعا ومن الجهة الشمالية ٢٩٥ ذراعا • وعلى هذا فان مساحته ، بخلاف الاساسات تبلغ ١٥٢٥ ذراعا • اما اساس البناء فكان يبلغ ذراعا ونصف ذراع عرضا وذراعين وربعا في العمق • وقد ذكر ان المسجد كان يسع نحو عشرة آلاف شخص•

وكان للمسجد ثمانية ابواب ، وقد علق الكردفاني على ذلك فقال : انه فال حسن لان ابواب الجنة ثمانية ايضا ، ولكنا لا نحسب ان هذه الفكرة قد اعتبرت عند اعداد الخطة ، بل كان القصد هو توفير مخارج ومداخل كافية للمصلين ، وقد جعل في كل اتجاه بابان • وكان اهم الابواب هو ذلك الذي يقابل منزل الخليفة ، وكان فيه باب كبير من الخشب بينما كانت الابواب الاخرى مجرد فتحات لا باب لها •

وفي الجانب الشرقي من المسجد كان المحراب وكان الخليفة يقف فيه ويصلي بالناس في الاوقات الخمسة ما عدا الجمعة • وكان بالجانب الغربي من المسجد جناح خاص بالنساء • والى الشرق من المسجد في الشارع الذي يفصل بين المسجد والقبة كان جامع الصفيح وهو مسجد صغير ، بل قل جناح خاص من المسجد او مقصورة خاصة به • وقد أنشىء هذا المسجد للمحافظة على المهدى من داء الجدري الذي كان منتشرا آنذاك لان المهدي لم يكن مجدرا ، وكانوا يفصلون بينه وبين الناس في الوابور الذي يقطع بين الخرطوم وام درمان بمسافة بعيدة حتى لا تنقل اليه العدوى • ولا يختلف هذا الاسلوب عن الاجراءات الوقائية التي تتخذ هذه الايام عند انتشار الاوبئة الفتاكة كالسحائي والكوليرا •

وكانت ابعاد هذا الجامع تبلغ ٢٥ مترا طولا و ١٥ مترا عرضا وكان

يسع نحو ٢٠٠ نفسا • وكانت جوانبه محاطة بالخشب بينما كان سقفه بالزنك محمولا على ١٢ عمودا من الحديد ، وقد سمى بجامع الصفيح بمناسبة هذا الزنك • وكان يصلي في هذا الموضع المهدي والخلفاء والقضاة والاعيان ، وبعد وفاة الامام المهدي كان يصلي فيه الخليفة صلاة الجمعة بينما كان يصلي الاوقات الخمسة في المسجد الكبير •

ان أمامة الصلاة وامامة الحكم مقرونتان معا في النظام الاسلامي وقد سميت امامة الصلاة بالامامة الصغرى بينما سميت امامة الحكم بالامامة الكبرى • وكان الخليفة يعطي أهمية خاصة لهذا الجانب من جوانب وظيفته ولهذا كان يقوم بنفسه بامامة الصلاة في الاوقات الخمسة والاعياد • وكما سبق القول فانه كان يصلي الجمعة في جامع الصفيح بينما كان يؤدي الاوقات الخمسة في محراب المسجد الكبير • وقد عد التغيب عن الصلاة جريمة كبرى اذا كانت وراءه دواعي سياسية ، وقد وصف الخليفة هذا الموقف وصفا رائعا مفصلا في خطاب منه الى الامير محمد خالد زقل واتباعه في دارفور ، وكان محور ما ذهب اليه هو ان المتغيب عن الصلاة كمن ينكر خلافته وان الواقفين خلفه في الصلاة هم المشمولون بالعناية وبركات المهدية •

وكان يقف عن يمين الخليفة أخوه الامير يعقوب وكبار أهل الراية والى يساره الخليفة علي الحلو وكبار أهل رايته • ويقف في هذا الصف ايضا ابناء الخليفة وابناء المهدى والقضاة والعلماء • ويقف خلف هؤلاء الملازمون والجهادية في نحو ١٢ صفا ثم يأتي خلفهم بقية الانصار • وكان الخليفة ينيب عنه في امامة الصلاة سليمان الحجاز او سعد الجعلي واحيانا عبد الكريم التكروري ، وكان هؤلاء لا يقفون في داخل المحراب وانما يؤمون من خارجه فالمحراب خاص للخليفة عبد الله وحده • ويلاحظ ان الانابة في الصلاة لم تجر حسب المراتب الدينية والترتيب السلمي ، ولو ان الخليفة اتبع هذا النظام لاناب عنه الخليفة علي الحلو وهو الذي يليه في المرتبة ، غير ان ذلك قد يعني مكانة سياسية معينة وقد يحتج به الحلو

على غيره ، فقد سبق ان احتج بعض المسلمين في معرض احتجاجهم بأحقية ابى بكر بالخلافة بإنابة الرسول له في امامة الصلاة أثناء مرضه كما سبق للمهدى ايضا ان اوكل الخليفة عبدالله ليؤم المسلمين في الجمعة السالفة لوفاته ، ولكن الخليفة تفادى كل ذلك بأن أناب عنه هؤلاء العلماء الذين لم يكن لهم لون سياسي •

وبجانب المسجد الكبير وجامع الصفيح كانت هناك مساجد اخرى صغيرة كمسجد الجهادية في الكارة (طابية ام درمان القديمة) ومسجد الهجرة في شمال المدينة ومسجد الحرم الذي انشىء لحريم المهدى • ان هذا المسجد ، او جامع الخليفة كما يسمى الان ، ما زال يحتل مكانــا عظيما ، اذ ما زالت تقام فيه الاحتفالات الكبيرة كاحتفال المولد النبوي • وقد احتفل السودانيون باتفاقية الاستقلال شعبيا في هذا الموضع كما ان ضباط العهد الماضي قد احتفلوا فيه بالعيد الاول لانقلابهم •

وكان بغربي جامع الصفيح كر القضاة اي حاجز القضاة ، وهو مقر محكمة الاسلام، ولما بنى المسجد انتقلت المحكمة الى شمال غرب المحراب، ولهذا جاز لبعضهم ان يشير الى قضاة هذه المحكمة بعلمــاء المحــراب الصادقين في المهدية • وكانت محكمة الاسلام مكونة مــن عشرة قضاة يرأسهم قاضي الاسلام وتصدر احكامها بالتداول بين الاعضاء ، وكانــت المحكمة تعقد جلساتها علنا في الصباح وبعد صلاة العصر من كل يــوم ويقوم قاضي الاسلام بعرض القضايا التي نظرت فيها المحكمة والاحكام التي اصدرتها على الخليفة عبدالله • وكانت هذه المحكمة تنظــر في كــل القضايا ما عدا قضايا السوق ، فان لها محكمة خاصة • وكان من اشهر قضاة الاسلام احمد علي والحسين ابراهيم زهرا • وفي اواخر ايــــام الخليفة انخفضت مكانة قاضي الاسلام ولم يعد له ذلك البريق اللامــع الذي كان له في الايام الاولى • اما محكمة السوق فكانت تنظـــر في منازعات السوق ومشاكلها كالموازين والمكاييل ومشاكل العملة وأنظمــة السوق وما الى ذلك •

القبــة :

والى الشرق من المسجد الكبير وملحقاته كان بيت المهدى ، وكان عبارة عن حجرة مبنية بالطين ، وهو اول بناء في المدينة . ولما توفى المهدي دفنه الانصار في نفس الموضع ثم بنى الخليفة عبد الله فوقه قبة المهدى المشهورة . وقد بدىء في حفر أساس القبة يوم الاربعاء الثاني من ربيع الاول سنة ١٣٠٦ وكان ذلك بمحضر الخليفة عبد الله والخلفاء والقضاة والامراء وجمهرة الانصار . وقد بدأ الخليفة عبد الله الحفــر بنفسه ، ويذكر صاحب المستهدى ان الحفر استمر الى التاسع من نفس الشهر ، وفي هذا اليوم أي الاربعاء ٩ ربيع الثاني ، وضع الخليفة الحجر الاول الى التاسع ثم تبعه الخلفاء والامراء والعلماء وعامة الانصار . وكـــان اساسه يبلغ خمسة أذرع عرضا وأربعة أذرع عمقا . وبعد بروز الاساس فوق الارض كان عرضه ٣½ ذراعــا ، وقد صعد البناء على هذا المقدار . وكان أساسه حتى فوق سطح الارض بالحجر ثم بنى فوقه بالطـــوب الاحمر . وبدا البناء مربع الزوايا ، وكان مقدار كل جانب منه ١٧ ذراعا . وبعد ان بلغ ارتفاعه ١٤ ذراعا ، صار البناء مثمنا اي بثمانية جوانب وقد ارتفع البناء على هذا الشكل خمسة اذرع ، ثم بدأ بعدها التدوير . وقد بلغ ارتفاعه حتى العقد والتمام ١٤ ذراعا ، وهكذا استوفى ارتفاع القبة خمسين ذراعا . وكان في علوها هلال ومن وسط الهلال يرتفـع رأس حربة كبيرة . وكان للقبة بابان بنيا بالحجر المنحوت ، احدهما بجهـــة الجنوب والاخر بجهة الشمال ، ولها ثمانية شبابيك ، في كل جهة مـــن الجهات الاربعة شباكان ، ولها ثمانية مناور بيضاوية في محلات التثمين ، اي في كل واجهة من الواجهات الثمانية منور واحد . وفي داخل القبــة يقع ضريح الامام المهدي وهو على بعد اربعة اذرع من الجدار الغربـــي وثمانية اذرع من الجدار الشرقي وخمسة أذرع من الجدار الجنوبـــي واربعة اذرع من الجدار الشمالي . وقد طليت القبة بالجير الابيـــض اللامع ليكون له بريق في النهار والليالي المقمرة بينما لا يطويه ظـــلام الليالي . وحول القبة شيد سور عظيم ، وكان للسور بابان يفتحان ايام

الجمعة للزيارة. وقد كان للقبة مقام عظيم في نفوس الانصار اذ كانوا ـ وما زالوا ينظرون اليهـا بالاجلال والاحترام ويشدون الرحال للتبـرك بها . وقد قال شاعر الانصار في قصيدة طويلة معتزا بالقبة :

سمت قبـة المهدى مجـدا وسؤددا
ونيطت بها الجوزاء عقـدا منضـدا
وصيغ من الاكليـل تـاج لهامهـا
وسـال بهـا نهـر المجـرة مزبـدا

ولكن ليس صوابا ذلك الذي يقال بأن زيارة القبة قـد أصبحـت بديلا للحج وزيارة قبر الرسول ، وانما الصواب ان الامام قدم فريضـة الجهاد على فريضة الحج لاسباب وقتية ، بل ان لقب الحاج كان لقبـا يعتز به في فترة المهدية . وقد ظل أمير مهم كأبى قرجة يحمل هذا اللقـب حتى في المكاتبات الرسمية .

وبالقرب من القبة كان الحرم وهو بناء شيده الخليفة عبدالله لنساء الامام المهدى واولاده . وكان لهم كما سبق أن قلنا مسجد خاص للصلاة ويتلى فيه الراتب على الدوام . وقد اوقف الخليفة على الحرم مرتبا قدره الف ريال في الشهر . والى الشمال الغربي من الحرم كانت مساكن بعض الاشراف غير انهم رحلوا من هذا الموضع الى ود نوباوى بعد الخـلاف الذي نشب بينهم وبين الخليفة ، وقد صارت منطقة ود نوباوى مركز ثقل بالنسبة للاشراف ، وهي كذلك الى هذا اليوم . والى الشمال الشرقي من الحرم كان منزل الخليفة شريف والى الجنوب من القبة كـان المقـر الرسمي للخليفة عبدالله ، وهو بنـاء يتكون من طابقين وقد حـول الان الى متحف . وقد أنشأ الخليفة دوره الارضي في سنة ١٨٨٧ ثم بنى فوقه الدور الثاني في سنة ١٨٩١ . ويتكون البيت من عدة حيشان أو أجـزاء محاطة بسور من الطوب الاحمر ومتصلة ببعضها البعض ، ويقع جناح الخليفة الى جوار المسجد ويشرف الدور الثاني منه على المصلين والى الاحياء الشمالية التي كانت تقلق باب الخليفة . وبشرقي جناح الخليفة

كان جناح الحريم ، وهناك اجزاء اخرى كالمخزن وغيره • وقد وصف سلاطين منزل الخليفة وصفا مفصلا في كتابه السيف والنار كما أن المنزل نفسه باق اليوم كما كان العهد به • والى الشرق من بيت الخليفة كان منزل ابنه الكبير شيخ الدين الذي كان يقود فرق الملازمين ومرشحا للخلافة من بعده • وبجنوب الجامع كانت منازل القضاة وكتبة الخليفة عبد الله • أما منزل الامير يعقوب فكان الى جنوبي هذه المنازل ثم أنشأ منزلا جديدا الى الغرب من هذه البقعة • وكانت التكية التي أنشأها المهدى للمكفوفين والمقعدين ملحقة بهذا المنزل • وكان بجوار منزل يعقوب ايضا المدرسة الوحيدة التي انشأتها دولة المهدية • اذ كان التعليم في المجتمع السوداني التقليدي عملا يقوم به الفقهاء تطوعا وخدمة للدين والعلم • أما مدرسة المهدية هذه فكانت فوق مستوى الخلاوي واشترط لدخولها حفظ القرآن • وكان يدرس فيها الحساب بجانب العلوم الدينية • ومن أوائل الذين درسوا فيها عثمان فريد جد اللواء بالمعاش طلعت فريد • وكان يلتحق بها اولاد الخليفة واولاد المهدى وعلية القوم وأيتام الامراء ، وضمن هؤلاء الامير اسماعيل احمد وهارون ابن محمد • وقد التحق بها ايضا بعض صبيان الحبشة الذين أسروا في واقعة القلابات • وقد اشتهر منهم اثنان هما عبد الحميد ابو أصبع ورابح أبو داكابا الذي استشهد في كررى •

وبجانب هذه المواضع كانت هناك مصالح عامة كثيرة ، اولها بيت المال العمومي وهو يوازي في الوقت الحاضر وزارة المالية ومخازن الدولة • وكان موضعه بالقرب من النهر وهو من الدور المهمة التي تقع خارج المنطقة المسورة، وقد صار بناؤه بالقرب من النيل ليسهل نقل البضائع الواردة بالطريق النهري • وكان البناء عبارة عن حوش كبير من الطوب الاحمر ومقسم من الداخل الى عدة حيشان • وكان من اهم اقسام بيت المال مصنع العملة • والى الجنوب من بيت المال العمومي كان سوق الرقيق وهو عبارة عن بناء شيد بالطوب الاحمر ، وقد حظر الخليفة بيع الذكور من الرقيق الا للدولة بينما حظر الاقتناص حظرا باتا • وكان

بالقرب من بيت المال العمومي بيت مال الملازمين ومنازل كتبة بيت المال وأمنائه ٠

وكان بالجانب الشمالي من المنطقة المسورة حي الملازمين وهم حرس الخليفة الخاص وقد ارتفع عدد الملازمين ارتفاعا ضخما وصاروا قوة ضارية يعتمد عليهم الخليفة اعتمادا كبيرا ٠ وقد جعل قيادتهم لابنه عثمان شيخ الدين ليكون ولاؤهم له ولاءا مباشرا وكان للملازمين بيت مال خاص ومخزن خاص للسلاح ويفصل بين حي الملازمين والجزء الباقي من المنطقة المسورة سور من الطين يسير من الشرق الى الغرب وقد بلغ طول حي الملازمين نحو ١٥٠٠ ياردة وعرضه نحو ٩٠٠ ياردة ٠

وكان من المواضع المهمة بيت الامانة وهو مخزن كبير للسلاح والذخيرة ٠ ولم يكن مسموحا لغير ملازمي الخليفة بحمل السلاح الا في العرضة او التوجه للجهاد ٠ وقد صار بيت الامانة الان دارا لرياضة كرة القدم ٠ والى الشمال من بيت الامانة كان هناك مبنى صغير ذو شكل دائري وارتفاعه يبلغ نحو ٢٠ قدما وقد حفظ فيه الخليفة رايات الجيش وطبوله ٠ والى الشرق من ذلك كان مصنع الذخيرة والاسلحة الخفيفة ٠ ولا يفوت على فطنة القارىء موضع هذه المصالح الحساسة فهي في القطاع الجنوبي الذي ترتكز فيه عصبية الخليفة عبدالله والذي قد يلجأ اليه الخليفة عند الضرورة فيجد فيه السلاح والبيارق والطبول فضلا عن الرجال الموالين له ٠

وكان من المصالح المهمة السجن ، وهو يعرف بالساير نسبة الى ادريس الساير الذي كان أمير السجن ٠ وكان السجن عبارة عن حوش كبير يقع قرب النهر في القطاع الشمالي من المدينة وقد أقيمت بداخله عدة حجرات صغيرة ٠ وكان يؤذن لنزلاء السجن بالاقامة في الحوش أثناء النهار اما في الليل فكان عليهم ان يكونوا في الحجرات ٠ وكان على أهل المسجون ان يدبروا مأكله ومشربه لان الدولة لم تكن تقدم لهم الطعام ٠ وقد وصف ابراهيم فوزي في كتابه السودان بين يدي غردون

وكتشنر الحياة في داخل السجن وصفا مستفيضا ونقل الينا بعض الصور الحية • وبالرغم من ان المهدى كان يرمي الى ان يكون السجن كفارة للخطايا وطريقا للخلاص منها ودلالة الى الله ومنع استغلال السجناء أو الاساءة اليهم ووجه الساير الى قيادتهم الى الاستقامة • فان الصور التي بلغتنا عن هذا السجن تجعله أبعد ما يكون عن الانسانية ، ويكفي ان رجالا مهمين من امثال احمد على قاضي الاسلام والزاكي طمل الذي قاد الانصار في واقعة القلابات وانتصر على الحبشة قد ماتوا في هذا السجن جوعا وعطشا •

ان المصلحة الوحيدة التي بقيت في مدينة الخرطوم بالرغم مما بلغها من الخراب هي الترسانة وقد نقلها الانصار من موضعها القديم الى الكنيسة الكاثوليكية • وكان هناك خط تلغرافي يربط بينها وبين بيت الخليفة • ونذكر بهذه المناسبة ان شبكة التلغراف كانت تربط منزل الخليفة بالترسانة هذه وبكارة الجهادية بجنوب المدينة وبيت المال العمومي والنقطة المقامة في منطقة الخرطوم بحري •

لا تفيدنا المصادر التي وقفنا عليها باحصائيات دقيقة او ببيانات تفصيلية عن التكوين البشري لمدينة ام درمان في فترة المهدية ، وأحسب اننا نفتقر الى ذلك الى ما قبل يومنا هذا بسنوات ، وكل ما نعرفه عن طوائف الناس وتحركاتهم وتجمعاتهم وما كان لهم من النفوذ والسلطان والتقسيمات البشرية وعدد سكان المدينة لا يتعدى ما نحصل عليه بالاستنتاج من تحركات الجيش من والي المدينة وبعض التحركات الكبيرة كمجيء القبائل الغربية وبعض تقديرات عن السكان يرويها الرواة وتنقلها عنهم تقارير المخابرات المصرية التي كانت ترصد أحوال السودان وهي تقديرات مصدرها التخمين ويشوبها الاضطراب والتناقض الشديد •

ومن المحقق ان كل الذين اشتركوا في حصار مدينة الخرطوم لم ينتقلوا الى مدينة ام درمان ، او بالاحرى معسكر الهجرة في ام درمان ، بل عادت الجماعات القبلية التي استقرت للاشتراك في الحصار الى بلادها

بعد ان تم الفتح مباشرة ، وهكذا قدر لمدينة ام درمان ان تبدأ عهدها الزاهر كمعسكر للقوات المسلحة او ما يسمى بالجيش العامل ، وبعد قليل من بدء المعسكر خرجت قوات كبيرة الى الاقاليم المختلفة وبالتالي انخفض عدد سكان المدينة . وقد توجه أمير الامراء عبد الرحمن النجومي بقوات كبيرة الى الجبهة الشمالية ثم تبعه من خلفه اعوانه الكبار بفرق كثيرة ، وتوجهت قوة كبيرة بقيادة الامير حمدان ابو عنجة الى جبال النوبة بينما خرجت قوة اخرى كبيرة بقيادة محمد عبد الكريم لمحاصرة سنار . وقد قام المعسكر على من تبقى من قوات الجيش وعدد قليل من المدنيين من اصحاب الحرف والصناعات والفنون . وكانت الغلبة فيما تبقى للراية الزرقاء التي يقودها الخليفة عبد الله ، اذ بينما خرج من أهل النيل القوات التي توجهت للشمال والقوات التي تولت حصار سنار . لم يخرج من اهل الراية الزرقاء وهم الكثرة الغالبة في الجيش اصلا ، الاقوات حمدان وجماعات من قوات سنار ، وكان هناك جزء كبير من قوات اهل النيل الموالية للاشراف في دار فور بقيادة محمد خالد زقل ، وهي القوات التي فشل الاشراف في الاستعانة بها عندما بدأ النزاع . لان الخليفة قطع عليها الطريق وصفى قيادتها . وقوات اخرى في الابيض يقودها الشريف محمود عبد القادر . ونتيجة لهذا الوضع لم يتمكن الاشراف في نزاعهم الاول مع الخليفة من خلق تهديد حربي ذا أثر او اعداد قوة ضاربة تساند قضيتهم وتقارع قوة الخليفة عبد الله بينما قدر للخليفة عبد الله ان يستعين بقوته العسكرية وان يلوح بها ويتظاهر بمظهر الرجل القادر الذي يملك ان يضرب . ومن الانصاف ان نضيف ان الخليفة كان يتولى الحكم بسند شرعي أقره عليه الاشراف وكان من العسير ان يحتج الاشراف بالطعن في ولايته كما ان الخليفة بحكم منصبه القيادي السابق يمتلك مقدرات حربية وادارية يستطيع تحريكها لصالحه . وعلى أي حال فان محاولات الاجاويد ومناورات الاطراف التي هدفت الى تسوية النزاع قد نجحت قبل ان تستفحل الفتنة وتكون الكلمة للسلاح ، وقد عاد القوم الى الصلح والاتفاق وعاد الهدؤ والطمأنينة لمدينة الامان والسلام .

على ان نزاع الاشراف هذا وتأييد قطاعات كبيرة من أهل النيل لقضيتهم او العطف عليها قد نبه الخليفة الى اهمية الاعتماد على عصبية تؤازره وتتعصب له ، وقد ادى ذلك الى مجيء آلاف كبيرة من اهـــل الغرب الى المدينة واستيطانهم القطاع الجنوبي منها بينما اخرج الدناقلة واهل النيل بصفة عامة من هذا القطاع ورحلوا الى الجانب الشمالي من المدينة ، وهكذا ظهر امتداد جديد للمدينة وصار للمدينة تكوين بشري جديد تتحكم فيه السياسة ودواعي السلطان . ولقد أصبح أهل الغرب من بعد القوة الاساسية التي يعتمد عليها الخليفة وصار عليهم المدار في أمور السياسة والسلطان . بينما تضاءل نفوذ اهل البحر وقد اصبحوا العنصر الغالب وذا النفوذ الواسع في المدينة . وهذا طابع جديد تكتسبه المدينة بفضل مجيء البقارة . ولما اطمأن الخليفة بهم الى ظهره بـــدأ سياسة الوفاق مع القبائل النيلية وأهل الشمال الذين شدد معهم مـــن قبل وقضى على نوازع الفتنة فيه ومن ثم اخذ الصراع السياسي يأخذ طابع التصفية لذوي النفوذ والحول من المقربين الى الخليفة ويحتلـــون المناصب الكبيرة كالقاضي احمد علي والامير الزاكي طمل وابراهيم عدلان والحسين ابراهيم زهرا بعد ان كان طابع الحوادث فيما مضى يأخذ طابعا قبليا واقليميا .

وكان مجيء اهل الغرب سببا من اسباب المجاعة الكبـــرى التي حصدت الناس حصدا ، فهم قد أتوا على مخزون الغلال في المدينـــــة والجزيرة واضحوا عالة على الزراع بينما فقدت البلاد اياديهم القويـــة المنتجة . وكان من أسباب المجاعة العامة ان أمطـــار ١٣٠٦ هـ ١٨٨٨ م كانت شحيحة وكان النيل منخفضا فانخفض الانتاج انخفاضا عظيما ولما جاء العام التالي وأخضرت الارض وعمرت القلوب بالاماني أصـــاب الله عباده بالجراد فأتى على الاخضر واليابس وأصيبت البلاد بقحـــط عام وانتشرت المجاعة تفتك بالناس فتكا وصار ما لاقاه الناس من أهوال مثلا يضرب في البلاء .

وكانت مدينة ام درمان وحدة ادارية قائمة بذاتها ، وكانت تبدأ من

حدودها الشمالية ••• أعني خورشمبات ، ولاية غرب النيل الكبير وهي تمتد شمالا حتى حجر العسل ، وحدود المدينة الجنوبية كانت تبدأ ولاية البحر الابيض وهي تمتد في محازاة النيل جنوبا حتى الترعة الخضراء • ومن الشرق كانت ولاية الخرطوم ، وهي تبدأ من المقرن وتسير بين النيلين حتى مدنى • ثم ولاية شرق النيل الكبير وهي تمتد من النيل الازرق حتى حجر العسل • هذا تقسيم يختلف عن التقسيم الاداري للمنطقة في الوقت الحالي ، فان لكل من الخرطوم وام درمان والخرطوم بحري ادارة خاصة ، وان كانت مشتركة معا في المواصلات العامة ، اما الاقاليم المجاورة لها فهي تتبع لمركز ضواحي الخرطوم • ترى اي التقسيمين أفضل!

وكانت لمدينة ام درمان محكمة خاصة وهي محكمة السوق التي تخصصت في مسائل البيع والشراء ومشاكل الاسواق وكل ما هو واقع تحت سلطات ما يعرف بالمحتسب في النظم الاسلامية أما ما عدا ذلك من القضايا فكانت تنظر في محكمة المسجد • وكان أمن المدينة منوطا بالامير محمد حسين وهبي الذي كان يتركز عمله في السوق والاماكن العامة وكان قوام قوته ٢٥ جهاديا • وبجانب هذه القوة كان هناك المبشرون وهم يكونون ما يعرف الان بأمن الدولة ، وكانت مهمتهم هي البحث عن المشتبه فيهم ورفع التقارير عنهم سواء كانوا سياسيين او ذوي خطورة او كانوا ممن يرتكبون المحظورات العامة كالخمر والتمباك • اما الامن في الاحياء السكنية فكان على مسئولية اهل الحي الذين كانوا يتولون الحرأسة ليلا • وكان العهد بالمحلات التجارية في السوق انها تقفل عند الغروب فيغدو السرق مهجورا الا من الجهادية الذين يتولون حراستها وبذلك تسهل حراسة الموضع وتقل هجمات اللصوص • وكان محظورا على الناس أن يوقدوا النار في السوق او ان يحملوا المشاعل ، وما ذلك الا للخوف من اندلاع الحرائق ولعلهم كانوا يعلمون ان مستعظم النار من مستصغر الشرر • وفي الايام الاولى من عمر المدينة كان على التجار ان يقفلوا محلاتهم في ايام الجمع ولكن سمح لهم فيما بعد باستئناف المعاملات بعد صلاة الجمعة •

وكما سبق ان ذكرنا في موضع سابق فان الامام المهدى كان قد أمم بعض ما ينتج مصالح المسلمين كالعصاصير والوكالات والغابات وحدائق الميرى وأطيان الاجانب • وقد شمل التأميم فيما شمل المشارع ، فانها قد اصبحت مصلحة عامة يدخل ريعها بيت المال ويصرف منه في المصالح ، وانما فعل الامام المهدي ذلك لان المشرع سبيل يرتاده كل الناس ولانه اداة هامة عند نقل الجيوش والمؤن ، وهذا من قبيل سبل المواصلات العامة التي تملكها الدولة الان كالسكك الحديدية والخطوط الجوية والبواخر النيلية والاسطول التجاري ومواصلات العاصمة • ترى هل بعدنا كثيرا ؟ وكان لعهد بالمشارع انها تؤجر للناس مقابل ربط سنوي يدفعه المستأجر لبيت المال ، وقد بلغ ايجار مشرع المقرن في سنة ١٨٩٠ نحو الف ريال بينما بلغ ايراد مشرع الشرق ، وهو يمتد من توتى الى حجر العسل ، نحو ١٠ آلاف ريال ، اما مشرع البحر الابيض ، وهو يمتد من ام درمان حتى الدويم فكان يدر نحو خمسة آلاف ريال ، وقد قدر مجموع ما درته المشارع لبيت المال في هذه السنة نحو ٨٤ الف ريال •

ومن المصالح العامة التي احتكرتها الدولة صناعة الصابون والاسلحة وسك العملة والصناعات الخفيفة المتصلة بالمجهود الحربي كالسيوف والحراب والصناعات الجلدية كالزوامل وما اليها • وقد راجت تجارة هذه الاصناف رواجا عظيما • وقد شيد الخليفة مصنعا للصابون وأوكل دارته للتجار مقابل ٥٠٠ ريال في الشهر ثم شيد مصنعا آخر • اما البارود فكان يصنع في مصنع شيد بالحلفاية ، وكان يدير هذا المصنع حسن شركس الذي كان يتولى هذه الصناعة لسلاطين الفور • اما مصنع الخرطوش فكان في ام درمان وكان هناك مخزن كبير للبارود في جزيرة توتى ، وقد اجتهد الخليفة في الحصول على الاسلحة والمحافظة عليها اجتهادا عظيما فقلل من الاستهلاك وناظره مناظرة شديدة بينما اجتهد في تهريبه من مصر والحجاز عن طريق البحر الاحمر • وفي الداخل جرت محاولات كثيرة لصناعة البارود والرصاص، وكان الصنف الاخير يستورد من منطقة كتم ، اما البارود فقد وفقوا اليه وإن كان النوع الذي انتجوه

نوعا رديئا • ويقال ان انتاج البارود في سنة ١٨٩٠ قد بلغ ١٠ قناطير في الشهر وان انتاج الخرطوش بلغ مائة صندوق • ومن طريف ما يذكر ان الامير الحسن سعد العبادي الذي كان مكلفا من قبل الخليفة بنشر دعوة المهدية في الحجاز وبتهريب السلاح الى الداخل أرسل الى الخليفة كمية من ملح الطعام الذي تنتجه ملاحات البحر الاحمر ليستعين به في صنع البارود لما بلغه ان السفن الانجليزية تحمله الى اوربا ليصنع منه البارود• وكان من الصناعات التي لها رواج عظيم صناعة السيوف والحراب والصناعات الجلدية المتصلة بالحرب ، ولا بد لرجل يحترف التوثيق من ان يشير الى صناعة الدفاتر وتجليد الكتب واغماد السيوف والكبك ، وهو كيس يحفظ فيه الكتاب كما يحفظ السيف في الغمد ، قد بلغت درجة عالية من الاتقان وان كان يؤخذ عليها استعمال دقيق القمح بكثرة لان ذلك يغري الحشرات بالهجوم ويقدم لها طعاما شهيا فتفتك بالكتاب فتكا ذريعا •

وقد اجتمع في المدينة كل فنون المعمار التقليدي ، وكانت السمة البارزة في انماطه المختلفة التمسك بالحوش سواء كان المبنى منزلا خاصا او مصلحة من المصالح العامة ، وحتى المسجد الكبير فانه كان عبارة عن حوش كبير بل ان منزل الخليفة نفسه كان يتكون من عدة احواش • اما الانماط فهي الكرنك وهو بناء من القش وسقفه مصنوع على شكل ظهر ثور كبير ، ثم الدانقه وهي الحجرة المشيدة بالجالوص ولها طاقات مقفولة وفتحة كبيرة عالية لا باب لها ، وكانت هناك القطية وهي بناء اسطواني صغير ثم كانت الراكوبة وهي تشيد بأعمدة من خشب وعليها شكاب او جلد او قش ولها فتحات بالجوانب • على انه كانت هناك بالمدينة اعمال هندسية عظيمة كقبة الامام المهدى وبيت الخليفة وبعض اجزاء المسجد ، وقد تولى تخطيطها وبناءها مهندسون محترفون نذكر منهم اسماعيل حسن الذي اشرف على تخطيط القبة وبنائها وعلى بناء معسكر القلابات ومحمد حمد حسن وحامد النور وبترو ، والمهندسان الاخيران توليا بناء منزل الخليفة ويبدو ان اعمال المهندسين قد توسعت

واكتسبت أهمية كبيرة بفضل العمل في سور المدينة وبناء الطوابي المنبثة حول المدينة وقد وجدت في وثائق مخزن الورق اشارة الى ما يسمى بمصلحة العمارة ، وتدل كميات الورق التي كانت تصرف لها على أن اعمالها كانت واسعة كما ان انجازاتها الباقية تدل على اجتهاد القائمين بأمرها •

كانت مدينة ام درمان المدينة التجارية الاولى في عصر المهدية كما كانت الخرطوم اولى مدن السودان التجارية في العصر التركي ، غير ان التجارة لم تكن مزدهرة في المهدية ولم يكن للتجار ورجال المال ذلك النفوذ العظيم الذي تمتعوا به في العصر الغابر ، فقد كان مجتمع المهدية متصرفا بكلياته للجهاد والتقشف في الحياة ، وقد تدخلت الدولة في التجارة فاحتكرت انواعا من البضائع كالصمغ وحددت تجارة انواع معينة كالرقيق الذي منع اقتناصه في الداخل وحظر تصديره للخارج بينما صار على التجار ان يبيعوا الذكور من الرقيق لبيت المال وحده • وبتقلص تجارة الرقيق انتهى طغيان تجار الرقيق سواء كانوا من الاجانب او الوطنيين وبالنسبة الى تدهور الحياة المدنية واضطراب المعائش لم يكن للسلع المستوردة طلب كبير كما ان المعروض من السلع المحلية لم يكن وافرا لانشغال الناس بالجهاد • وكانت الاهواء السياسية تلعب دورا كبيرا في الركود التجاري لالتجاء الخليفة والحكومة المصرية الى قفل ابواب التجارة من وقت لاخر لاسباب سياسية او حربية ، وقد تضرر التجار كثيرا من الغلو في تقدير ما يفرض على سلعهم من العشور كما تضرروا احيانا من فرضها عليهم في كل اقليم يحلون به • ثم كان هناك اضطراب الامن والخطر الذي يحيق بالتجار اذا هبت عاصفة من عواصف السياسة وعصفت بهم وبأموالهم •

وقد ارتبطت التجارة مع الخارج بمسائل اخرى ربما كانت اهم شأنا في نظر الخليفة وامرائه وهي التجسس على الاعداء والوقوف على احوالهم اما بارسال الجواسيس تحت ستار التجارة واما بما يرويه

التجار العائدون ، ثم كان هناك تهريب المهمات الحربية كالبنادق والرصاص والكبريت والنحاس ، وقد اهتم الانصار بهذا النوع من النشاط وتولى أمراء أطراف البلاد تنظيم العملاء وتهريب المعدات الحربية الى الداخل وقد أعلن الامير مساعد قيدوم عندما كان يتولى قيادة كسلا انه حصل عن طريق أحد التجار المتعاونين معه في التهريب على كمية كبيرة من الكبريت وانه على وشك الحصول على كميات من الرصاص ، وكان من اهم مهام الامير حسن سعد العبادي في اقليم حلايب تهريب السلاح والمعدات الحربية من مصر والحجاز ، وكذلك فعل امراء الشمال .

وكانت مدينة أم درمان تزدان بأبهى حللها في المواسم الدينية فترفع الرايات ويستعرض الجيش وتدق الطبول ويخرج الخليفة في موكبه العظيم ، وكانت الاعياد التي يحتفل بها الانصار اربعة هي المولد النبوي وعيد الرجبية وهو يوافق ٢٧ رجب ثم العيدان ، عيد الفطر وعيد الاضحى وكان العيد الاخير هو اهم الاعياد لان المدينة كانت تستقبل اعدادا هائلة من القادمين اليها للزيارة او تلبية لطلب الخليفة ، وكان الخليفة عادة يطلب أمراء الاقاليم وقادتها في هذا العيد لتجديد الولاء ولاستعراض المشاكل ووضع الحلول لها كما انه كان يستنفر القبائل التي يشك في ولائها ويجبرها على القدوم الى المدينة واعلان الطاعة له . وقد ردد البعض ان الخليفة جعل زيارة القبة في هذا الموسم عوضا عن الحج وزيارة قبر الرسول وهذا محض افتراء وقد سبق ان بينا موضع ذلك في مكان سابق .

وكان من المواسم المهمة العرضة اي العرض الاسبوعي للجيش ، وكانت العرضة تقام يوم الجمعة في موضع بغرب المدينة يقال له العرضة وكانت العادة في عهد الامام المهدي ان تتجمع الرايات خلف الامام المهدى فيسير بها الى مكان العرضة ويقبل الجيش على الاستعراض وعلى التدريب وكان محظورا على المجاهدين اطلاق السلاح الناري داخل المدينة اثناء المسير او ركوب الخيل حيث يكون الزحام ، وفي عهد

الخليفة عبد الله تغير نظام العرضة بعض الشيء ، اذ أن الخليفة كان يذهب لاستعراض الجيش بعد ان تنتظم راياته في العرضة ، وقد عدل الخليفة عن حضور العرض الاسبوعي وصار يتولى ذلك بالنيابة عنه أخوه الامير يعقوب بن محمد كبير امراء الراية الزرقاء وساعده الايمن او أخوه السنوسي أحمد . أما العرضات السنوية فكان يحضرها الخليفة بنفسه وقد سبق ان ذكرنا في موضع سابق أن الخليفة كان ينيب عنه في أمامة الصلاة بعض رجال الدين ممن لم يكن لهم لون سياسي متفاديا بذلك مشكلات الخلافة واحتمالات ولاية العهد ، أما هنا فانه ينيب عنه أمير امراء أكبر الرايا ت والذي هو في نفس الوقت أخوه ويده اليمنى وأمير رايته أو أخاه الثاني السنوسي احمد ، وليس في ذلك حرج لان استعراض الجيش أمر تنظيمي بحت ولا يتصل بولاية العهد بسبب .

وكان الخليفة في اول عهده يستعمل في مواكبه مركبات الحكمدارية الثلاث التي غنمها الانصار عند سقوط الخرطوم ولكنه ابطل هذه العادة وصار يركب جملا أو حصانا ، والغرض من ذلك لا يخفي ، فان ركوب الحصان أو الجمل يجعل صاحبه في موضع أعلى علاوة على ما في ذلك من رونق وأبهة ، وذلك بعكس المركبة فان الخليفة يكون فيها قاعدا لا راكبا كما في حالة الجمل أو الحصان ، ويكون في موضع أدنى من الراكب على دابة ، ولربما لهذا السبب نفسه يستعمل الحكام الان العربات المكشوفة ذات الارتفاع ليطلوا منها على الجماهير ويلهبوها حماسا بعد ان كانوا يسيرون في عربات مقفولة ويلوحون منها بالايدي فلا يراهم الراكب أو الواقف الا أذا انخفض ، وانما كان الخليفة يركب الحصان أو الجمل في المواكب الرسمية أما في روحاته وغدواته العادية فكان يركب حمارا .

وكان اذا خرج الخليفة في موكب رسمي تبعه كبار القوم من الخلفاء والامراء والاقرباء والمقربين ثم يسير خلفه الملازمون في أعداد كبيرة ويسير امامه محمد ود بشير كرار قائد هجانة البريد وهو يمسك

بيده اليمنى حربة كبيرة بينما يمسك بيسراه سيفا ضخما يتدلى من شماله • ويبدأ الموكب مسيره من بيت الخليفة ويسير في بطء شديد مخترقا سكة العرضة وعندما يبلغ الموكب الموضع المعد له يكون الانصار قد فرغوا من تدريباتهم ثم اصطفوا في صفوف منتظمة رافعين الاعلام ذات الالوان المختلفة ، فيأخذ موضعه وهو راكب على دابته ويمر الانصار أمامه في اتجاه المدينة آيبين، وتأتي في المقدمة الراية الزرقاء تتقدمها الطبول محمولة على الجمال وهي تدق بعنف شديد ثم تليها الراية الخضراء راية الخليفة علي الحلو ، ثم الراية الصفراء راية الخليفة شريف ، والرايتان الاخيرتان لا تتقدمهما الطبول •

وبعد أن يمر الجيش ينزل الخليفة من دابته ويدخل زريبة الهجرة التي أعدت لراحته ويقعد فيها بعض الوقت ثم يعود بموكبه ذاك آيبا الى بيته •

وكان من المواكب المهمة ذلك الذي يقام عند خروج جيش كبير الى اقليم من الاقاليم فعندما يشير الخليفة على أمير بالتحرك تصرف الرايات والسلاح من بيت الامانة وتوزع على الجيش ويقوم كاتب الامير بصرف أدوات الكتابة بينما يقوم وكيل الجيش بترتيب الزوامل والمؤن، وعندما تكمل الاستعدادات ويستعد الجيش للسفر يتحرك الى أماكن الهجرة المعلومة وتضرب أعلامها فيها ، فاذا كانت للشرق عسكرت في القبة ، اي قبة الشيخ خوجلي ، واذا كانت للشمال عسكرت في الهجرة في الطرف الشمالي من المدينة واذا كانت للجنوب او الغرب عسكرت في شجرة المهدية ، ثم يخرج الخليفة في موكبه الذي وصفناه ومعه قائد الجيش حتى المعسكر فيودع الجيش وقائده ويبارك مسعاه في الجهاد ، واذا قدم جيش كبير أو أمير مهم كان يستقبله الخليفة بعرض كبير خارج المدينة ثم يدخل المدينة بموكبه وهو يصحب معه قائد الجيش •

ولقد قدر عدد القوات المرابطة في أم درمان في سنة ١٨٩٠ بثمانية

آلاف رجل منهم ثلاثة آلاف جهادي أسود والباقون من أولاد العرب،وكان عند الخليفة من السلاح نحو ٢١ ألف بندقية منها ١٢ ألف رمنجتون ٣٦ مدفع منها ٣٢ مدفع جبلي وأربعة صواريخ ، وكان عنده ألفان من الجمال وألفان من الخيول • اما في سنة ١٨٩٥ فان وضع الجيش قد تغير بشكل ظاهر لان فرقة الملازمين قد ارتفعت الى ٩ آلاف مجاهد بعد ان كانت قوة صغيرة ، وقد بلغ السود في هذه الفرقة نحو أربعة آلاف بينما بلغ أولاد العرب خمسة آلاف وكان فيهم نحو ٤٠٠ فارس • وبعكس ما اتبع في رايات الجيش الرئيسية التي روعيت فيها الاعتبارات القبلية والاقليمية فان فرقة الملازمين قد جاءت خالية من النعرة القبلية او التحزب الاقليمي وخالصة الولاء للخليفة عبدالله وقد أعطى الخليفة قيادتها لابنه البكر عثمان شيخ الدين واختط لها مكانا معينا داخل السور الكبير ، أما جهادية الكارة فان عددهم قد بلغ ثلاثة آلاف وكان منهم ستون فارسا يركبون الخيل •

وقد بلغ الخيالةالعربفي نفس السنة ٢٩٥٠فارسا كانمنهم٤٠٠يتبعون راية الخليفة على الحلو ، وقد اشتهر فرسان هذه الراية شهرة عظيمة وبرز منهم الامير.جار النبي الذي اعدم لتجاهره بمخالفة الخليفة على وتحديه ، وقد ارسل عدد كبير من خيالة هذه الراية الى شرق السودان وبذلك ضعفت قوة الراية في العاصمة وصار ميزانها في السياسة قليلا •

وكان يقيم في المدينة نحو ٥٥٠ من فرسان الراية الزرقاء اقامة دائمة ولا يسمح لهم بالابتعاد عنها بقدر يزيد عن المسافة التي يقطعها الخيل في يوم واحد وبالطبع فان الغرض من ذلك هو الابقاء على قوة من الفرسان في مقر الخلافة لدرء الاخطار المفاجئة ، أما الخيول الباقية فكانت ترسل الى الجزيرة لترعى •

أما الجمال فقد بلغ عددها في هذه السنة نحو ٦٣٥٠ جملا منها نحو ٦٠٥٠ جملا يملكها الاهالي ولكنها تحت تصرف الخليفة ونحو ٢٥٠ جملا يتبع الامير يعقوب بن محمد وخمسون جملا يتبع الامير

محمد ود كرار بشير قائد البريد ، وكان يخصص للبريد أجود الجمال واسرعها كما أنهم كانوا يختارون للبريد أزكى الرجال لان رجال البريد كانوا بالاضافة الى حمل البريد يقومون بمراقبة أحوال الاقاليم ويرفعون التقارير عن الامراء والعمال ، أما الحرابة وهم عامة المشاة الذين يحاربون بالحراب فقد قدر عددهم بأربعين ألفا منهم ٨ آلاف في الرايـة الخضراء والباقون في الراية الزرقاء •

أما الراية الصفراء فقد ضعفت الى حد بعيد • وفي موسم الزراعة كان الخليفة يكتفي بنحو عشرة آلاف من الحرابة ليقيموا في المدينة بينما يخرج الباقون الى الاقاليم للزراعة •

أما في معركة كررى فقد قدر عدد الانصار الذين اشتركـوا في الواقعة بنحو ٥١٫٥٠٠ مجاهد كما قدر الامراء بنحو ٨٦ أميرا كبـيرا و ٣٧٦ أميرا صغيرا ، ويقال أن الخيول التي اشتركت في الواقعة بلغـت نحو ٥٫٥٠٠ وان السـلاح بلغ نحـو ١٤ ألف بندقية بخلاف المدافـع والسيوف والحراب وقد استشهد من الانصار في تلك الواقعة نحو عشرة آلاف منهم ٦٨ من الامراء وكان على رأسهم الامير يعقوب بن محمد •

وقد تقدم في مكان سابق أمر السور العظيم الذي أحاط بـه الخليفة مقر السلطة والحكم ، وقد كان ذلك السور بمثابة استحكـام قصد به الوقاية من الاضطرابات الداخلية والمخاطر الخارجية عـلى السواء • ولما تقدمت القوات المصرية والانجليزية المشتركة الى الداخـل بعد أن انتصرت على قوات الخليفة في فركة ودنقلا اهتم الخليفة بامكانيات الدفاع عن المدينة وقوى استحكاماتها • وكان قوام هذه الاستحكامـات نقطة للمراقبة في قرية كررى و ١٧ طابية في أم درمان والخرطوم والخرطوم بحري وسبع طواب في السبلوقة وقد شيدت طوابي السبلوقة لمنـع عبور البواخر الحربية جنوبا الى المدينة ولكنها اخليت فيما بعد ولم يقدر لهـا ان تلعب دورا في مسير معركة أم درمان •

أما الطوابي الاخرى فكانت هناك طابيتان في الخرطوم أحداهمـا

بالقرب من السراي والاخرى في المقرن ، وكانت الطابيتان تحت قيادة الرشيد كرومة ، وكانت هناك طابيتان بالشرق احداهما في شمبات والاخرى في الصبابى وقد تولى قيادتهما محمد علي فايت والغالي جودة ثم طابيتان في توتى تحت قيادة عبد الجبار برتى ، أما طوابى مدينة أم درمان نفسها فكانت احدى عشرة وهي : طابية الساير ويقودها ادريس الساير السجان وطابية قصاد بيت المال بقيادة محمد عبدالله وطابية باب عبد القيوم ويقودها عبد القيوم الصغير والطابية العلوية وطابية الباب الكبير وطابية ثالثة قرب سوق الصمغ ويقودها كلها العريفي الربيع وطابية المواليد وطابية ثانية يقودها الشريف حميدان وطابية في خورشمبات يقودها شخص يدعى عبدالرازق وطابية يقودها حاج علي ثم طابية حاجب عثمان . لقد شيد الخليفة هذه الطوابي للدفاع عن أم درمان ولكنها لم تكن ذات فائدة كبيرة لان مدافع بواخر الجيش الغازي قد اسكتتها بفضل التفوق ولان واقعة أم درمان نفسها وقعت خارج المدينة ومن الطريف ان الامير محمود أحمد قائد الانصار في واقعة عطبرة قد أوصى الخليفة بالا يشيد طوابيه بالحجر أو الطوب لان مقذوف المدافع يهدم ما يبني بهما ويدكه دكا واقترح عليه أن يكون الاستحكام بالتراب لان المقذوف لا يندفع في داخله .

بهزيمة القوات التي أرسلها الخليفة عبدالله بقيادة الامير محمود ود احمد لصد حملة الفتح القادمة في ابريل ١٨٩٨ في واقعة عطبرة أصبح طريق الحملة الى العاصمة أم درمان ممهدا ، وقد بدأ كتشنر باشا سردار الجيش المصري وقائد الحملة يعد العدة للخطوة القادمة واللقاء الحاسم بينه وبين الخليفة عبدالله وأبدت الدولتان المصرية والانجليزية عطفا عظيما لكل ما طلبه . لقد حصل كتشنر على قوات اضافية عززت جيشه وبلغ رجاله عندما بدأ التحرك جنوبا نحو ٢٥٫٨٠٠ رجلا منهم نحو الثلث من الانجليز كما حصل على عدد من البواخر الحربية وكميات عظيمة من الاسلحة والعتاد ومن جانب آخر تقدم خط السكة الحديد من أبى محمد الى عطبرة وزاد عدد عمال السكة الحديد كما ربط بخط

التلغراف ما بين عطبرة وأبي حمد وما بين بربر وسواكن وما بين سواكن وكسلا التي سلمتها مؤخرا السلطات الايطالية الى الفاتحين وقد ازداد عدد المتطوعين من ابناء البلاد التي فتحت ومن المعادين للخليفة عبدالله لاسباب سياسية وصاروا يكونون الجيش الذي عرف بجيش العرب المتحابة والذي تولى أمر الجانب الشرقي للنيل وصار على يده احتلال اقليم الخرطوم بحري ومدينة الخرطوم نفسها في اليوم السابق لواقعة أم درمان .

وفي الجانب الآخر بدأ الخليفة عبدالله يستعد للمعركة الحاسمه وصمم على أن يكون اللقاء في أم درمان بعد أن ردد البعض اقتراحا بالانسحاب والتقهقر الى الغرب وجر الجيش الفاتح الى صحارى كردفان على أمل أن يذيقوه ما أذاقه الشلالي وهكس من قبل عطشا واندحارا . شرع الخليفة وحشد جيوشه في المدينة وتدفق الانصار من الاقاليم واتخذت المدينة استعداداتها للدفاع معتمدة على الطوابي المنبثة حول المدينة وما جاورها من المواضع الاستراتيجية ، ولما كانت بواخر العدو تشكل خطرا عظيما اذ تستطيع أن تلقى حممها على المدينة وأهلها وهي بعيدة عن منال سيوف الانصار وحرابهم ولا تقوى بواخر الانصار على صدهم أعد الخليفة عدته وجعل مرمى الطوابي في اتجاه النيل ونصبت الالغام في المياه لتفتك بالبواخر القادمة وتقضي عليها اذا ما مستها على نحو ما يفعل الان في الحروب ، الا أن الخبرة الفنية والمواد اللازمة لم تكن متاحة بالقدر الذي يهدد طريق البواخر .

وفي نفس الوقت كانت هناك تيارات مختلفة يتأثر بها مجتمع المدينة ومن ثم الاستعداد لمواجهة الجيش كالخلاف بين الامير يعقوب بن محمد أمير الراية الزرقاء وبد الخليفة اليمنى وبين عثمان شيخ الدين أكبر أبناء الخليفة وقائد الملازمين ، ذلك الخلاف الذي خلق انشقاقا في القاعدة وأدى الى الثنائية في التفكير والارادة . وكان هناك من يدعون الى الانسحاب الى الغرب ويسكتون عن ذلك خوفا ورهبة ،

وظهرت في هذه الاثناء لعبة صغيرة كان من المقدر لها ان تكبر وتنـذر بالخطر لو اتيحت لها الظروف المؤاتية وهي مسعى امبراطور الحبشة ليرفع الخليفة أمامه علم فرنسا ويلوح به رمزا للتبعية لفرنسا وتهديدا للقيادة البريطانية • وكان هناك من يرون أن الهزيمة واقعة لا محالـة وان الاشتراك في الواقعة لا يعدو أن يكون انتحارا ، وكان بجانب هـؤلاء أولئك الذين يعادون النظام ويرجون له نهاية ساحقة على مشـارف المدينة ، الا أن الاغلبية الساحقة كانت على ايمانها العميق ، ذلـك الايمان الذي قضى على جحافل الشلالي وهكس ، لم تؤثـر فيهـم الهزائم المتلاحقة ولا أصابهم ما يصيب القلوب الضعيفة عندما تقـوى البلايا وتشتد الكروب ، وقد منوا أنفسهم برواية شاعت عندهم بأن المهدى تنبأ بقدوم الكفار والقضاء عليهم خارج مدينة أم درمان ، وقد بـات الكثيرون على هذا الاعتقاد وذهب قوم الى أن كتشنر هو الدجال وأن جنده جند الدجال ، ولا بد أن يلقوا مصيرهم على يد أنصار المهـدى بالقرب من عاصمتهم المحروسة المحمية •

وفي أواخر أغسطس سنة ١٨٩٨ تحرك الجيش من قرية ودحامـد القريبة من عطبرة الى جبل الرويان جنوبي شلال السبلوقـة التي أخليت طوابيها بينما سار الجنرال رندل بالمتطوعين تجاهه بالشرق ثم تحـرك الجيش جنوبا حتى تجاوز جبل كررى واستقر في مكان يدعى العجيجة على بعد ثمانية أميال من أم درمان •

أما القوات المتحابة فقد تقدمت الى الامام ودخلت في سلسلة مـن المعارك الصغيرة مع الانصار المعسكرين في أقليم الخرطـوم بحـرى وانتصرت عليها واحتلت طوابى شمبات والصبابى وقضوا على كل مقاومة في المنطقـة •

وقد تقدمت البواخر فعاونت القوات المتحابة بضرب طوابي شمبات والصبابى ثم انقلبت على طوابي توتى والخرطوم واسكتتها • ثم نزلت

قوة صغيرة في الخرطوم وأخذتها • وقد انزلت البواخر بطارياتها الى البر وبدأت تقذف الحمم على أم درمان من الشرق ومن توتى والخرطـــوم فخربت طوابيها واسوارها واصابت قبة الامام المهدي وفتحت في قمتهـا ثغرة كبيرة •

وكان الخليفة قد خرج الى ساحة العرضة بغربي المدينة ثم ســـار منها شمالا نحو كررى بجيش قوامه ٥١٥٠٠ رجلا ، تملأ الافق راياته الخفاقة ذات الالوان ويتصاعد مثار يملأ الجو كأنه الغمام وبـــــات الجيشان متقابلين كل منهما يخشى أن يبدأ الاخر هجومه ليلا ويجره الى القتال وهو يحسب لنفسه حساب النصر على ضؤ النهار •

وفي صباح الجمعة ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨ وقعت الواقعة الحاسمــة واقعة أم درمان المشهورة التي وضعت نهاية دولة المهدية وأعظم تحــد أعدته القارة الافريقية لمقاومة التوغل الاوربي • لقد بدأ الانصار هجومهم بعد صلاة الصبح وتقدموا نحو العدو صفوفا وهم يكبرون ، موجا وراء موج فحصدهم الرصاص حصدا وفشلوا في الوصول الى الجيش ليعملوا بسلاحهم الابيض ، وقد استبسل الانصار استبسالا عظيما وقدمـــوا أرواحهم فداءا لعقيدتهم ودفاعا عن دولتهم ولكن الغلبة آخر الامر كانت للسلاح الفاتك • ولما أيقن الخليفة أن المعركة خاسرة عاد الى المدينة ثم خرج منها بعد أن جمع أخلص أعوانه واتباعه وهو ينوي العودة بعزم جديد وجيش مكين يرد الكفار ويقضي عليهم • وعاد بعده الانصـــار مقهورين وقد خلفوا وراءهم أكثر من عشرة آلاف قتيل وعددا أكبر من ذلك من المجروحين ، عادوا وقد تحطمت المعنويات • لقد عاد شاعــــر المهدية العظيم ود سعد في من عاد وذهب يسأل عن الخليفة فلما ادرك أنه ترك المدينة وقف يرثى المهدية والدموع تتساقط من عينيه • لقد عبر ود سعد عن أعظم حيرة انسانية ، حيرة المؤمن العظيم • كان يؤمن أن جيش المهدية لا يرد وأن النصر حليفهم في كل واقعة لانهم جند المهدى ولان القادمين كفار وقد ذهبت أيامهم وزالت دولتهم وحق عليهم العذاب ، فإذا

بالمؤمنين يخسرون ، واذا بالكفار ينتصرون ، واذا بالقائد الملهم الـذي تغنى بأمجاده يترك قصبته ويخرج ٠

السادة الخيرة فاتوني   وخلونـي في حـيرة

ودخل الجيش الفاتح مدينة أم درمان بعد أن صده قليلا عثمـان دقنه وقواته في خور شمبات واستبيحت المدينة ورأى النـاس أهوال الاحتلال ووطأة الجيوش الغازية ٠

وكان كتشنر قد بيت النية على القضاء على مدينة أم درمان لكونها قصبة نظام المهدية وتمثل روحها وتكمن في وسطها قبة المهدى والمسجد الكبير فإذا بقيت المدينة بقيت روح المهدية مشتعلة في النفـوس ، واذا ظلت القبة شامخة ظل ايمان الانصار شامخا ، واذا بقى المسجد تذكـر الناس دولتهم الغابرة كلما وقفوا أمام الله ٠ لقد اعتدى كتشنر عـلى القبة فحطمها ثم أحال المسجد العظيم الى ساحة يستعرض فيها جيشه ثم أعد كتشنر عدته لاخلاء المدينة من أهلها وتعمير مدينة الخرطوم من جديد لكون الخرطوم تمثل العهد التركي القديم وفيه معنى الانتصار لغردون ذبيح القصر ، ولا بد لذلك من صلاة تذكارية تقام لروح غـردون في خرائب القصر ولا بد من اعادة الحياة للمدينة الخربة ورفع العلمـين المصري والبريطاني في موضع السراي اعلانا بالحكم المشترك الجديـد وعودا به الى العهد القديم ٠

ولكن كيف السبيل الى اقناع أهل أم درمان ؟ لقد تركت مجموعات كبيرة من الناس المدينة وعادت الى قراها ، أما رهبة وخوفـا ، وأما لأنها جاءت أصلا للقتال ثم عادت بعد أن انتهى القتال ، وبقى في المدينة أهل المدينة المرتبطون بترابها ٠ ولم يكن من اليسير اقناع هؤلاء بالرحيل الى الخرطوم ٠ كانت هناك مصاعب الرحيل عبر النهر بالمراكب الشراعيـة وكان أمامهم انشاء منازل جديدة في الخرطوم ، ولا بد أن تكون هـذه

المنازل ، منازل جميلة تليق بالعاصمة الجديدة ، فلماذا يتركون منازلهم المشيدة ويشيدون أخرى غيرها ويكلفون أنفسهم المشقة ؟ وكانت هناك التجارة القائمة على الحرف المحلية ، فهل يجد أهل الحرف مكانا في المدينة العصرية وهل تجد بضاعتهم رواجا ؟ وكان هناك العامل النفسي والتعلق بالوطن والقلق الذي يساور نفس الانسان عندما يبدأ حياة جديدة أو يعزم على الرحيل .

وكان هناك من يعارض سياسة كتشنر هذه ويقف ضدها وكان من هؤلاء القوم اللورد كرومر الذي كان يرى الابقاء على أم درمان وابقاء العاصمة بها تخفيفا للنفقات وتوفيرا للجهود . ولقد زار المدينة مراسل جريدة التايمز في سنة ١٩٠١ وأخذ على كتشنر تحطيم القبة وتحويل المسجد الى ملعب وانتقد سياسة الرحيل الى العاصمة المصرية انتقادا مرا واتهمه بأنه يحاول القضاء على ملامح القومية السودانية التي ظهرت في الثورة المهدية ثم انتهى بأن ذلك كله يفتح مجالا للنفوذ المصري ويهيىء لسيطرته على السودان .

وعلى أي حال فقد اتخذ كتشنر مدينة الخرطوم عاصمة للحكم الجديد ورفع العلمين على انقاض السراي وعادت الحياة من جديد الى هذه المدينة .

(٦) الحياة في أم درمان

تمشيا مع خطتنا أزاء الحياة في الخرطوم في العهد التركي نعرض هنا بعض أقوال المشاهدين عن الحياة في أم درمان في العهد المهدوي • ولعل خير من كتب عنها ونجت وكوزي Cuzzi ونيوفيلد Neufeld وروز نيولى وسلاطين • وقد نشر كتاب ونجت باللغة الانجليزية وترجمت كتب سلاطين ونيوفيلد وكوزي الى الانجليزية منذ عهد بعيد كما ترجم كتاب سلاطين الى العربية ونشرته جريدة البلاغ • وقد اعادت مكتبة الحرية بأم درمان نشر هذه الترجمة كما هي • وهذه الترجمة تشوبها الاغلاط وخاصة في أسماء الاعلام • وقد تولت شعبة أبحاث السودان نشر ترجمة انجليزية لكتاب كوزي بينما تولى الأستاذ رفيش F.Rehf ioch ترجمة بعض أجزاء كتاب روزنيولى من الايطالية الى الانجليزية ونشرها في مجلة السودان في أبحاث ومدونات •

ولعل أهمية كتاب روزنيولى تنبع من عدم أهمية الرجل نفسه في نظر المهدويين أو الى قلة بريقه التي جعلته يعيش على غير حال سلاطين ونيوفيلد بعيدا عن الرقابة السياسية ولذلك عاش روزنيولى لصيق رجل الشارع ومارس الحياة الدقيقة التي يعيشها الفرد العادي في مدينة أم درمان ، وقد ترك لنا روزنيولى صورة حية دقيقة عن الحياة العادية التي يعيشها الفرد العادي • ولقد بدأ وصفه لها منذ أن شاهد المدينة لاول مرة وهو قادم اليها من الغرب مع جموع من الانصار • يقول :

لقد تحولت طابية أم درمان القديمة الى معسكر ضخم قد يبلغ

طوله أكثر من ستة كيلومترات • وقد لاحظنا عددا ضخما من القطاطي والتي شيدت بغير عناية واقيمت كيفما اتفق بما أنها بنيت بغير تخطيط • ولما جاءت سنة ١٨٨٨ كانت أم درمان قد توسعت بمقدار كيلومترين نحو الشمال وبلغت جبال كررى وضمت نحو ١٢٠ الى ١٣٠ ألف نفس جاءوا من كل أنحاء السودان وتمثلت فيهم أنماط مختلفة من البشر • وفي الوقت الحاضر فإن المدينة تتميز بطابع عربي • وقد شيد معظم مبانيها بالطين وسقف بسقف من سيقان الذرة • وكانت دور الاغنياء وعلية القوم محاطة بأسوار من الطين بينما أحيطت منازل الاخرين بزرايب من الشوك • وكانت مداخلها الخارجية توصد بطرق غريبة وبدائية • وبما أن كل اشجار السودان أشجار شوكية فإن وضع رأس شجرة أو فرع في فتحة الدار يكفي لصد الغريب • وبما أن جزعه يبقى بالداخل في حين يكون شوكه في مواجهة الغريب بالخارج فان صاحب المنزل يستطيع أن يحركه من مكانه ممسكا من الجزع دون أن يصيبه أذى • وشوارع المدينة ضيقة وقذرة ومتعرجة ومليئة بالحفر • ويكاد المرء يجد في كل مكان رمم الحيوانات التي تملأ رائحتها الكريهة الجو • ومن الصعب على المرء أن يهتدى الى منزل يقصده طالما أن الشوارع غير محددة وغير مخططة •

وفي مبدأ الامر عوملنا في أم درمان كأسرى حرب ، وكان مسموحا لنا أن نذرع في المدينة كما نشاء ولكن مغادرة المدينة كانت ممنوعة منعا باتا ومستحيلة • وقد اغتنمنا فرصة هذه الحرية للبحث عن اصدقائنا القدامى •

وكان المعسكر القديم محاطا بسور من الطين ، وكانت محاصرة المدينة قد شددت من وراء هذا السور • وقد تركت الجثث حولها فظلت بعضها ظاهرة بينما غطى التراب بعضها ، وقد امتلأ المكان كله ببقايا آدمية • وتمكنا من موضعنا هذا أن ننظر الى النيل الابيض عند المقرن وأن نرى النيل الازرق من الطرف الآخر ، وقد ظهرت الخرطوم بخرائبها

الموحشة خلف طبقة كثيفة من النباتات • وعند رؤيتنا لهذا المنظر الكئيب تداعت الى اذهاننا ذكريات وأفكار محزنة •

وقد مررنا بجوار المسجد والذي شيد بالطين ، وكان هذا في حد ذاته تقدما لأن مكان الصلاة كان في حياة المهدى عبارة عن مجـرد فضاء تغطيه الخرق والرواكيب • ولاجل المشاهدة ذهبنا الى السوق ، فإذا بها مجموعة من الازقة والحواري • وبما أن الامن كان مفقودا فإن التجار كانوا يحملون بضائعهم الى منازلهم ليلا • وكان عـــدد المتسكعـــين والمشترين والمتفرجين والمتلصصين كثيرا حتى أضحى من الصعب أن يعبـر الانسان في سبيله من شدة الزحام كما أن الصخب الصاعد من هـــذا الزحام كان يقرع الآذان ويصيبها بالوقر • وكان بالسوق بضائع كثيرة استجلبت من مصر ، لان الخليفة لم يكن الى ذلك التاريخ قد فـرض العشور العالية على الواردات • ويبدو أن الناس كانوا في رغد وهناء ، فقد كان تداولهم بالنقود بتلك الصورة يوحي بذلك • وكان ببيت المال الى ذلك الوقت كميات كبيرة من الذهب والفضة التي غنمت من المـدن المفتوحـــة •

وقد سألنا تاجرا يهوديا عن المكان الذي به الراهبات فقام لعجبنا بتقديم القهوة لنا وبالاجابة على كل اسئلتنا • وبمجرد معرفتنا لمكانهـم وتخلصنا من مجاملات توديعه اتجهنا صوب الفريق الذي ينزل به كـل المسيحيين الذين لم يكن يسمح لهم بمغادرة المدينة • وقـد وجدنـــا الراهبين بوليناري ولوكاتيلي والراهبات اللائي كن قد زوجن بأغاريق • وكان هنالك الكثير مما نقوله لبعضنا بعد أن تفارقنا لمدة طويلة ، وقـد مضت ساعاتنا سراعا • وقد نزلنا في ضيافتهم • نزل ريونتى عند لوكاتيلي، والاب أهرولدر عند كوكو ريمباس والذي كان قيما على الاختين • أمـا أنا فقد ساقوني الى منزل رجل سوري يدعى نعوم كان يقوم بمهمـــة دكتـــور ••••

ولم تمض على اقامتنا بأم درمان أيام حتى شاهدنا لاول مرة عرضة

كبرى للجيش بقيادة حمدان أبو عنجة والذي كان عائدا لتوه من الابيض. وقد ترك الخليفة منزله مع شروق الشمس وذهب يستعرض رجاله راكبا على جمل بينما كانت الطبول تدق بعنف . ولما كان اليوم يوم جمعة فقد دعي الى الصلاة بمجرد انتهاء العرضة . وكانت الصلاة تدعى ذكرا . وقد استقبل الجميع الى الشرق صوب مكة ونزل الخليفة من جمله ليقود الصلاة وكانت صفوف الرجال طويلة وعميقة ، وكان عددهم يقدر بنحو ستين ألفا ان لم يكن أكثر . وباشارة من الخليفة ركع الجميع ثم قاموا ثم سجدوا ثم قاموا ...

وسأحاول فيما يلي أن اعطي فكرة عن تنظيم السوق والذي فرضه المسئولون فرضا ، ذلك لانهم يهدمون المنازل والرواكيب اذا ما شيدت في المنطقة المخصصة للسوق . وكانت المحكمة ، أعني موضع محكمة السوق والسجن ، محاطين بزرب وكانت حدودهما محددة على أساس مخطط . أما الاجزاء الاخرى فكانت تتفاوت في الوسع وذلك تبعا لعدد الاشخاص الذين يعملون في تجارة معينة . وكان كل جزء يتكون من عدد من الرواكيب والقطاطي التي بناها التجار اتقاء من حرارة الشمس. ويفصل الدكاكين أو مجموعاتها أزقة ضيقة ومتعرجة وقذرة . ويخيل للمرء أن السوق عبارة عن مجموعة من الحواري . ان معظم نشاط المدينة يقع في هذه البقعة .

وكنا مجبرين من وقت لآخر على القيام بأعمال السخرة بالاضافة الى متاعبنا الخاصة التي نقاسي منها . لقد أمر الخليفة بانشاء قبة كبيرة فوق قبر المهدى . ولكي يشيد القبة فإنه اضطر لكي يهدم منازل الخرطوم المبنية بالطوب الاحمر ويحمل طوبها عبر النهر الى حيث تقوم القبة . وكان من المتوقع أن يشترك كل سكان المدينة في عملية البناء ابتغاء الدخول في الجنة . وقد قسم العمل على أقسام المدينة ثم افتتح الخليفة العمل بأن سار في موكب ضخم يرافقه الامراء الى النهر وأخذ بنفسه الماء والطوب وحملها الى موضع العمل .

وكانت نية الخليفة أن يجعل من القبة مزارا يحج اليه الناس ويجعلها مكة السودان • وكانت المحكمة الكبرى والذي خطط لتكون أمام المسجد تكون جزءا من المسجد • وقد خطط المسجد ليسع أكثر من سبعين ألفا من المصلين كما أنه أعد ليكون أكثر من نصف هؤلاء تحت ظل الرواكيب المحمولة على عمدان الخشب •

وكان اشتراك الخليفة في العمل بنفسه بالاضافة الى رجاء الدخول في الجنة دافعا لحماس الرجال ليعملوا بهمة • وأغلب ما كان ذلك في الاحياء التي يسكنها البقارة والمتحمسون للدعوة ، اذ شارك هؤلاء في العمل بنسائهم وأولادهم • أما سكان الاحياء الاخرى فكانوا أقل حماسا ، وقد تمكن بعضهم من الزوغان بعد أن نفحوا الامراء برشوة • وهكذا وقع ثقل العمل على المتحمسين للدعوة • وقد حملنا على أن نعمل ثلاثة أو اربعة ايام في الاسبوع ، وكان هذا يعني أن نحمل الطوب والماء تحت وهج الشمس من النهر الى الموضع أي حوالي مسافة كيلومتر أو أن نساعد البنائين • واضافة على اعبائنا فرضت ضريبة جديدة على الناس بعد الفراغ من القبة لمقابلة تكاليف اكمال المنشئات الاخرى • وقد حدد بيت المال على كل أمير جعلا معينا وصار كل أمير يفرض على كل من في رايته ما يراه لائقا به • وفي مرة من المرات ارسلت الى السجن لاني لم أكن أملك ما طلب مني •

وتقوم قبة المهدى فوق المكان الذي مات فيه وهو يتكون من بناء مربع الزوايا يبلغ كل طرف منه ٨ أمتار طولا و ٦ أمتار ارتفاعا • وفي الداخل يوجد الضريح ويمكن الدخول اليه بواسطة أحد الابواب الخمسة المثبة وهي مضاءة باثني عشر منورا كل ثلاثة منها بجانب ، وهي كلها فوق قباوي الابواب • وقد شيد تربيع الاركان من الحجر الذي أخذ من مبنى الكنيسة الكاثوليكية بالخرطوم • كذلك احضرت الابواب من خرائب تلك المدينة • وقد فتحت النوافذ لتلائم هذه الابواب في الحجم • ويقوم فوق البناء المربع تدوير القبة والذي يقوم على أساس

دائري مرتكزا على حائط المربع • ويبلغ ارتفاعه نحو متر واحد • أما دائرة التدوير فتبلغ نحو ٧ أمتار ارتفاعا ويتخذ شكل رأس سكر • وتأتي في أعلاها حربة ، وقد حلت الحربة محل الهلال الذي كان مثبتا في رأس المبنى القديم والذي ازيل لأنه اعتبر شعار مصر • ويأتي التدوير مباشرة فوق قبر المهدى • وفي كل ركن من الاركان الاربعة قبة صغيرة ينتهي كل منها بحربة • وقد شيدت القبة كلها بالطين والطوب والجير والرمل بعد خلطه وتخميره بالجير والرمل •••••••

إن وسط القبة كان مخصصا للمهدي بينما كان مقدرا أن يدفن الخلفاء في الاركان الاربعة تحت القبب الصغيرة ••••••••

وبما أننا كنا نفتقر الى رأس المال فاننا لم نكن نملك القدرة لتجارة واسعة • وكان علينا أن نجهد انفسنا الى غايتها لكي نكسب دريهمات قليلة نقابل بها متطلباتنا المتواضعة • وفي مرات كثيرة قدر لي ان أنام ليلا دون أن أتناول شيئا طوال اليوم • وكانت حالتنا في غاية الضنك لاننا بالاضافة الى الحوجة المادية كنا معرضين لصنوف من الاهانات • وعندما كنت أعمل في السوق في بيع العيش والفول حاول الخليفة ابطال العملة المصرية واحلال اسلوب التبادل في بلاده على أساس قطع الدمور • ان كل قطعة دمور تبلغ طول ذراع الرجل من المرفق حتى طرف الوسطى مضاف اليه عرض ثلاثة اصابع ، وتبلغ قيمتها ربع ريال • ولم يكن هناك أحد يريد أن يقبل هذه العملة بالرغم من أن بيت المال كان ملتزما على قبوله بهذا السعر • وكانت النتيجة أن اشتراها البعض بنصف قيمتها ثم ابتاعوا بها من بيت المال والذي كان يتعامل على أساس ثمنه الرسمي • غير أنه سرعان ما الغى هذا الاجراء لانه كان يؤدي الى كثير من المنازعات والمشاجرات •

وكان بعض زبائني قد أكل فولا عندي ثم دفع لي الدمور مقابله وقد طلب مني أن أنقده الباقي بالنقود المصرية • ولما كان هذا مستحيلا فقد رجوته أن يأخذ من البضاعة مقدار الباقي على أساس السعر الرسمي للدمور • غير أنه رد بالشتيمة والسب • ولما نفذ صبري

رددت عليه وقلت له يا وسخ ، مع أنني لم اتعود على مثل هذا السب . وقد جاء خفراء المحكمة المنوطين بالسوق واقتادوني الى ساحة القضاء . وكان هناك أربعة قضاة يجلسون وقد افترشوا برشا ووضعوا مصحفا أمامهم . وقد حكم علي بأربعين جلدة بالسوط والذي هو من جلد فرس البحر . وكما هو العادة في مثل هذه الحالات فان العقوبة قد نفذت في الحال . فقد أخذوني الى الخارج وبطحوني أرضا على بطني وتولى احد مساعدي المحكمة ضربي بالسوط على ظهري وكان بجواري الجمهور العادي الذي يحضر مثل هذه المناسبات . ولكن لما كنت اصبر على الالم دون تلو أو صراخ فانهم كفوا عني نظرة الاحتقار . وقد اطلق سراحي بعد أن تلقيت الاربعين سوطا .....

يتركب سكان أم درمان من كل العناصر والقبائل التي يعرفها السودان بالاضافة الى مصريين وهنود وبعض العرب من مكة وسوريين وأغاريق وايطاليين وترك واثيوبيين وأخيرا آكلوا لحوم البشر من النيام نيام والمانقبتو . وكانت ألوان البشرة تتدرج من السواد الشديد حتى الابيض ــ لقد كان حقا معرضا لصنوف البشر . ففي داخل هذا المعرض يمر الانسان العريان كما ولدته أمه ومن هم في مصاف الطوطم ، والنساء المحجبات اللائي لا يكشفن الا أعينهن وأخريات ليس عليهن الا خرق حقيرة تستر العورة فقط ، وهناك النموذج السامي بالانف المدبب واللحية الكثيفة بجوار نموذج الزنجي الوسيم بجسمه القوي العتيد والانف الافطس والشفاه الغليظة .

وفي الغالب كان كل جنس يسكن في حي خاص به ، ولم يكن الزواج المختلط بين الاجناس عملية سهلة . وكان المرء يسمع لغات كثيرة ولكن اللغة الوحيدة التي يتعامل بها الكل هي اللغة العربية . وهي لها ذاتية رسمية ومقدسة معا . وفي اعتبار الانصار أنها اللغة التي تكلم بها آدم وحواء وانه ليس في الجنة لغة غيرها .

ويقدر سكان المدينة بنحو ١٥٠ ألفا من البشر ولكن من المحتمل

آنهم أكبر من ذلك بكثير لان الخليفة قد امر كل سكان المدن والقرى والدساكر التي خربت اثناء الحرب بالانتقال الى أم درمان . وهو عندما يدرك أن ثورة قد اندلعت في مكان ما يرسل اتباعه لتخريبه .

وقد انخفض السكان من جراء مجاعة سنة ١٨٨٩ المرعبة . وحتى سنة ١٨٨٧ كان بيت المال يحتفظ بكميات من الذرة التي غنمت في الحروب والتي وجدت في شون الحكومة المصرية . ورويدا رويدا أصبحت الكميات تتضاءل تبعا للاستهلاك لان ما يؤخذ كان لا يعوض نسبة الى أن الثورة قد أخذت القادرين على الزراعة من حقولهم ، وكان الكثيرون منهم قد قتلوا في الحروب بينما ظل الاخرون في سجلات الجيش العامل . والحق أن مشاريع المهدى الحربية قد أعادت الناس الى حياة الكفاف وجعلتهم يركنون الى الاعتماد على ما يصرفه بيت المال بدلا من ان ينتجوا بأنفسهم . وكان العمل في الزراعة غير مضمون العاقبة نظرا الى توالي الحروب والنهب الذي كان يقوم به انصار المهدى . وكانت التجارة مع البلاد المجاورة قد وصلت حد الصفر نسبة الى حالة عدم الاستقرار في الداخل والضرائب الباهظة على البضائع وكانت النتيجة أن زرعت كمية قليلة من الذرة لم تكن كافية لاطعام كل السكان . وبالنسبة لسكان أم درمان فانه يتعين على الانسان ان يحصل على اذن من الخليفة قبل أن يخرج للزراعة . ولم يكن الخليفة راغبا في أن يخرج سكان المدينة حتى ولو لفترات قصيرة . والزراعة هي عمل الارقاء فقط . وهي تبدأ باختيار أصلح المواضع للزراعة من مساحات شاسعة من أراض لا يملكها أحد . وهم يبدأون بانشاء قطية وتنظيف الارض ثم يقومون بالزراعة قبل شهر من موعد الامطار . واذا ما كانت الامطار شحيحة فان المحصول مهدد وفي حالات كثيرة لا يحصد المزارع شيئا .

لقد حلت هذه الكارثة في سنة ١٨٨٨ عندما انخفضت الكميات التي يحتفظ بها بيت المال من الذرة ولم يكن هناك من سبيل لتغطية النقص على وجه السرعة أو بسعر مناسب من أماكن أخرى . وبسرعة تحولت ام

درمان الى مسرح تقع فيه مآسي تفتق القلب • لقد سخر الأنصار من قبل من المصريين الذين حوصروا في الابيض لانهم اكلوا الكلاب والحمير والجلود وكل القذرات • أما الان فإنهم مضوا أبعد من ذلك ، لقد أكلوا اولادهم •

وقد تمكن الاغنياء من ابتياع كميات من الذرة في الوقت المناسب • أما الفقراء فلم يكن من سبيل لانقاذهم • وقد ارتفع ثمن الاردب من ستين ليرة الى مائتين وخمسين ليرة • ولقد قدر لي أن اشاهد الجوعى يتضورون بعيونهم الغائرة في أم درمان كما شاهدتها في شوارع الابيض أيام الحصار ، ولكن الاعداد هنا أكبر • ان جماهير الجوعى قد خرجت بحثا عن أي شيء يسد الرمق بينما امتلأت الشوارع بجثث الموتى التي لم تجد من يدفعها الى النهر أو يحملها الى المقبرة التي خصصها الخليفة • واليوم توجد أكوام من العظام البيضاء وهي بقايا الآلاف التي نفقت من الجوع • ووجدت الضباع مرتعا خصبا وجاءت في أعداد كبيرة الى ضواحي أم درمان ثم تجرأت وسارت في شوارع المدينة وهي تأكل في لحوم البشر • وقد أوشك احد الضباع ان يدخل في راكوبة الاب أهرولدر • وليس من الجديد في شيء أن اذكر اسراب الطيور التي كانت تغطي سماء المدينة والتي كانت ترتفع على جثث البشر •

وكان الاطفال في خطر الخطف • وفي ليلة من الليالي تمكنا من انقاذ صبي كان يطلب الانقاذ من يدي رجل جائع باصدار انين خافت • وفي يوم جرت بنت واحتمت بالمحكمة من أمها التي كانت قد أتت على ابنها الصغير في يوم سابق ثم اخطرت البنت ان دورها قد أزف • وقد سجنت المسكينة وماتت مجنونة بعد أيام • وكثيرا ما كنا نستقبل الامهات اللائي يشكين من نضوب صدورهن من اللبن • وفي يوم من الايام جاءت امرأة الى الاب اهرولدر وطلبت أن يشتري منها طفلها وقد أعطاها الاب كمية من الذرة وأرسلها لسبيلها مع دعواته الحارة • وفي اليوم التالي ظهرت ومعها طفلان فقط لان الطفل الثالث قد مات بالجوع • وفي اليوم الثالث كان معها طفل واحد فقط ، ولم نسمع لها خبرا بعد ذلك •

سلاطين

من كتاب (السيف والنار) لرودلف سلاطين :

صرح الخليفة بأن أم درمان هي مدينة المهدى المقدسة ، وقد يكون غريبا على القراء ان يسمعوا عن ام درمان قبل عام ١٨٩٠ بأنها كانت مدينة صغيرة ضئيلة الشأن يسكنها بعض قطاع الطرق وكل ما لها من شأن انها واقعة تجاه الخرطوم غريب عليهم ان يسمعوا ذلك في الوقت الذي علت فيه كلمة هذه الجهة واصبحت اضخم واعظم شأنا من الخرطوم وقد سبقه اليها المهدى • فبعد ان كانت الارض حقيرة غير منتظمة مدت اليها الاشجار الوارفة الظلال وأسس الجامع الكبير وبيوت الخليفة عبدالله والخليفتين محمد شريف وعلي ود الحلو • أما عبدالله فقد وضع يده على جميع الاراضي الواقعة جنوبي المسجد • وأما القسم الشمالي فاقتسمه الخليفتان محمد شريف وعلي ود حلو •

مما يذكر عن المهدى في حياته أنه صرح علنا في المسجد الكبير بأن أم درمان معسكر وقتي لان رؤيا النبي التي ظهرت له في احدى الليالي أمرته بنقل الخلافة الى الشام بعد التغلب على مصر وبلاد العرب ولكن موته المبكر قد شتت جميع مشاريعه وقضى على آماله وآمال أتباعه •

بعد ان نقلت العاصمة الى أم درمان تم تنظيمها وتخطيطها • وقد بلغ طولها السطحي من الشمال الى الجنوب ما يقرب من ستة أميال انجليزية وقد اصبحت نهاية الحد الجنوبي مقابل الطرف الغربي للخرطوم •

اتجهت الرغبة في بادىء الامر الى السكنى على مقربة من شاطىء النيل أملا في تسهيل الحصول على الماء الكافي فنجم عن تلك الرغبة ازدياد في ناحية وقلة في الناحية الاخرى فلم يبق مكان خال واحد في مسافة ثلاثة أميال عرضا مع خلو أميال ممتدة طولا •

انشئت في بادىء الامر في تلك الناحية آلاف من الاكواخ المصنوعة

من القش فلم يكن ظاهرا منها سوى المسجد الكبير الذي أحاط بـــه حائط من الطين طوله اربعمائة وستون ياردة وعرضه ثلاثمائة وخمسون ياردة • ولكن ذلك لم يرق في عيني الخليفة فاستعاض عنه ببناء مـــن الطوب المحروق الذي تم تبييضه بعد ذلك بمعرفة بنائين من العـرب • وبعد ذلك أقام الخليفة لنفسه ولاخيه وأقربائه بيوتا من الطين ثم حـذا الامراء حذوهم وتبعهم في ذلك اغنياء ام درمان •

ذكرت في فصل سابق وصفا لضريح المهدى ولكني لم اذكر انـي شاهدت قبل مغادرتي الاخيرة لام درمان ضياع لون القشرة البيضاء التي على الضريح • ولا بأس من العودة الى التفصيل فأقول بأن فوق قبـة الضريح ثلاث كرات نحاسية فارغة الواحدة فوق الاخرى • وربط هذه الثلاثة رمح مقوس في آخره حلية رئيسية تزين الضريح • ومن أغـرب ما سمعته من السودانيين ان الخليفة وضع هذا الرمح حول الكـرات الثلاث ليعلن استعداده لمحاربة الطبيعة اذا حدث ما يحول دون تحقيـق رغباتـه •

كان عبدالله في كثير من الاحيان يقضي ساعات من النهار منفـردا داخل الضريح (مزار المهدى) • والمعروف ان غرضه الاساسي من ذلك هو تلقي الوحي الخاص منه ولكن قلت عنايته بهذه الزيارات الدينيـة بعد أن قتل الكثيرون من أقرباء المهدي وزعماء اتباعه • وبطبيعة الحـال كان من العسير بل من المريب ان ينقطع عبدالله هذا الانقطاع الفجائـي فاضطر الى انتحال المعاذير • وتبعا لذلك أوعز الى رجال حرسه الخاص ان يذيعوا بين الناس ان السبب الحقيقي لانقطاع عبدالله عن زيارة سيده المهدى هو خوفه من البقاء بمفرده داخل الضريح • وقد كان منتظرا ان يرد بعضهم على ذلك بأن يستصحب الخليفة معه من يذهب عنه الفـزع ولكن عبدالله لم يعجز عن الرد فكان يقول انه من غير المرغوب فيه أو من الامور غير المسموح بها بقاء اي شخص خلاف الخليفة داخل ضريـح المهدى • هذا ما كان يعتذر به عبدالله الى الشعب السوداني في حين ان

عبدالله خالف وصايا سيده المهدى لا بالقول فحسب بل بالفعل ايضا •

كان من المتبع فتح جميع الابواب المؤدية الى الضريح يوم الجمعة للسماح للشعب بالحج الى ضريح المهدى وبما ان القانون الديني كان يحتم على كل رجل من اتباع المهدى أن يرد صلوات الترحم على جثمان المهدى وروحه فقد كان من الميسور على المشاهد ان يرى الآلاف من الناس متفقين في الغرض ومختلفين في طريقة تلاوة الصلوات والادعية ولم يكن قصدهم محصورا في الصلاة للمهدى ولكنه تعداه الى طلب الحماية والرحمة من الله الرحمن بشفاعة الشهيد الذي قد رقد في قبره الاخير ، ولكنني في الحقيقة كثير الريبة في ان الصلوات المذكورة خارجة للترحم فاني اقرر — وفي قولي على ما اعتقد كثير من الحق ان لم يكن الصدق كله — ان أغلب الصلوات الصادرة من قلوب اولئك المتحمسين الى مقام العرش الالهي تتطلب من الله انقاذ الشعب السوداني من ظلم وعسف عبدالله المستبد الذي خلف ساكن الضريح الطيب في نظر السودانيين •

يقع بيت الخليفة الرئيسي في الناحية الجنوبية من الضريح وعلى اتصال بالمسجد الكبير • ويحيط بهذا البناء الرئيسي حائط ضخم مبنى بالطوب الاحمر ومقسمة نواحيه الى مبان صغيرة متلاصقة • وبطبيعة الحال أقرب المباني الى المسجد هي التي يسكنها هو وأفراد بيته المقربون • وفي الناحية الشرقية من مسكنه بيوت زوجاته وأماكن الخصيان ومخازنه الخاصة • ومما يسترعي الانظار في الجهة الشرقية من مسكنه المجاور للمسجد الكبير قيام باب خشبي ضخم (ولا توجد أبواب في داخل المسجد من النواحي الثلاث الاخرى) يجتازه المسموح لهم بالوصول الى غرف الخليفة الخاصة ومكان الاستقبال الرسمي •

اذا ما رغب انسان في اجتياز الممر الرئيسي كان عليه أن يمر بما يشبه الدهليز ومن ثم يسير الى ردهة صغيرة فيها غرفتان لا يوجد على جانبي ايتهما ما يمنع من ظهور الناس للخليفة الذي يستقبل الناس في هذه البقعة • يوجد في الجهة الجنوبية من غرفة الاستقبال باب خاص يقفل

بين تلك الغرفة وبين غرفة المخدع ولا يسمح باجتيازها لاحد سوى الشبان من حرس الخليفة •

أما المساكن التي سبقت الاشارة اليها فمكونة على شكل قاعات متصلة بين كل واحدة والاخرى رواق صغير وقد تمكن الخليفة من انشاء دور ثان على سقف مجموعة من تلك المساكن ووضع في ذلك الدور المبنى على الطراز الجديد (عام ١٨٩٥) منافذ يتمكن الناظر من احداها من مشاهدة منظر عام واضح لام درمان •

امتازت غرف استقبال الخليفة بالبساطة الكلية والبعد عن الزخرفة وكل ما في الغرف من زينة هو أعمدة العنقريب الممتدة في كل غرفة وعلى الواحد منها حصيرة من أوراق النخيل • أما غرف الخليفة فمزخرفة بكل ما يستطيع الحصول عليه من زينة وتزويق في السودان • ففي كل الغرف الداخلية أسرة نحاسية وحديدية تعلوها ناموسيات (للوقاية من الناموس الذي يعد نكبة السودان وبلاءه) كما أن أراضي الغرف مفروشة بالسجاجيد وفوق المراتب النظيفة أغطية حريرية ووسائد موشاة اطرافها بالحرير الخالص وفوق الابواب والنوافذ ستائر من الالوان والانسجة • ولا ريب في أن ذلك أقصى ما يطمع اليه الخليفة من زخرف وابهة في السودان • أما الاروقة فممتلئة بالحصر المصنوعة من أوراق شجر الدوم ثم بمقاعد العنقريب • فاذا قارنا ذلك بما كان عليه الخليفة عبدالله في أول سني حياته الرسمية وجدنا أنه شديد الميل الى الزخرفة ما استطاع الى ذلك سبيلا •••••

والى جوارها بيت الامانة المكون من بناء حجري ضخم جمعت فيه المدافع والبنادق والزخيرة وكل ما يختص بالحرب • والى جوارها (في البناء نفسه) خمس عربات كانت ملك الحكام السابقين والبعثة الكاثوليكية • وقد عنى عبد الله عناية فائقة بحراسة ذلك البيت فوزع على مسافات قصيرة حراسا خصوصيين واعد لكل واحد كشكا صغيرا ومهمة أولئك هي منع جميع الخارجين عن هيئة الجيش من الدنو •

وجد في الناحية الشمالية لبيت الأمانة مباشرة بناء لحفظ رايات الامراء المقيمين في أم درمان • والى جانب ذلك البناء محل نصف دائري (يبلغ ارتفاعه نحو عشرين قدما ويصعد اليه الصاعدون بسلالم مدرجة) لحفظ أبواق وطبول الخليفة الحربية • فاذا ما سرنا الى الناحية الشرقية قليلا وجدنا مخزن الخراطيش والاسلحة الصغيرة •

ذكرنا في الفصول السابقة شيئا عن بيت المال فنقول الان أنه يقع في شمال أم درمان على مقربة من نهر النيل • ويمتاز هذا البناء بضخامته وانقسامه الى أجزاء بارزة تكاد تكون أروقة متساوية الحجوم • وفي تلك الاروقة تجمع البضائع الواردة لام درمان من جميع نواحي السودان ومن مصر كما أن في بيت المال مكانا لخزن الحبوب وآخر لجمع الرقيق• ويقع على مسافة قليلة جنوبي بيت المال بناء واسع لبيع الرقيق يسمى سوق العبيد • وقد انشأ عبدالله في جوار البناء الاخير بيتا سماه بيت المال الحربي • بعد ان استقرت خلافة عبدالله وسلفه المهدى في أم درمان ثم تنظيم المدينة وهي على العموم قائمة فوق أرض مستوية ولكنا نجد في بعض النواحي هنا وهناك تلالا صغيرة تعترض ذلك المستوى • أما تربة أم درمان فمجموعة طبقات صلبة حمراء تكاد تكون حجرية في مجموعها وتتخللها في أجزاء متفرقة اراض رملية • ومما يذكر عن تعسف عبدالله انه في سبيل راحته والتمتع بما يرضى شخصه أنشأ الطرق والشوارع الجديدة وهذا العمل حميد في ذاته الا ان الخليفة في سبيل هذا البناء قد هدم بيوتا كثيرة ولم يدفع لاصحابها المنكودي الحظ قرشا واحدا فدل بذلك على أنه يرمي من وراء تنظيمه الحميد في ذاته منفعة خاصة هي لذة النظر الى شوارع نظيفة بغض النظر عما يصيب الناس من هدم منازلهم دون تعويض •

علا شأن أم درمان ونقص قدر الخرطوم في زمن خلافة عبدالله فأصبحت الخرطوم عبارة عن انقاض وخرائب ولم يبق فيها من المباني الظاهرة سوى المرفأ • وقد ظلت المواصلات بين أم درمان والخرطوم

بواسطة الرسائل التلغرافية التي أحسن أستعمالها موظفو ادارة التلغراف في الحكومة السابقة •

أبقى عبدالله قسما كبيرا من السور المحيط ببيت المال والمؤدي اليه (لم يكمل هذا البناء في زمن عبدالله) ، وعلى طول هذا البناء امتدت حوانيت لبيع المواد التجارية المختلفة ، والى جوارها حوانيت منفصلة واماكن صغيرة مستقلة للحلاقين والنجارين والقصابين والخياطين ومن شابههم • هذا الى ان عبدالله عنى بنظام المحتسبين الذين كانوا مسئولين عن حفظ النظام في المدينة وانه لما يفزعني ان اذكر المشانق وآلات الاعدام التي كانت موزعة في جميع نواحي ام درمان • فقد كانت اكبر دليل على حال المدينة وموقف السودانيين من حكومتهم •

كان سكان ام درمان موزعين في مساكنهم تبعا لقبائلهم • فكان العرب التابعون للقبائل العربية يسكنون غالبا في المحلات الجنوبية • اما القسم الشمالي فكان مخصصا لسكان وادي النيل • ورغم وجود المحتسبين والمحافظين الرسميين على نظام المدينة كان مفروضا على كل قبيلة ان تعين من بين رجالها من يقومون بحفظ الامن والسلام في القبيلة ذاتها على ان يبلغ أولئك عن أي اضطراب أو خلل في القبيلة الى رجال الحفظ المعينين من قبل الحكومة •

اذا استثنينا الشوارع المنتظمة التي أنشأها وخططها الخليفة عبدالله ارضاء لراحته ومزاجه فحسب وجدنا المدينة عبارة عن منحدرات وعطفات مملوءة بقاذورات • وبطبيعة الحال اجد شخصي عاجزا عن وصف الاضرار الصحية المنبعثة من تلك القاذورات الكريهة الرائحة في الاماكن الوبائية التي تجمعت فيها أوساخ أم درمان • ويكفيني القول بأن جثث الخيول الميتة ترمى في تلك االنواحي وان الجمال والحمير والماعز تزحم الطرق الضيقة وتملؤها بأوساخها وقاذوراتها وكل ما يعمله الخليفة هو ان يصدر أوامره قبل ايام اعياد مخصوصة في كل سنة باكتساح هذه الاوساخ وتنظيف الطرق الضيقة فلا يتعدى التنظيف حد القاء الجيف المتننة في

زوايا الحارات • فاذا ما جاء فصل الخريف الممطر حمل الهواء المشبــــع بالروائح الكريهة المنبعثة من تلك الاوساخ والجيف بعض أمــــراض وبائية تعمل على قتل المئات من السكان المساكين •

كانت المدافن قبل عهد الخليفة عبدالله قائمة وسط المدينة ولكــن تبرم الاحياء وتذمرهم من الروائح التي اصيب بها السكان من ذلــــك النظام اضطر عبدالله الى انشاء مكان فسيح خاص واعــداده لدفــــن الموتى • وقد وقع اختياره على الصحراء الواقعة شمال مكان استعراض الجنــود •

(٧) الخرطوم الجديدة

بدأت مدينة الخرطوم حياتها الجديدة باحتفال صغير جرى على أطلال قصر الحكمدارية المتهدم وصلاة تذكارية اقيمت على روح الجنرال غردون الذي قتل في ذلك الموضع يوم استولى الانصار على المدينة في يناير سنة ١٨٨٥ • ولقد كان منظر القصر وما حوله كئيبا موحشا • فقد اخذ الانصار منه الشبابيك والابواب والاسقف وكل ما يستفاد منه ولم يبق من بناء القصر الا بعض حائط الدور االارضي • أما حائط الطابق الثاني فقد هدم من أجل طوبه الذي نقل الى أم درمان ، وقد ملأ ترابه داخل القصر وجوانبه • ومع ذلك فقد كانت معالم القصر ظاهرة واهتدى القوم الى حجراته وردهاته ووقفوا على الموضع الذي قتل فيه غردون ، وقد أثبتوا في هذا المكان عند بناء القصر من جديد علامة نحاسية تشير الى هذه الواقعة ، وهي معلقة على الحائط الى هذا اليوم • وعلى جوانب القصر امتدت الخرائب على امتداد المدينة ، وكانت بعض الهياكل البشرية ما زالت ظاهرة هنا وهناك • أما الشارع الذي يقع بين القصر والنيل فقد تهدم وتآكل بفعل الفيضانات ولم يبق من الرصيف الحجري أمام القصر الا جزء يسير • وعلى الحائط الشمالي للقصر رفع العلمان البريطاني والمصري ، وقد تولى كتشنر بنفسه رفع العلم البريطاني بينما أوكل رفع العلم المصري لضابط مصري ، وربما كان ذلك حظ مصر من الامر بعد أن تم الفتح باسمها ، والا فلماذا لا يرفع علمها هذا الذي هو قائد جيشها ويحمل تفويض خديويها • لماذا يترك كتشنر هذه المهمة لمن هو أصغر منه رتبة وخطرا مع أن الموقف يناسبه • ألأنه يريد ان يخاطر المصريين في شخص هذا الضابط أم لانه يريد للعلم المصري المكان الثاني • احسبني لا أرى في ذلك مجاملة لمصر أو تكريما لضابطها انما هو تأفف من كتشنر

واستعلاء • ولقد ظل العلمان المصري والبريطاني يرفرفان على القصر رمزا للفتح المشترك والحكم المشترك ، ولكن الامر داخل القصر كان لاحد الشريكين دون صاحبه ، فما أكذب هذا الرمز وما أخدع هذا المظهر • وعلى أي فقد صحا صاحب الحق وانزل العلمين في احتفال كبير كان أعظم شأنا من ذلك الذي أقيم خلسة على خراب ورفع مكانهما علمه الجديد يرمز اليه والى حقيقة الدار ويرفرف عاليا في أجواء الخرطوم الحرة • تلك باختصار قصتنا التي بدأت في الرابع من سبتمبر حين رفع العلمان على أنقاض قصر هدمناه ، وتلك قصة العلمين منذ رفعا واختلف عليهما حتى جاء يوم النزول •

وبعد الاحتفال برفع العلمين بدأت الصلاة التذكارية بقيادة الاب برندل وأربعة من القسس يمثلون طوائف المسيحية بينما اصطف جنود من فرقة الهايلند وجماعة من الضباط المسيحيين ، وقد وقف على بعد منهم بعض أعيان السودان الذين قادتهم المقادير ليكونوا في هذا الموقف العصيب • وعلى مبعدة منهم جميعا وقف الجنرال كتشنر ساهما متأملا ، ولعله كان يفكر في مأساة الجنرال غردون يوم دخل عليه الانصار في هذا الموضع وذبح على أيديهم ، او لعله كان يفكر في حملة انقاذ غردون التي اشترك فيها والتي فشلت في انقاذه بسبب بطء رجالها • ترى أكان يحسب نصيبه في مأساة غردون وما جنته يداه أم كان يعيش نصره هذا الذي محا به عار الهزيمة التي ألحقها الافارقة بالرجل الابيض في وقائع الخرطوم وشيكان وعدوة •

وبعد الصلاة أدى جنود فرقة الهايلند وأورطة الجهادية السودانية الحادية عشرة التحية العسكرية بينما اطلقت الباخرة الحربية التي كانت راسية بالقرب طلقاتها تحية • لقد تم للقوم الانتقام لغردون •

بهذا الحفل الصغير عادت الحياة الى الخرطوم وبدأت المدينة سيرها الجديد في التاريخ ، وعلى الأفق من بعيد كانت تغيب شمس يوم طويل مثلما كان يغيب قرن مثخن بالدماء لم تشهد بلادنا مثله في القرون ••

فلنبدأ قصتنا الجديدة مع تباشير القرن الجديد ، القرن العشرين •

وبالرغم من المشاغل الكثيرة التي كانت تقلق بال كتشنر وتستنفذ جهوده كحادث فاشودا والخليفة عبدالله الذي ما زال طليقا وأمر الادارة الجديدة فان كتشنر قد خص مدينة الخرطوم باهتمامه العظيم وأولاها بعنايته • لقد وضع كتشنر بمعاونة بعض المهندسين الخطة الاولى لمدينة الخرطوم وهي الخطة الاساسية التي قامت عليها المدينة ولم يدخل عليها من جاءوا من بعد الا تعديلات بسيطة او امتدادات جديدة لم تكن في حسبان كتشنر وأصحابه • وكأني به يضع سابقتين خطيرتين اولاهما أن المدينة صارت منذ عهده مكان اهتمام حكام السودان مع وجود الاجهزة الادارية للمدينة والمصالح الفنية للدراسة والتخطيط • وقد يقال ان حكام عام الاتراك كانوا يشرفون على امور المدينة • وهذا أمر لا خلاف عليه ، ولكن حكام الاتراك لم يعرفوا المصالح المتخصصة في التخطيط وادارة المدن مثلما عرفت الادارة الثنائية • أما السابقة الثانية فهي انشاء المدن على مخطط معد • وأحسب أن ذلك كان أول عهد المدن السودانية بالتخطيط المسبق والنمو حسب حسبان معد ، وهذا مكان اختلاف كبير بين الخرطوم الجديدة وبين الخرطوم القديمة ومدينة أم درمان لان الاخيرتين قامتا عفوا دون تخطيط وأصاب أهل المدينتين من الضرر كثير • وتذكرنا هذه المناسبة بمنشأ عاصمتين اسلاميتين عظيمتين هما بغداد عاصمة الخلافة العباسية والقاهرة عاصمة مصر منذ عهد الفواطم • فقد أعد ابو جعفر المنصور ثاني خلفاء بني العباس خطة مدينة بغداد ثم صورها على الارض خطوطا ثم شرع يبني بعد ذلك • أما جوهر الصقلى القائد الفاطمي الذي فتح مصر للفاطميين فقد خطط مدينة القاهرة قبل أن يشرع في بنائها وانتظر حتى صعد النجم القاهر في السماء • الا أن مدينة الخرطوم تكاد تنفرد بالصلاة التذكارية التي بدأت بها وطابور الشرف وحفل العلمين •

لقد كان هدف كتشنر هو انشاء مدينة على النمط الاوربي وقد

ردد هو وزملاؤه ان سيكون لهذه المدينة مستقبل عظيم • وأحيانا كان يأخذ بهم غرور الفيكتوريين فيصرح رجل مثل الجنرال استانتن الذي أشرف على انشاء المدينة بانها ستكون أرقى وأعظم مدن القارة الافريقية• ثم يذهب عنه العجب والتيه بعد قليل فيقول أنها ستكون في مصاف القاهرة أو الاسكندرية على الاقل •

لقد قسم كتشنر المدينة الى قطاعات متعددة ، فالقطاع الاول هو ما بين شارع الخديوي (شارع الجامعة الان) وما بين النيل الازرق • وقد جعل هذا القطاع خاصا لمصالح الحكومة وبيوت موظفيها • ثم يلي ذلك القطاع التجاري وهو يقع جنوب شارع الخديوي ويمتد غربا الى المسجد الكبير وشرقا الى شارع فيكتوريا (القصر حاليا) وجنوبا الى ميدان عباس (ميدان الامم المتحدة حاليا) •

ثم يأتي وراء هذا الميدان السوق العربي وهو السوق الوطني • ان هذا القطاع ما زال يمثل مركزالتجارة والمال في القطر وقد أمتد فيالسنوات الاخيرة الى شرق شارع القصر•ويقع الىالغرب من شارعفيكتوريا القطاع الصناعي وهو مكان تجمع الصناعات الخفيفة كالحدادة والنجارة وما اليهما • أما الاحياء السكنية فتقع في القطاع الشرقي والغربي والجنوبي وتحيط بالقطاعات السابقة • وكان امتداد المدينة ينتهي بخط الاستحكام القديم الذي كان يحيط بالمدينة • وقد بلغ طول المدينة شرقا وغربا نحو ميلين وعرضها جنوبا وشمالا نحو ميل واحد • أما امتداد الاستحكام الذي يسير في خط دائري فقد كان يربط ما بين النيل الازرق في نقطة برى والنيل الابيض عند المقرن ، وقد بلغ طول هذا الخط نحو أربعة اميال ونصف ميل ، وكانت المسافة بين نهاية الخط على النيل الابيض وبين النيل الازرق نحو ميل وربع •

ولقد ألحت على كتشنر فكرتان اولهما ربط هذه القطاعات وتنسيق الخدمات فيها وقد ادخل كتشنر نظام الشوارع التي تسير من ركن مربع الي آخر لهذا السبب ، كما أنه جمع المصالح في بقعة واحدة ليسهل

الاتصال بينها ، ثم جعل قطاع المال والعمل في بقعة واحدة وجعله على مقربة من المصالح الحكومية لاهمية العلاقة بين الدولة والنشاط المالي•لقد كانت لاسباب الربط والاتصال أهمية خاصة في ذلك الزمان اذ لم تكن البشرية تعرف وقتذاك التلفونات والعربات ودراجات البخار ، وكانت غاية ما يبلغ المرء حصان سريع •

أما الفكرة الاخرى التي ألحت عليه فهي أن تكون المدينة في طابعها مدينة سكنية • ولقد كان هناك اتجاه قوي حتى سنة ١٩٠٧ لبناء السوق والحي التجاري في البر الثاني للنيل الازرق في الموضع الذي فيه الان مصلحة المخازن والوابورات ، الا أن ظروفا كثيرة قد تغلبت على هذا الامر وترك الامر على ما عليه الان • وكخطة عامة كان في باله أن يقيم الوطنيون، الا الاثرياء منهم ، في أم درمان بينما تتجه الطبقات العاملة الى مدينة الخرطوم بحرى التي كانت تنمو حول محطة السكة الحديد •

وقد قسم المدينة الى قسمين كبيرين يفصل بينهما شارع فيكتوريا الذي يبلغ عرضه ١٨٠ قدما • والقسم الشرقي كان في الغالب الاعم قسما للسكنى في حين كان القسم الغربي قسما للنشاط الحكومي والمالي • وقد جعل كتشنر ثكنات الجنود على أطراف المدينة : كان جزء من الجيش البريطاني بجوار بوابة برى خلف موضع كبرى النيل الازرق ويقابله في البر المواجه بالخرطوم بحرى جزء آخر • أما الجيش المصري فقد أنشأ ثكناته عند بوابتي الكلاكلة والمسلمية •

بدأت الحياة تدب في المدينة الخربة منذ أواخر سنة ١٨٩٩ وبدأ القوم التخطيط والبناء بعزم عظيم • وقد جند كتشنر ثلاث كتائب من الجيش المصري وعددا كبيرا من اسرى الانصار لتنظيف الشوارع من الانقاض وردم المواضيع المنخفضة من المدينة • وفي نفس الوقت بدأت الخطوط والدوائر التي اختطت على الورق تتحول الى مبان وشوارع وميادين وصار المئات والالاف من الناس يعملون وسط الانقاض للبناء• وفي وسط الانقاض اثبتت الاوتاد لتبين حدود الشوارع والمربعات وكان

المرء يرى هنا وهناك مضارب للطوب الاخضر أو كمائن للطوب الاحمر وقد استهلكت هذه العملية جانبا كبيرا مما كان متهدما •

ولم تكن أمام مخططي المدينة أو منفذي الخطة التي وضعت شيء من العقبات التي تعترض مخطط المدن في هذه الايام ، ذلك لان سلطة الحكومة كانت نافذة وكان لرغباتها طابع عسكري يصعب التصدي له • وكانت المدينة خالية من السكان خلوا تاما ولم يكن هناك ما يدعو الى الاعتبارات البشرية عند التخطيط أو عند شق الشوارع • ولهذا فان المخططين لم يتعرضوا الى الحرج الذي يتعرض له ضباط المجالس الان عندما يعترض تخطيطهم مسجد أو كنيسة أو عمارة تستحق التعويض الضخم أو منزل شخص له نفوذ • ولم يكن القوم يعرفون في تلك الايام ما نعرفه الان من المواكب والمظاهرات التي تملأ الشوارع هادرة لتبقي اعوجاجا أو تثبت أمرا لا يقوم الا على باطل ، ولم تكن لارض البناء ما نراه الان من العزة والدلال ولا كان القوم في حاجة الى لجان القرى ومكاتب الاراضي والارانيك التي تملأ ، لا اثباتا للحق والواقع وانما رغبة في الارض كيفما أتت •

ولكن مشاكل مخطط مدينة الخرطوم ومشاغله كانت من نوع آخر لا نعهده في المدينة الحاضرة الان ، ولعل أولئك الذين تولوا تعمير موطن أهل حلفا في خشم القربة قد واجهوا شيئا منها لانهم كانوا يقيمون موطنا من عدم وكانوا يحتاجون الى السوابق ويفتقرون الى الخبرة عن الارض وعن الطقس وعن كل شيء يتصل بالموطن وبث الحياة فيه • وكانت الايدي العاملة المدربة قليلة ، وكنت ترى قادما من القرية لتوه يعين حدادا أو برادا أو ملاحظا أو عاملا ذا مهنة وهو يفتقر الى أبجديات هذه الصناعة او تلك ، وانما الامر الحاجة وقلة الخبرة وبعض من الفوضى يأتي دائما مع الارتجال • وهكذا كان الامر عند مولد مدينة الخرطوم فالايدي العاملة قليلة وخبرة القوم بالموضع وتجاربهم في انشاء المدن في حكم العدم ، والمال الذي في الايدي قليل ، ومع ذلك لا بد أن يسير العمل ولا بد أن

تقوم المدينة الحديثة عنوانا للحكم الجديد •

وكان من أهم ما شغل البال واقلقه شأن اصحاب البيوت في الخرطوم القديمة والذين كانوا يطالبون بمنازلهم وبالتعويض عما لحق بها • ولما كانت الحكومة تعتبر ثورة المهدى تمردا لا يسقط حق مصر فان التخريب الذي لحق بالمدينة في هذه الفترة لا يبطل دعاويهم فيها • ومن جانب آخر فان المطالب لا بد أن تكثر ولا بد أن يكون بين الطالبين من لا يستحق • ثم كيف السبيل الى التحقق من هذا المنزل أو ذاك ، والمدينة متهدمة ، وهل يعطى صاحب المنزل عين منزله وموضعه فيه أم يعطى حسب تخطيط معد ؟ وعلى أي حال فقد كونت الحكومة لجنة من اثنين من البريطانيين واثنين من المصريين واثنين من الوطنيين هما الشيخ كرم الله وابراهيم بك خليل صاحب القصر المواجه لقصر السيد علي • وقد أعطى أصحاب المنازل مهلة سنتين لا يحق بعدها لصاحب طلب حق • وقد قامت اللجنة بالنظر في طلبات المطالبين وبحثت في شأنها واستجوبت من شاءت من الشهود ثم وضعت سجلا كاملا أوضحت فيه أسماء المطالبين وأملاكهم وأماكن تلك الاملاك ومساحاتها واعطت لكل صاحب حق صكا يثبت حقه في ذلك وحقه في امتلاك قطعة من الارض في المدينة الجديدة • وقد ترك الخيار لهؤلاء ليختاروا البقعة التي يشيدون فيها منازلهم الجديدة ، ولكن اختيارهم كان بالطبع يتوقف على القدرة على البناء واستيفاء الشروط الموضوعة لاحياء المدينة • ولما بلغت الثالثة من العمر لم يكن حالها يشجع أحدا • فقد تم بناء القصر والسكرتارية وعدد بسيط من منازل موظفي الدولة • وكان عساكر الجيش يبنون الثكنات ولكن بقي الجزء الاكبر من المدينة خربا ولم يبدأ البناء الا في مناطق محدودة • أما الشوارع فقد شق نحو الثلث منها فقط • وكان الاهالي ما زالوا يتلكأون في البناء ، وقد بنى أغلبهم بالطين لان نفوسهم لم تستقر على المدينة بعد وما زالت لام درمان بقية في النفس ، فلما جاءت الامطار وصحبتها السيول تساقطت المنازل وانهد ما شيد • وبالجملة فقد بدا ان الامل في بناء العاصمة الجديدة أمل ضعيف •

ولكن عندما حل عام ١٩٠٤ كان كل شيء قد تطور وبدأ ان المدينة تسير في طريق النمو والازدهار • فقد سويت الشوارع كلها وصار في المدينة شارع مرصوف يربط بين قصر الحاكم العام والفندق الكبير • وقد شيد عدد كبير من المصالح والمنازل منها رئاسة المديرية والمستشفى العسكري والبريد والبرق والمخازن والاشغال والفندق الكبير والسوق والمسجد الكبير وقصور يمتلكها من الوطنيين ابراهيم بك خليل والزبير باشا رحمة وسعيد المنياوي ومحمد بك حسن سرتجار أم درمان ، وغيرها كثير • ثم كان هناك مصنع للثلج في شرق المدينة وهذا أمر يعد من دلائل النعمة • وكانت هناك كلية غردون التذكارية التي بدأت الدراسة فيها ، وصار في المدينة نحو خمسة آلاف من السكان •

وفي سنة ١٩٠٦ كان هناك نشاط واضح في بناء منازل الموظفين • ولما جاءت السنة التالية شيد عدد من المصالح المهمة كمباني الري ودور ثان للكلية ومبنى الحقانية ومبنى لجنة التجارة والمستشفى الملكي الذي شيد في الطرف الجنوبي من المدينة ، وكان هذا المستشفى منذ أن افتتح قبل أربع سنوات في منزل خاص • وكان من مشاريع هذا العام متحف للآثار ، وقد خصصت له البقعة التي عليها الان السفارة العربية الا أنهم صرفوا النظر عنه بعد أن بنى أساسه ، ومن الطريف أن المتحف قد عاد الى هذا الجانب من المدينة بعد أن استقر في طرفها الشرقي نحو نصف قرن أو يزيد • وفي هذه السنة دخل النور الكهربائي عوضا عن فوانيس الزيت وبات الماء يأتي الى المنازل بمواسير مدت تحت الارض بعد أن كان يحمل اليها على ظهور الدواب •

وشيئا فشيئا امتد العمران الى أطراف المدينة وارتفع عدد السكان وفي نفس الوقت كانت مدينة الخرطوم بحري تبدأ مسيرها في حياتها الجديدة بعد أن انتهى اليها خط السكة الحديد • أما أم درمان فقد توقف تطورها بعض الشيء لان الناس كانوا ينتقلون منها الى المدينتين الجديدتين عبر النهر لان اهلها كانوا في حيرة منذ أن تقرر نقل العاصمة منها • ثم

عادت اليها الحركة بعد أن شيد الكبرى على النيل الابيض وصار الانتقال منها واليها امرا ميسورا ، ولما كان ثمن الارض بها أقل من ثمن الارض في الخرطوم فقد اتجه تيار الهجرة والبناء اليها وبالتالي استوعبت هذه المدينة عددا هائلا من العمال، الذين كانوا يقطنون في الخرطوم بحرى او أطراف مدينة الخرطوم •

وكان هناك عدد من الاجانب يمتلكون المنازل والدور في المدينة القديمة فلما تم الفتح صار لهم الحق في التعويض عينا لان الحكومة الجديدة أباحت لهم ذلك ولانها كانت تسمح للاجانب تملك أرض البناء في المدن بينما هي تمنع تملكهم للارض الزراعية • وفي الواقع كان هؤلاء اول من وفد من الاجانب الى المدينة الجديدة • غير ان اغلب الملاك كانوا من المصريين ، وهؤلاء صاروا يعزفون عن الهجرة الى السودان أو العمل فيه مرة أخرى بعد التجارب التي تعرضوا لها في فترة المهدية ولهذا صاروا يبيعون أراضيهم للقبارصة والاغاريق • وحتى عام ١٩٠٦ كانت الحكومة تبيع أرض البناء بالمزاد العلني ، وكان المزاد مفتوحا للجميع دون نظر للجنس او الوطن او اللون ، وهذا اعطى فرصة أخرى للاجانب • وكانت الحكومة عند توزيع الارض قد اشترطت على أصحابها أن تكون المباني والدور كامله في ميعاد محدد ، فلما أزف ذلك الميعاد والبيوت لم تكتمل باع أصحاب الاراضي قطعهم للاجانب الذين كانت لهم قدرة على البناء• وعلى العموم فقد كان الاجانب يملكون المال ولم يستطع الوطنيون مقاومة سحر هذا المال ، وبدأت حمى الامتلاك وارتفع سعر الياردة المربعة من الارض من ثلاثة الى عشرة مليمات الى جنيهين وثلاث جنيهات • ومن الحق أن يقال أن هذه الازمة لم تكن ذات أبعاد محلية فقط وانما كانت امتدادا لازمة الارض في مدن مصر ، حيث تكالب تجار القاهرة والاسكندرية على ارض المدينة ، وكان جلهم من الارمن والقبارصة واليونانيين ، وهذا أعطى مجالا للثراء وأضحت الارض تجارة رائجة وصار الناس يحصلون على الارض لا للبناء وانما للمتاجرة بها •

وكان من أثر ذلك أن أبطأ نمو الدرجتين الاولى والثانية لان أصحابها كانوا دائما يتطلعون الى من يدفع وليست لهم الرغبة في البناء • ونظرا لذلك أوقفت الحكومة مزادات البيع ، غير ان هذا ادى الى أرتفاع سعر الارض لقلة العرض في وقت تنمو فيه المدينة ويزداد الطلب من الخارج •

ولما جاء عام ١٩٠٧ أحجم الاجانب عن الشراء لان أزمة الارض في مصر تنفست بعض الشيء ولانهم حازوا على طرف من الخرطوم ليس بالقليل ، وكان هذا كارثة حقيقية للمرابين والمغامرين في الخرطوم الذين كسدت تجارتهم بعد أن وضعوا فيها أموالا جسيمة استدانوها بالارباح • ولما لم يجدوا من يشتري اتجهوا الى الحكومة يشكون الحال ويلحون عليها وقالوا في مطالبهم الا تبنى الحكومة المنازل لموظفيها لكي يؤجر هؤلاء الموظفون دورهم وطلبوا الا تبيع الحكومة مزيدا من الارض قبل أن تنحسر الازمة ، وكأني اراهم يصنعون ما يصنعه أخوان لهم الآن ملكوا أرضا كثيرة وشيدوا عددا من القصور اودعوا فيه مالا وافرا ، ولما لم يجدوا من يسكن القصر ويرد لهم بعض ما وضعوا ظلوا كما ظل السابقون يلحون على الدولة فيما لا تملك ويتخذون دور الحكومة عوضا عن الحظ الذي لم يأت بعد ، وغدا يلحق بهؤلاء وأولئك أخوان لهم لم ينتظروا الثراء في الارض ويبغون الاستقرار فيها ، وهذا محض سراب لان الارض عادة لا ترد الا بعد طول زمن ، ولان بعض ما شيد لن يجد من يسكن فيه ويدفع الايجار الموعود ، ولان هذا نفسه يؤدي الى البوار ، فها نحن نرى الاف المنازل تشيد والاراضي توزع باليمين واليسار ، لمن لهم القدرة ولمن ليست لهم القدرة ، وتتحول المدخرات وما يستدان من الاموال الى طين وطوب وحجر وتظل جدرانا ساكنا لا دور له في التنمية• ترى لو قدر لنا أن نصرف المال الوافر الذي صرف في امتداد المطار في قطاع الصناعة والزراعة ، وحولنا ما فيه من الطوب والحجر والاسمنت والحديد الى المشاريع وجعلنا ما صرف فيه من العملة الصعبة للالات

والروافع ، كم مصنعا كنا نشيد وكم من المزارع نقيم وكم اسرة كـــان يكون لها عائد من هذه الثروة •

قسمت مدينة الخرطوم الى احياء متعددة كان أولها حي الدولـة والسلطة الذي يقع على الجانب الجنوبي من النيل الازرق • أما الاحياء السكنية فقد جعلت في ثلاث درجات متفاوتة هي ألاولى والثانية والثالثة وحددت لكل درجة مواصفات خاصة • فبيوت الدرجة الاولى لا بد أن تكون بالحجر أو الطوب الاحمر وينبغي الا تقل تكاليف المنزل الواحـد عن خمسمائة جنيه • وبيوت الدرجة الثانية لا بد أن يكون سورها بالحجر أو الطوب الاحمر ، أما الحجرات فيجوز بناؤها بالطين ، وينبغي الا تقل تكاليف المنزل الواحد عن ثلاثمائة جنيه • والدرجة الثالثة يجوز البنـاء فيها بالطين مطلقا ولم يحدد للمنزل مستوى معين •

وكان الحي الحكومي ممتدا شرقا وغربا كما هو الان على الجانب الجنوبي من النيل الازرق ، وهو يبدأ من بوابة برى القديمة ويستمر غربا حتى حديقة الحيوان ، والى الغرب من هذه الحديقة والشرق كانت تقـع الجنائن التي اشتهرت بها المدينة القديمة وكانت هذه المنطقة على اتساع عظيم غير أن العمران امتد اليها فانحسرت غربا شيئا فشيئا •

وكانت هناك حلة صغيرة تدعى ديم ابو حشيش ، وقد نمت هـذه الحلة حول الترسانة الحكومية وسكنها عمالها ، وبجوارها كانت تقع أرض غير معمورة بين النيل الابيض والنيل الازرق وتغطيهـا ميـاه الفيضان فتتحول الى برك ومستنقعات تتولد فيها الحشرات وتساعد على انتشار الاوبئة • وكان المستر استانتن الذي كان من أوائل مديري مديريـة الخرطوم قد اختط مشروعا كبيرا لتعميرهذه المنطقة وبناءرصيف كبيريحجز مياه النيل الابيض غير أن مشروعه اهمل لضخامة تكاليفه وضخامة الجهد الذي يتطلبه ، وكان اساس المشروع هو تغطية تكاليفه بقيمة أراضـي المنطقة التي تقرر بيعها بالمزاد بعد اعدادها ، غير أن انخفاض سعر الارض قد قضى على هذا العمل •

والواقع أن تأجيل تنفيذ هذا المشروع قد أدى أيضا الى أستقرار مصلحة الوابورات وجانب من الجيش في الخرطوم بحرى ، الاولى غرب الكبرى والثاني شرقه ، والى بناء الأسكلة بصفة مؤقتة بالقرب من ديم أبي حشيش . وسنعود الى ذلك كله في مكان تال .

وكان شارع النيل أو بالاحرى الطريق الذي على النيل ، لانه كان في الاصل عبارة عن ممر ضيق بين النيل وبين المنازل التي تطل عليه ، قد ذهب أغلبه بفعل الفيضانات أيام المهدية والتآكل المائي ، وقد ذكر الرواة انه لم يبق من الترسانة الا أساس قديم كان يرى داخل النهر ، وذكروا أن ما تآكل في هذا الموضع يبلغ نحو خمسين أو ستين قدما . ويبدو أن اتجاه تيار الماء الى هذه النقطة كان شديدا لان التآكل أتى على هـذا المقدار كله في بضع سنوات ، ولما شيد الرصيف وواجه التيار جبهة صلبة عاد بعنفه الى الشمال وأخذ يأكل من الجانب الجنوبي الغربي من جزيرة توتي ويترك طينا خلفها من جهة الغرب ويبدو أن رصيف الوابورات في الجهة المقابلة يخلق وضعا مشابها اذ أن التيار يأكل من شرق توتي ويخلف طينا جنوب الخرطوم بحرى الى جهة الغرب . وعند القصر تآكل الرصيف ولم يبق منه الا نحو مائتي ياردة شرقا وغربا . وقد أتى النيل أيضا على عدد من السواقي كانت مقامة في الجانب الغربي من المدينة ، وهنا وهناك كان يرى المرء المشارع القديمة المبنية بالحجر وقد نخر الماء فيها بينما ابتلع بعضها ابتلاعا . وقد ردم الانجليز جانبا كبيرا من النيل ليستردوا ما أخذه النيل وليجعلوا بين النيل والدور التي تطل عليه شارعا هو شارع النيل الان ، وقد بلغ ما ردم أمام القصر وأخذ من النيل نحو تسعين قدما ، وفي داخل ذلك ردم الرصيف القديم الذي هو الان تحت الشارع ، وقد وضعت الحكومة مشروعا ضخما لردم المواضع من النيل في منطقة المقرن لاستعادة ما سلبه النيل الا أن ضخامة التكاليف قد ألحت حتى أفضت الى تأجيل المشروع ثم الانصراف عنه كليا مع مرور الايام .

وكان موضع المصالح هذا هو موضع مصالح الدولة في أيام الترك .

وكان في الجانب الغربي منه بيوت الاثرياء من الاجانب والاهالي ثم بعض الحدائق • وقد استولت الحكومة على هذه الاراضي ودفعت لاصحابها تعويضا بلغ ١٨ جنيها للفدان الواحد • وكانت قصور الاثرياء ظاهرة عند الفتح ، ولم تمتد اليها يد التخريب أيام المهدية بمقدار ما امتدت الى الاجزاء الاخرى من المدينة لانها كانت محاطة باسوار عالية قوية ، ولان الانصار كانوا يعنون بهذه الجنائن ويستفيدون من انتاجها• وقد تقدم انهم أمموا هذه الجنائن وجعلوا لها ادارة خاصة تابعة لبيت المال •

ويفصل الحي الحكومي عن الاحياء الاخرى شارع الخديوى (شارع الجامعة الان) • وكان بهذا الموضع شارع قديم كان فاصلا بين مصالح الدولة والاحياء السكنية في أيام الترك •

وكان اول بناء يقام في الحي الحكومي بل في المدينة كلها ، منزل مؤقت خصص لسكنى مدير المخازن ، وكان موضعه حديقة السودان كلب الان ، وقد ازيل هذا المنزل في ١٩٠٤ • ثم شرع في بناء قصر الحاكم العام في ١٨٩٩ وقام بناؤه على الاساس الحجري القديم تخفيضا للنفقات، وكان بناؤه بالطوب الاحمر الا أن اركانه بنيت بالحجر ، وقد اكتمل البناء في أوائل ١٩٠٠ ودخله ساكنا السير جون والليدى ماكسويل وكان ماكسويل هذا يقوم بأعباء الحاكم العام منذ سافر كتشنر الى جنوب أفريقيا ليشترك في حرب البوير ، وكان اول من يسكن فيه بصفته حاكم عام السودان الجنرال ونجت باشا ، وقد أعد القصر نفسه ليكون مسكنا للحاكم العام ومقرا لعمله •

وكان القصر يتكون من ثلاثة أدوار ويرفرف في أعلاه العلمان المصري والبريطاني • وله ثلاثة أجنحة ، جناح رئيسي يقابل النيل ويمتد شرقا وغربا وجناح باليمين وجناح باليسار يمتدان من الجناح الرئيسي الى جهة الجنوب ، والبناء كله يمثل نصف مربع ، وليس فيه من عبقرية العمار شيء ، الا أنه على أي حال قصر جميل يوحى بالهدوء وبعض الشاعرية

اذا نظر اليه المرء من داخل الحديقة ، وأحسب ان ذلك عائد الى جمال الفرندات • أما من جهة النيل فان منظره كئيب وربما كانت آثار السلطة والتسلط باقية فيه ، حيث كان الحرس الاحمر ذو العين الازرق وحيث يسنع الضجيج وضوضاء الشوارع وحيث البوابتان الحديديتان اللتان تقفلان ليلا ويشعران الداخل بانه يدخل منطقة محظورة • أما من طرفه الجنوبي فان القصر يقبل على المدينة بظهره اذ بين مبناه وبين الشارع حديقة واسعة ثم مساكن الحرس وسور عال واشجار تخفي ما وراءها •

وأحسب أن القصر بحاله الان يحتاج الى بعض النظر • فما كان يحسن أن تشيد المنازل في طرفه الجنوبي الذي يواجه المدينة • وأحسب أنه من الرأي ان تزال الملحقات التي بشرقي المدخل الشمالي وان تنقل البوابتان شرقا وغربا وان توسع الحديقة الصغيرة التي أمام القصر حتى تبلغ نهايتي القصر من الشرق والغرب •

وقد شرع بعد القصر في بناء دور اخرى لاعمال الدولة ولسكنى كبار الموظفين • وفي سنة ١٩٠٠ شرع في بناء السردارية وهي وزارة المالية الان ، وانشيء منزل السكرتير المالي ومنزل مدير الخرطوم • وفي هذه السنة أيضا وضع اللورد كرومر وكتشنر أساس كلية غردون التذكارية التي اكتتب لها الشعب البريطاني بسخاء إثر نداء اللورد كتشنر تخليدا لذكرى الجنرال غردون باشا ، ذلك المسيحي العظيم الذي ذبحه ــ فيما وصفوا ــ برابرة أفريقيا المتوحشون والمسلمون المتعصبون على أبواب قصر الحكمدارية • ولقد ارتبط اسمه بمحاربة الرق •

وكانت لجمعية محاربة الرق سطوة وقوة في الدوائر السياسية ولها نفوذ في الصحافة لا يقاوم • كذلك ارتبط اسمه بالمسيحية لانه كان رجلا متدينا وذا ميول صوفية • وبمرور الزمن صارت شخصية غردون اسطورة شعبية تتجمع حولها الاساطير وتنسج حولها البطولات وتصوره الناس شهيدا من أجل المسيح ومن أجل المدنية • ولقد ارتبطت هذه الصورة مع نداء التنصير الذي نادت به الجمعيات التبشيرية فنجحت حركة التبرعات

وقامت كلية غردون التذكارية ، تلك المؤسسة العظيمة التي ندين لها جميعا • ولا يحسبن القارىء ان الدروس قد بدأت في هذا المبنى وانهم انتظروا حتى يفرغ من البناء ، فقد بدأت الكلية فصولها في ام درمان ثم انتقلت الى الخرطوم بعد ان اكتمل بناء المباني •

وتلت الكلية منازل اخرى كمصلحة الري والحقانية وامتدادات الكلية والمستشفى والمديرية وكان هناك مجمع للمصالح شيد في الموضع الذي فيه الان وزارة الزراعة ، وكان يتكون من دورين • وحتى تشييد هذه المصالح كانت مصالح الدولة في أم درمان ثم بدأ انتقال المصالح شيئا فشيئا حسب أسبقيات البناء ، وقد اكتمل ذلك بعد وقت ليس باليسير •

وفي نفس الوقت بدأ انشاء الرصيف على النيل والاهتمام بالشارع الذي يسير حذاءه • وكان أول جانب من الرصيف يشيد هو الذي يقع أمام القصر ، ثم امتد الرصيف من هنالك شرقا وغربا • وجاء أول امتداد له الى الشرق حتى مباني مصلحة الاشغال • وقد تم ذلك في سنة ١٩٠٤ وفي ١٩٠٦ بلغ الرصيف مشرع الخرطوم بحري ، وكانت به معدية بخارية تربط المدينتين • وفي سنة ١٩٠٧ رصف ما بين القصر وما بين مبنى البريد والبرق (وزارة الداخلية حاليا) ، ثم وصل الرصيف امام الفندق الكبير • ولحماية منطقة المقرن من التآكل المائي الذي كان يسير بدرجة خطيرة فقد شيد في سنة ١٩٠٧ رصيف طوله خمسمائة ياردة ، وكان عمق الرصيف في هذا الموضع بعيدا والرصيف نفسه متينا لان النية كانت تتجه الى اقامة ميناء للبواخر هنا وتوصيل الخط الحديدي اليه ، ويذكر أحد مخططي هذا الرصيف انه لا بد ان يمتد من بوابة برى حتى التقاء النيلين في المقرن وقدر أنه يبلغ كماله في نحو خمسين سنة ، والان وبعد ما يزيد على الستين سنة من هذا القول نتساءل هل بلغ الرصيف مبلغه ذلك ؟ الواقع ان الرصيف قد اهمل في جانبه الشرقي ابتداء من وزارة الصحة •

وان منظر الجروف أمام جامعة الخرطوم لمنظر موحش ، وفي هذا

الموضع اتساع ظاهر في الرقعة بين النيل والشارع ، وربما يكـون هناك مجال لانشاء حديقة صغيرة في هذا الموضع ، او اقامة مبان تابعة للجامعة وحبذا لو أقيمت فيه مكتبة الجامعة .

كان قوام خطة الشوارع التي اختطها كتشنر باشا ثلاثـة شوارع رئيسية تسير شرقا وغربا في محاذاة النيل وهي شاع الخديو شارع الجامعة حاليا ــ وشارع عباس وشارع السلطان ثـم أربعة شوارع رئيسية تسير شمالا وجنوبا وهي شارع كتشنر وشارع الملك وشارع فيكتوريا وشارع محمد علي . وعندما تتقاطع هذه الشوارع تتكـون مربعـات كبيرة من الارض تحيط بها هذه الشوارع الرئيسية من كل جهة وقد قسمت هـذه المربعات بستة شوارع تقطعها شرقـا وغربـا وشمالا وجنوبـا في محاذاة الشوارع الرئيسية ، وهكذا يصير لدينا ١٦ مربعـا صغيرا في داخل كـل مربع كبير يبلغ كل منها نحو ٥٠٠ ياردة مربعة وهناك شارعان كبيران على اتساع الشوارع الرئيسية تقطع المربع الكبير من ركن الـى ركن وبما ان المربعات الكبيرة متصلة ببعضها البعض فان هذه الشوارع تربط أطراف المدينة بوسطها في اتجاه مائل يعترض الاتجاه المستقر عـلى اتجاه النيل والاتجاه المتفرع عنه .

وعند التقاء الشوارع الرئيسية والشوارع التي تقطع من ركن الى ركن تتكون مربعات دائرية صغيرة ، واذا تمثل المرء صورة هذه المربعات والشوارع التي تقطعها وتلتقي مع بعضها البعض لتبين لـه ما على العلم البريطاني من خطوط وادرك الشبه بينها وبين العلم البريطاني ، وهذا مـا أراده اللورد كتشنر ، اذ لم يكفه رفع علم أمته على القصر المتهدم فشرع يرسم هذا العلم على أرض المدينة ، وفي ذلـك بعض خيلاء جيله مـن البريطانيين الذين كانوا يرون أنفسهم فوق كل الناس وحضارتهم فوق كل الحضارات وعلمهم هذا رمزا لكل هـذه العظمة والامبراطورية التـي لا تغرب عنها الشمس ، وعندي ان تصرف كتشنر هذا كان كتصرف الطفل الذي يود أن يحفر اسمه في كل حائط جميل تقع عليه عينه ، وعندي أيضا ان تصرف كتشنر ازاء البلاد التي فتحها وازاء اعدائه وخصومه العسكريين

لم يكن فيه ما يدل على الحضارة او التحضر ، فقد أتى بقائد واقعة عطبرة محمود ود آحمد وسلمه للعساكر السود ليسيروا به في شوارع بربر وهم يضربونه بالسياط ، مع ان محمودا كان رفيق سلاح واستحق عطف اعدائه الاخرين وتقديرهم ولم يكن يدفع كتشنر الـى ذلك الا المقاومة العظيمـة التي قادها هذا البطل ثم ان كتشنر أبـــاح لنفسه ان يحطم دور العبادة وصوب مدافعه الى قبة المهدي واستباح المدينة التي سلمت له على اشلاء أبطالها كما كانت تباح المدن في القرون الوسطى وأعاد الى الاذهان ما كان يفعله تيمورلنك وهولاكو بأعدائهم والمدن التي تقع في أيديهم • اين هذا المغرور الفظ من أولئك الذين كانوا يحرصون على حياة غردون وهــو الخصم الالد ويؤكدون على الاصحاب وهم على أبواب المدينة علـى الا يتعرضوا لهذا الجنرال وغيره من كبار المدينة •

على أن هدف كتشنر الاكبر من التخطيط الذي وضعه للمدينة كان في المقام الاول عسكريا اذ أن مدفعا واحدا يوضع في ميدان مــن الميادين الدائرية الصغيرة يمكنه من السيطرة على قطاع كبير من المدينـة سيطرة تامة كما أن الشوارع المتقاطعة كانت تسهل الانتقال من طرف الى اخــر وتقرب المسافات واثر هذا كله واضح الان في مقاومة المظاهرات والمواكب اذ أن كثرة الشوارع المتفرعة عن هذه المواضع واتجاهها الى مناطق متفرقة يسهل استيعاب جماهير المظاهرات وبالتالي يقلل من احتمالات الاصطدام بين الجماهير والبوليس ويضمن تشتت المتظاهريـن وتفرقهـم • وكأني بكتشنر كان يحس في قرارة نفسه ان هذه الامة لا تقاد له ولا تصبر على حكمه ، بل هي ثائرة عليه وآتية اليه كما أتت علـى رفيقه غردون ، ولهذا فلا بد له من ان يعد نفسه لليوم ويعـد مدينته للمقاومة • ولامر ماكان الانجليز يتوقعون كرة أخرى من انصار المهدي يعودون كما كانوا حربـا عليهم ومقاومة لهذا الحكم الذي فرض عليهم ، ويعيدون مجدهم الغابر ، ولهذا ظلوا يراقبونهم مراقبة شديدة ويحصون نشاطهم احصاءا ويأخذون عليهم كل كبيرة وصغيرة ويحسبون لكل حركة حسابا •

ومع أن تخطيط شوارع المدينة على هذا المنوال كـان يخدم هـذه

الاغراض العسكرية ويربط أجزاء المدينة إلا أنه قد أضحى لا يلائم طبيعة المواصلات الحديثة لانه يعرض السيارات الى الاصطدام في نقاط الالتقاء كما أنه يخلق لسانا قبيحا عند نهاية الشوارع الركنية • ولولا أن الشوارع واسعة بعض الشيء ولولا تربيعات المرور وعلاماتها التي تدعو الى تخفيض السرعة والسير دائريا لتعرض الناس الى كوارث لا حد لها من كوارث المرور •

وتفاوتت أبعاد الشوارع واتساعها من مكان لآخر • وكان أوسع شوارع المدينة هو شارع فيكتوريا الذي بلغ عرضه ١٨٠ قدما والذي كان يقسم المدينة الى نصفين ويلي ذلك في الانساع شارع الخديوي الذي بلغ عرضه ١٥٠ قدما • وهو الشارع الذي يفصل بين الحي الحكومي والاحياء الاخرى أما الشوارع الرئيسية الاخرى ومن ضمنها الشوارع التي تقطع المربعات من ركن الى ركن فقد جعل لها اتساع موحد بلغ حده ١٢٠ قدما • أما الشوارع الثانوية وهي التي تقع داخل المربعات الكبيرة فكان اتساعها ٨٠ قدما •

والشوارع التي اطلق عليها أسماء معينة في أول الامر هي الشوارع الرئيسية السبعة التي سلف ذكرها • وكانت القاعدة الرئيسية هي وضع ارقام للشوارع • فالشوارع التي تسير مع اتجاه النيل رقمت بالارقام المفردة ابتداء من شارع النيل ١ ، ٣ ، ٥ ، ٧ ، ٩ الخ ••• بينما أخذت الشوارع التي تسير شمالا وجنوبا الارقام الثنائية مبتدئة من الشرق ، ٢ ، ٤ ، ٦ ، ٨ الخ •• ولما أقبل القوم على اطلاق الاسماء على الشوارع جعلوا للشوارع الرئيسية أسماء كبار الانجليز والمصريين كشارع غردون وشارع كتشنر وشارع محمد علي وشارع الخديوي • وجعلوا للشوارع الثانوية أسماء بعض المشاهير الذين كان لهم دور في تاريخ السودان ممن هم في نظرهم دون أصحاب الشوارع الكبيرة ومن هؤلاء بيكر والزبير باشا واستيوارت وهاشم بك والنجومي وجس • وهناك شارع يحمل اسم أسرة هو شارع أبي سن ولما تقرر اطلاق هذه الاسماء اتصل الحاكم العام بذويهم يبشرهم بهذا الشرف وقد اتضح في بعض الحالات أن أهل

بعض هؤلاء الاعلام نكرات لا يعرف العالم عنهم ولا يعرف لهم أقارب • وقد آخذ أحدهم من وقته طويلا يبحث عنه في اسكتلندا • فاذا بـه يعلم بعد زمن من آنه من ويلز • وانما أسوق هذا لاننا متهمون بالغفلة عـن أبطالنا واهمال شأنهم • اما الشوارع التي تسير من ركن الى ركن فقـد حملت آسماء المواقع التاريخية الكبرى كعطبرة وكررى •

والحق آن القوم كانوا مأخوذين بنصرهم على قومنا معتزين بالمعارك التي خاضوها وهكذا خلدوا ذكراها بهذه الشوارع كما خلدوها ببعض البواخر النيلية التي حملت أسماء بعض المواقع التاريخية بجانب أسمـاء شلالات النيل •

ولعلنا نتعجب بعض الشيء من هذا الاتساع العظيم الذي تميزت به شوارع الخرطوم مع آن القوم كانوا يعتمدون في الانتقال على الدواب من جمال وحمير وبغال وخيول ولم تكـن عندهم السيارات والترامـات والعجلات وكل ما يملأ شوارعنا اليوم من صنوف المواصلات • اذن لمـا كان هذا الاتساع لـم يكن للزحـام في الطريق ، كـان الهـدف هـو خلق ممرات واسعة للهواء تهيئة للجو الصالح لسكنى الاوروبيين الذين كانوا يخشون على انفسهم من الازدحام ومن جو أفريقيا وقد ظهـر نفس الاتجاه في تخطيط المنازل في الحي الاوربي ، اذ أحاطوا المنازل بالحدائق والفسحات •

ولكثرة الخرائب ومخاطر الطريق ليـلا اضيئت الاجزاء المهمة مـن المدينة بفوانيس توقد بالزيت اقيمت على عمدان في أطراف الشوارع وقد أدخل نظام الاضاءة العامة في المدينة في عام ١٩٠٠ ولما دخلـت الانـارة الكهربائية في سنة ١٩٠٧ كان هناك نحو ٣٠٠ فانوس ، وكان مما عجـل بدخول الكهرباء ان هذه الفوانيس كانت تكلف الدولة مبلغا جسيمامع أنها محدودة الاثر ، وقد قدر ان الفانوس الواحد كـان يكلف ١٢ قرشا في الشهر • وعلى ذلك فان فوانيس الشوارع كانت تكلف الدولة نحـو ١٥٠٠ جنيها في السنة وهو مبلغ جسيم بالنسبة لظروف ذلك الزمان ومع

ن الكهرباء تكلف أقل من ذلك وتعطي اضاءة اكثر فان متاعب الانارة لم
نته لان الوابور الذي استجلب لهذا الغرض كان عتيقا • ولكن القوم على
ي حال كانوا سعداء بهذا الذي أصابوه من بركات الحضارة وآيات
التقدم •

وكان اول عهد شوارع الخرطوم بالاشجار اشجار اللبخ التي استجلبت من مدينة حلفا وزرعت في أربعة صفوف على طرفي شارع الخديوي ـ شارع الجامعة حاليا ـ ، ما بين كلية غردون التذكارية ومبنى المديرية • وقد نبتت هذه الاشجار ببطء شديد ومات منها عدد كبير • ثم استجلب كتشنر ألف شجرة من الجميز من مصر وزرعها في حديقة القصر ولكنها ماتت ولم يبق منها الا شجرة واحدة تركت لتنمو في الحديقة تذكارا لغارسها • وقد استجلب القوم بعد ذلك أنواعا أخرى من الاشجار من مصر ومن الهند ومن أعالي النيل لتظلل بها شوارع الخرطوم وعاني القائمون بأمرها صنوفا من العراقيل • فاغنام الاهالي التي تمرح في المدينة كما تمرح الابقار في شوارع الهند كانت تقضي على الاشجار وهي صغيرة • ولما لم يكن من السهل ايقافها كما هو الحال الان فان المسئولين أحاطوا الاشجار بسياج من جريد النخل يصنعها ضعاف المساجين اتقاء لشر الغنم • وكانت هنالك الاهوية العارمة والاعاصير التي تهب على المدينة وتقضي على الاشجار وخاصة الاشجار الناجحة التي اتسع رأسها لتسع حمل الهواء ، وكأني بهذه الأهوية تقصد من أشجار الشوارع ما تنجو من الغنم وتختار أنجحها وأكبرها • وقد هبت عاصفة هوجاء • كتلك التي تهب على اليابان في اغسطس ١٩٠٦ وقضت على اغلب الاشجار في المدينة واصابت القوم بخيبة عظيمة وفي نفس السنة وفد الجراد وقضى على أشجار اللبخ التي زرعت على اطراف شارعي السردار وفيكتوريا • وكان هناك النمل الابيض وهو عدو لئيم لا يقل خطورة عن الجراد او الغنم • على أن العقبة الكبرى كانت رداءة التربة وقسوة الجو وقلة الخبرة وقد تمكن القوم من اجتياز هذه العقبات شيئا فشيئا وعرفوا الاشجار التي تصلح لشوارع الخرطوم وتوائم طقسها • وقد رتب

المسئولون ثلاث نساء ليقمن بالسقي ثم حصلوا في سنة ١٩٠٧ على عربة تجرها الحيوانات وتحمل الماء للاشجار •

والشارع نفسه مقسم الى اقسام ، ففي الوسط يكون أصل الشارع الذي يسر به الراكبون وهو يبلغ ثلث الشارع •• وهو الذي صار الان للعربات • وقد رصف هذا القسم بالحجر اذا كان الشارع رئيسيا ، ويأتي على طرفي هذا القسم ممران يكون كل منهما ثلث الطريق ، وقد اعدا لغير الراكبين • ثم يأتي وراء ذلك صف من الاشجار واذا كان الشارع مهما كشارع فيكتوريا يكون هناك صفان من الاشجار ويؤخذ على هذا النوع من التخطيط أنه يجعل الظل في طرفي الشارع بينما يتعرض وسطه للشمس وأفضل من ذلك ان نجعل صفا من الاشجار في وسط الشارع ثم نجعل طريقين على جانبي الصف ، لكل اتجاه طريق ، ثم نجعل على طرفي الشارع صفا اخر من الاشجار يسير تحته السائرون • هذا اذا كنا نريد أن تتقي من حرارة الشمس ولكن كثرة الاشجار ووجود صف منها في وسط الشارع قد يكون شاغلا لاصحاب العربات وقد لا يضمن المرء غفلة المارة الذين يفاجئون السائقين من خلف الاشجار ويكونوا ضحية الطريق•

(٨) امتدادات الخرطوم

بينما كانت مدينة الخرطوم تنمو وتتسع على هدي الخطة التي وضعها اللورد كتشنر والتي وصفنا تفاصيلها في الفصول السابقة كانت تلوح في الافق منذ أيامها الباكرة رياح التغيير والتعديل وتتجمع الرغبات والدواعي التي تدعو الى اعادة النظر في هذا التخطيط وكانت أولى هذه الدواعي ان المدينة الجديدة قد انشئت في مكان المدينة القديمة دون نظر أو اعتبار لوجود مدينة أم درمان كمدينة متصلة بالعاصمة الجديدة ، وكان من أثر ذلك أن تركت منطقة المقرن الممتدة من النيل الابيض حتى حديقة الحيوان خالية من العمران . ولو أنهم نظروا الى العلاقة بين المدينتين وحسبوا حسابها لادخلوا هذه المنطقة في التخطيط ولما تركوها خرابا يقطعه المرء وهو ينتقل من هذه المدينة لاختها . وكان من أثر ذلك ايضا ان مدينتي أم درمان والخرطوم بحري لم تقترنا مع مدينة الخرطوم في مجال التخطيط حتى ١٩٠٧ وان ادارات هذه المدن ظلت منفصلة عن بعضها البعض حتى انشيء مجلس بلدي موحد لها في ١٩٢١ ويخيل للمرء ان مرد هذا النقص راجع الى أمرين أولهما ان يقوم القصر الجديد مقام القصر القديم تخليدا لذكرى غردون وردا لاعتباره وان تقوم عاصمة الادارة الجديدة حيث كانت عاصمة الادارة القديمة تأكيدا لامتداد النظام القديم وبعثا له واهمالا لنظام المهدية ومؤثراتها السياسية والاجتماعية .

أما الامر الثاني فهو ان الفاتحين كانوا يحسبون ان عاصمة الانصار ستموت لا محالة بقيام العاصمة الجديدة .

وكان من الدواعي الداعية للمراجعة أن مخططي المدينة كانوا في أول أمرهم على خلاف كبير حول مستقبل المدينة وعلى أي صفة تكون . فقد

ذهب قوم الى ان تكون المدينة مدينة سكنية للعناصر الاوربية والقطاع المتقدم من الوطنيين الاجانب وبأن تكون الاعمال التجارية وسائر ضروب النشاط في مكان غير الخرطوم • وكان هناك آخرون ينادون بأن تكون المدينة كاملة التكوين وأن تتسع لضروب الاعمال وسائر جوانب الحياة • وقد أطل هذا الخلاف وظهر بسداه الواسع عندما نظر في أمر الامتداد الغربي للمدينة وموضع الميناء النهري •

وكان هناك التقدم الحضاري والنمو التجاري والتوسع الاقتصادي الذي بدأ ينتظم القطر بعد استقرار الاحوال ومد السكة الحديد وانتعاش التجارة مع الخارج وكان هناك الزحف من اجل الارض بعد ان امتدت أزمة أرض المدن في مصر الى الخرطوم مما دعا الحكومة الى توزيع مزيد من الارض وتوسيع رقعة المدينة • ولما أقيم الكبرى على النيل الازرق ومدت السكة الحديد الى الخرطوم زاد ارتباط المدينة بالخارج كما أضحى واضحا ان خريطة المدينة تحتاج الى مراجعة ونظر لرسم مكان الخط الحديدي واختيار مكان محطة السكة الحديد وتحديد ارتباط هذا الخط بالرصيف النهري والترام البخاري ومعديات النيل الازرق والنيل الابيض • ولما جاء كبري النيل الابيض زاد ارتباط المدينة بمدينة أم درمان • وقد صاحب انشاء الكبريين تحول بشري كان له أثر كبير في مجتمع المدينة • ففي أول الامر كان اغلب العمال وصغار الموظفين الذين يعملون في الخرطوم يسكنون في الخرطوم بحري هربا من الايجارات الكبيرة في الخرطوم بينما كان يسكن بعضهم في أطراف مدينة الخرطوم • فلما أنشيء الكبري على النيل الازرق وصار الاتصال سهلا وميسورا بين الخرطوم والخرطوم بحري زحفت الطبقات الفقيرة الى المدينة الاخيرة هربا من الايجارات المرتفعة في الخرطوم ولما انشيء الكبري الثاني على النيل الابيض كان هناك تحول بشري هائل نحو مدينة أم درمان لان أرض أم درمان كانت أرخص من الارض في الخرطوم والخرطوم بحري ولان ايجاراتها كانت منخفضة ولان آغلب العمال كانوا في الاصل من سكان أم درمان الذين انتقلوا الى المدينتين الجديدتين ليكونوا على مقربة من أماكن العمل •

وبتطور الحياة ونمو المدينة ظهرت الصناعات الصغيرة كالنجارة والحدادة وما اليها وصار لها رواج عظيم واذا أهمل التخطيط الاول هـذا الجانب فقد صار لازما أن يعد له مكان مناسب في المدينة ولما جاءت السيارات والدراجات ظهر أن شوارع الخرطوم المتقاطعة تعرض السيارات والمارة الى مخاطر الحركة ، وقد استلزم ذلك أن يعاد النظر في تخطيط الشوارع وان يحسب حساب السيارات وسائر ضروب المواصلات السريعة .

وعلى العموم فان التقدم الحضاري والمادي الذي شمل القطر بعد الفتح والوعي الذي صاحب ذلك كان من شأنه ان يؤثر في حياة المدينة وان يغير في خريطتها وأن يحدد أهداف تطورها ويشكل نموها .

وقد جاءت المحاولة الاولى للتعديل في خطط كتشنر والتوسع في المدينة على يد استاتتن الذي تولى ادارة مديرية الخرطوم في الفترة ما بين أول ١٩٠١ ومارس ١٩٠٩ والذي ترأس عدة لجان للتخطيط تحت اشراف ونجت باشا حاكم عام السودان.وأشرف اشرافا فعليا على بناء المدينة . وقد كان استاتتن من كبار الضباط الانجليز الذين صاحبوا كتشنر في حملة الفتح ، وقد شهد واقعة كرري التاريخية واشترك في الصلاة التذكارية على روح غردون . ولما انتهت الحرب تسلم منصب مدير الخرطوم ، وكان ثاني مدير للمديرية في العهد الجديد وقد تـرك استاتتن وراءه مذكرات مكتوبة بخط يده دون فيها تفاصيل كثيرة عن حياة المدينة وعن حركة العمران ووصف خرائب الخرطوم عند الفتح وصفا دقيقا وتعد هذه المذكرات من أوفى ما كتب عن الخرطوم في أيامها الاولى .

كانت خطة استاتتن الاولى تهدف الى تعمير المنطقة الغربية من المدينة وهي التي تمتد من النيل الازرق حتى حديقة الحيوان وكانت هذه المنطقة فضاء منخفضا تغمره مياه الفيضان وتتجمع عنده مياه الامطار فاذا انحسر الفيضان وتحولت المنطقة الى برك ومستنقعات وكانت الخطة تقضي بردم هذا المنخفض وتحويله إلى منطقة سكنية ذات درجة عالية ثم بناء رصيف على طول النيل الابيض وانشاء ميناء نهري قـرب المقرن ليكون نقطة البداية للمواصلات النهرية بين الخرطوم وجنوب السودان .

وقد كونت لجنة خاصة برئاسة استاتتن للنظر في هذا المشروع وصدر قرار عن هذه اللجنة في فبراير ١٩٠٧ باعتماد هذا المشروع والشروع في تنفيذه • ويقضي هذا القرار بانشاء المرفأ النهري عـــلى النيـــل الابيض وتقسيم آرض المنطقة الى قطع سكنية وبيعها في المزاد وقد قدر ان ثمـــن الارض سيفي بتكاليف المشروع والتي قدرت بنحو ٢٠٠ ألف جنيه •

وتوفيرا للزمن والتكاليف رأت اللجنة أن تستفيد من رصيف النيل الازرق الذي بلغ نقطة المقرن في ١٩٠٦ وان تقام الاسكلة في ديـــم أبـــي حشيش بصفة مؤقتة على ان تنقل الاسكلة عند نهاية المشروع الى مكانها المقرر على النيل الابيض •

وكان هذا المشروع يقوم أساسا على أنه يمكن رد المبالغ التي تصرف اذا بيعت الارض باسعارها المرتفعة آنذاك غير ان سعر الارض قد انخفض في ١٩٠٧ انخفاضا مفاجئا وبلغ سعر المتر أقل من ٧٠ قرشا وهـــو أدنى ما يمكن اعتماده واضحى مـــن الواضح ان المشروع لا يمكن أن يفي بتكاليفه وبالنظر الى ذلك فقد جمد المشروع وكون الحاكم العام لجنـــة أخرى برئاسة استاتتن نفسه وهي لجنة تطوير مدينة الخرطوم وقد حددت مهمة اللجنة بانهاء النظر في تطوير التجارة في المـــدن الثلاث وتحديـــد الاراضي اللازمة للقطاع التجاري والتقدم بتوصيات محددة لتطوير سبل المواصلات وقد تقدمت هذه اللجنة بتوصياتها في أبريل سنة ١٩٠٨ •

وقد تطرقت اللجنة أولا الى مكان الميناء النهري • هل يكـــون في الخرطوم بحري أم في الخرطوم أم في أم درمان • لقد نظرت اللجنة في كل الاحتمالات ووقفت على مذكرات فنية وبالرغم من أن رأيـــا قويا كـــان ينادي بأن يكون الميناء في الخرطوم بحري فان اللجنة قد قررت أن يكون الميناء في ديم أبي حشيش جنوبي حديقة الحيوان وكان هناك رأي ينادي بأن يكون القطاع التجاري والصناعي في منطقة الخرطوم بحري وأن تكون الخرطوم مدينة سكنية خالصة بينما كان هناك رأي آخر يرى أن الخرطوم ينبغي ان تكون مدينة كاملة • وقد اعترضت السلطات العسكرية عـــلى هذه الفكرة لانها كانت تعني نقل معسكر الجيش من الخرطوم بحـــري الى مكان آخر وأخيرا تغلب الرأي القائل بان توفر الاماكن اللازمـــة

للتجارة والصناعة في مدينة الخرطوم وان يبقى الجيش والمخازن في الخرطوم بحري .

وعندما انشىء الكبرى على النيل الازرق في سنة ١٩٠٩ استدعى ذلك تعديلات في خريطة المدينة وبعد مناقشات طويلة انتهى الرأي بأن تكون محطة السكة الحديد في الطرف الجنوبي من المدينة في نهاية شارع فكتوريا الذي يبدأ من القصر وأن يسير الخط الحديدي على استحكامات الخرطوم القديمة وان يسير خط آخر في شكل دائري من المحطة الى الاسكلة بديم أبي حشيش . وقد استتبع ذلك توسيع شارع فيكتوريا (شارع القصر حاليا) وتجميله .

وفي سنة ١٩١٢ تقدم المستر ماكلين مهندس بلدية الخرطوم بتعديل آخر يهدف الى التوسع الى ناحية الجنوب والشرق والغرب وتوفير مساكن للطبقات الفقيرة في أطراف المدينة .

وجاء التعديل الثالث على يد المستر سار سيفيلد هول الذي تولى ادارة مديرية الخرطوم من ١٩٢٩ الى ١٩٣٦ وكان مشروعه يهدف الى توفير منطقة للصناعات البلدية غرب شارع فيكتوريا واجراء تعديلات في الشوارع المتقاطعة لكي تلائم حركة السيارات وتعمير المناطق التي تقع داخل دائرية خط السكة الحديد وتوفير مكان للطبقات الفقيرة واعداد أماكن للساحات والميادين والحدائق العامة .

وكانت هناك منطقة سكنية خارج دائرة السكة الحديد يسكنها فقراء المدينة وهي المنطقة التي تعرف بالديوم ، وقد نشأت هذه الديوم دون تخطيط معد من قبل سلطات المدينة الا أن أهلها خططوها على وجه سليم . وقد بلغ عددها ١٢ ديما وقد قسم كل ديم الى مربعات وبلغت مساحة كل مربع نحو مائة متر مربع ، وبلغ اتساع الشوارع الرئيسية ٤٠ مترا في حين بلغ عرض الازقة في داخل المربع خمسة أمتار وقد جاءت الازقة ضيقة لان الدولة لم توفر وقاية ضد اللصوص .

وفي ١٩٤٧ وضعت خطة جديدة للتوسع وعلى هدى هذه الخطة ظهرت أحياء جديدة في الخرطوم جنوب وهي ١ و٢ و٣ ٠

وتعتبر ضاحية البراري أقدم امتدادات الخرطوم الواقعة خارج الخرطوم الام المحاطة بدائرة خط السكة الحديد ، وكانت البراري القديمة نفسها امتدادا لمستعمرة المحس بجزيرة توتى ، وكانت ممتدة على الشاطىء الايسر من النيل الازرق شرقا وغربا الا ان بعض البراري قد انشأت كمنطقة سكنية لفقراء مدينة الخرطوم وأصل اللفظ فيما نحسب هو البر نسبة الى أن المنطقة تعتبر البر الجنوبي لسكان جزيرة توتى ثم اضيف اليه حرف الياء لسهولة النطق وقد لاحظنا ان نفس اللفظ كان يطلق على المناطق المجاورة لمدينة سواكن ، والمناسبة هنا هي أن جزءاً كبيراً من المدينة يقع في جزيرة ، وعندما كتب الامام المهدى بتأمير الامير عثمان دقنه على شرق السودان وجه خطابه الى أهالي سواكن وبرورها وهو يقصد أهل المدينة والعربان الذين يقطنون حولها ٠

وتعتبر برى المحس أقدم البراري وأشهرها وكان موضعها قبل أن تنقل الى مكانها الحالي شرق رصيف كبرى النيل الازرق ، وقد انشأها الشيخ قسومة حوالي سنة ١٥٧٥ م ، ولما انشأ المصريون مدينة الخرطوم ازدادت أهمية الحلة ووفد اليها كثير من المحس الذين يعملون بالمدينة فاتسعت الحلة ونمت نموا كبيرا وعند قيام المهدية انشأت الحكومة استحكاما قويا حول المدينة وقد جعلوا في هذا الموضع طابية وبوابة ، وكانت بوابة برى أصغر بوابات الخرطوم الثلاثة وقد أوصدت عند بداية الحضارة أما البوابتان الاخريتان فكانتا بوابة الكلاكلة وبوابة المسلمية وعندما وفد أبو قرجة على رأس قوات المهدى لمحاصرة الخرطوم أنشأ طابية الانصار على مرمى الرصاص من طابية الحكومة ، وقد تمكن غردون من طرده منها ومن تخريب الطابية في يوليو سنة ١٨٨٤ ٠ وبعد ذلك بقليل جاء النجومي بمزيد من القوات وشد الحصار ، وقد تولى قيادة جبهة برى الامير عبدالله النور الذي استشهد في احدى وقائعها قبل سقوط المدينة بقليل ٠

وبعد أن استولى الجيش الفاتح على الخرطوم بقيادة كتشنر تقرر اقامة معسكر الجيش المصري في هذا الموضع ليكون في مواجهة المعسكر الاخر الذي اقيم على الضفة الثانية من النيل الازرق وبالتالي نقلت الحلة في سنة ١٩٠٠ الى موضعها الحالي بعد أن دفعت التعويضات لاهلها . وقد خططت الحلة الجديدة لتكون مسكنا لطبقة الموظفين وصغار التجار بالاضافة الى أهل برى المحس والذلك اعتبرت من مناطق الدرجة الثالثة .

أما حلة برى الدرايسة والتي نقلت الى شرق برى المحس فقدأنشأها في الاصل أولاد شمام في القرن السادس عشر وكان أغلب سكانها من الجموعية وقد نقلت الى موضعها الحالي نسبة الى أن المدينة الجديدة قد استوعبت مكانها القديم .

أما بري أبو حشيش والتي تقع الان شمال شرق بري الدرايسة فكان موضعها بين حلة المنجرة وبين حديقة الحيوان ، وقد نشأت في الاصل كمنطقة سكنية لعمال الترسانة القديسة والجنود المسرحين وفي أيام المهدية أخذ تيار الماء جزءا كبيرا من موضع هذه الحلة ، وكان من المقدر أن تنقل الحلة عند تنفيذ خطة استانتن لتعمير الجانب الغربي من مدينة الخرطوم الا أن عمرها قد امتد حتى اقيمت الاسكلة ومخازن السكر في المنطقة ، وقد نقلت الحلة الى موضعها الحالي على أثر ذلك . وهناك برى الشريف والتي تقع في أقصى شرق البراري وهي تعرف أيضا ببرى اللاماب ، وهناك كتاب بالانجليزية عن التكوين الاجتماعي لهذه الحلة .

ونود أن نشير الى أن ضاحية البراري محاطة بفضاء واسع من الجانب الشمالي وبفضاء أوسع من الجانب الجنوبي ، وبما أن الجانب الشمالي محجوز ويعتبر امتدادا لمباني الجامعة والمصالح العامة التي تقوم بغربه في حين يعتبر الجانب الجنوبي ضمن منطقة مطار الخرطوم الدولي فان امتداد البراري يتجه تلقائيا الى الشرق .

وفي أقصى غرب المدينة بجوار حديقة المقرن كانت حلة صغيرة تدعى حلة المنجرة وقد عرفت بهذا الاسم لانها كانت مرسى للسفن الشراعية

وقد كانت في أيامها الاولى منطقة لصناعة المراكب أيضا ويقال أن جماعات من المحس والجموعية قد أنشأوها في القـرن السادس عشر • وكانـت القرية قديما تمتد حتى الاسكلة والمتحف ، وكان أهلهـا يستلكـون المنخفضات الجنوبية الغربية ويزرعونها بعد الفيضان الا أن الحلة قـد انحسرت شيئا فشيئا ثم أزيلت نهائيا قبل سنوات •

وقد قدر للمنخفضات الغربية التي اهتم بشأنها الكولونيل استانتن وأعد لها الخطة التي أشرنا اليها من قبل ، أن يمتد اليها العمران وأن تصير منطقة ذات مكانة مرموقة • ففي هذا الموضع انشأت الدولة بعض المنازل لكبار موظفيها كما أنشأت المعهد الفني وعددا من المنشئات العامة بالاضافة الى بعض الدور الاهلية ذات المرتبة العالية وفي أقصى امتداد هذه المنطقة تقع حلة صغيرة ما زالت تحمل اسم المقرن وهي من مناطق الدرجة الثالثة•

وفي المنطقة الواقعة جنوب الخط الحديدي نشأت الديوم القديمة ، وقد لجأ اليها فقراء المدينة من العمال وقدماء المحاربين ومن اليهم بعـد أن أخرجوا من مساكنهم القديمة في موضع مستشفى النهـر وجنـوب الكاتدرائية الكاثوليكية وجنوب مسجد الخرطوم العتيق ثم اجتمع عليهم وافدون آخرون من قطاعات المدينة الاخرى الذين لفظتهم المدينة الكبرى ، وقد وفدت جماعات من هؤلاء أيضا من الخرطوم بحرى وأنشأوا ديـم عطاالله وديم سلك ، وكان عدد هذه الديوم يبلغ نحو ٢٣ ديما وقد سمـى كل ديم باسم مؤسسه كديم سلمان وديم عبد الكريم أو بإسم القبيلة التي أنشأته كديم تقلى وكنجارة والباندة والتعايشة والزبيرية والبرتى •

وكانت الديوم القديمة تشكل مستطيلا يمتد جنوبا وشمالا حـول منطقة حديقة القرشي حاليا والى الجنوب منها كانت الفلاتة والتي نقلـت الى موضعها الحالي وقد نشأت الديوم في الاصل خارج المنطقة المخططـة ولم تكن سلطات مدينة الخرطوم تهتم بأمرها الا أن أهلها كانوا يخططون المربعات والشوارع بشيء من النظام وقد جاءت شوارعها مستقيمة تسـير شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، وقد تميزت الحلة بوجود أزقة ضيقة داخـل

المربعات الكبيرة وكان الهدف من ذلك هو الوقاية من هجمات اللصوص ليلا لان الدولة لم تكن تيسر الحماية البوليسية لسكان الديوم •

على أن الدولة قد تنبهت الى أهمية الديوم في الاربعينيات فقد تكاثر عدد سكانها نتيجة لازدياد الهجرة من الاقاليم الى العاصمة ونتيجة للزحف السكاني من قطاعت المدينة الاخرى بسبب ارتفاع الايجارات • وكان من أثر ذلك أن صارت الديوم منطقة مزدحمة تشكل خطرا صحيا واجتماعيا وعلى الاثر خططت الحكومة منطقة الديوم الجديدة ليستقر فيها أهل الديوم القديمة • وبالفعل بدأت الحكومة في ازالة الديوم القديمة في سنة ١٩٤٩ واستمرت عملية الازالة عدة سنوات • وقد بنيت الديوم الشرقية الحالية بعد ذلك بنفس ترتيب الديوم القديمة •

أما الديوم الجديدة فقد جاء تخطيطها أوفى من تخطيط الديوم القديمة حيث نجد الشوارع أوسع والميادين أكثر وأرحب غير أن بناءها قد توافق مع بناء الدرجتين الاولى والثانية بالخرطوم جنوب وكان من أثر ذلك أن ازدادت حركة البناء والتعمير وقد أدت هذه الحركة بدورها الى ارتفاع أسعار مواد البناء وارتفاع تكاليف الانشاء وقد وقع ثقل ذلك على اهل الديوم الجديدة لانهم أصلا من القطاعات الفقيرة المرهقة اجتماعيا •

أما الدرجتان الاولى والثانية من امتداد الخرطوم جنوب فقد جاءتا شرق الديوم وشمالها وقد استمر تعميرها لعدة سنوات ومن الملاحظ أن شوارعها ليست مستقيمة كما هي الحال في الديوم بل هي في أشكال دائرة وأحيانا نجد الشوارع المتقاطعة التي تتفرع من الميادين كذلك نجد ميادين ذات شكل مثلث قصد المخططون أن تكون ملاعب لاطفال المنطقة ، ومع أن هذا النوع من التخطيط يبدو جميلا في الخريطة الا أنه لا يلائم حركة المواصلات الحديثة •

وبنمو المدينة أولا ولظروف الحرب العالمية الثانية بدأت تظهر الصناعات الخفيفة كصناعة الزجاج والصابون ومعاصر الزيوت وصناعات

الخدمة كوحدات تصليح السيارات والمخازن • وحيث أن موضع الحرف الصغيرة الواقع غرب شارع القصر لم يكن مناسبا لمثل هذه الصناعات فقد خططت منطقة الصناعات الخفيفة خارج دائرة السكة الحديد ، وهي تقع جنوب غرب محطة السكة الحديد ومتصلة بها بخط حديدي ، ويفصل بينها وبين منطقة الدرجة الثانية السكنية نحو مائة متر بينما يقع خلفها من الجانب الجنوبي فضاء واسع يفصل بينها وبين الديوم الجديدة وقد انشيء في جزء من هذا الفضاء داخليات المعهد الفني ، وقد انشئت منطقة أخرى للصناعات الخفيفة في الخرطوم بحري ومن المقدر أن يكون الموضع الاخير موضع صناعات المستقبل •

وفي السنوات الاخيرة واجهت مدينة الخرطوم ازديادا في السكان مع تحسن في مستوى المعيشة وبالتالي ظهرت رغبة عارمة لامتلاك الارض وبناء الدور لا للسكنى وانما للايجار لان المنازل كانت تعطي عائدا كبيرا ، وفي هذه الظروف ظهرت الضواحي التي انشئت خارج مخطط الدولة وبغير اعترافها كمنطقة الشجرة واللاماب والعزوزاب وبعض أطراف الجريف وتحت الحاح الجمهور خططت الدولة المنطقة الواقعة شرق حلة الفلاتة وجنوبها لذوي الدخل المحدود وعلى الاثر ظهرت منطقة الامتداد الجديد بينما ظهر في الطرف الشرقي امتداد الدرجة الاولى والثانية ، وتعد الدولة العدة الان لتوزيع قطع جديدة لذوي الدخل المحدود جنوب امتداد الدرجة الثالثة •

لقد اتسعت مدينة الخرطوم اتساعا بعيداً وهناك من الدلائل ما يوحي بأن هذا الاتساع سيسير حتى تبلغ المدينة في اتساعها بعدا بعيدا ، ولعل أهم الدواعي الداعية الى ذلك الرغبة العارمة في الامتلاك والبناء والتي تنتشر كالحمى في كل الاوساط تحت حلم الثراء والدخل المنتظم من ريع المباني ثم سهولة التوزيع من قبل الدولة بينما يكلف الاتساع الافقي وبناء الدور ذات الادوار العالية مبالغ طائلة وتحتاج الى جهد هندسي قد لا يتوفر في الوقت الحاضر •

ويلاحظ ان المدينة بعد أن بلغت حدود المنطقة المحاطـة بالخـط الحديدي قد اتخذت في الاتساع الى الجانبين الشرقي والجنوبي ويمكن أن يقال عموما ان الجانب الشرقي يوشك أن يكون للدرجات العليا بينمـا صار الجانب الجنوبي للقطاعات الشعبية • واذا ما نظرنا الى خريطة المدينة من هذا الجانب فان وضع منطقة برى يبدو غريبا اذ أن منطقـة المطـار الدولي ، في حالة نقل هذا المطار الى أم درمان ستصير امتدادا للدرجتين
الدولي ، في حالة نقل هذا المطار الى أم درمان ستصير امتدادا للدرجتين
الظروف اقل من الدرجة الثانية وعلى ذلك فان برى الحالية ستكون بـين منطقتين عاليتين وربما يعاد النظر فيها مستقبلا •

وينبغي ايضا أن نلاحظ أن مكان المطار الدولي قد أضحى غـير مناسب ، وحيث أن امتداد الدرجة الاولى والثانية يسير في اتجاهه فان من الاسلم نقل المطار الذي قد أضحى في داخل المدينة • كذلك يبـدو قصر النظر واضحا في وضع المدبغة الحكومية ومركز مجاري الخرطوم الذي يقع جنوب القوز ويؤذي أهلها كثيرا • وأمر آخر لا بد من دراسته بامعـان وهو وضع المقابر التي تملأ عددا من ميادين المدينة واتسعت اتساعا بعيدا•

واذ يخرج هذا في وقت أخذت فيه الدولة توزع الارض على ذوي الدخل المحدود ينبغي ان نشير الى أن المسكن يشكل جانبا مهما من حياة الانسان خاصة في قطر يكاد كل فرد فيه يملك المنزل الذي يأوى اليه سواء كان من قش أو جلد او طين ، ان المنزل عامل استقرار نفسي لا بد منه • ولكن هنالك مشاكل وراء التوسع في توزيع الارض ولعل أهمها هـو أن التوزيع يخلق طبقة من الملاك خاصة والاتجاه العام الان هو الامتـلاك للتأجير والاستفادة المادية من ورائه وهذا في الواقع يعني أن كثيرا مـن مدخرات المدن ستتحول الى منازل قد لا تجد من يؤجرهـا ويضاف الى ذلك أن كثيرين ممن لا يملكون امكانية البناء سيحصلـون على الارض وليس من سبيل أمامهم الا الاستدانة سواء كانوا من عمال الدولة أو غيرهم وهذا يعني في الواقع مزيدا من الديون لهذه الطبقة المرهقة وأخشى أيضا

أن يؤدي الامر الى ارتفاع في تكاليف البناء ومواده فيصير ذلك عبئا على الفقـراء .

ودرئا لهذه المخاطر او تقليلا لها على الدولة الا تصر على أن يتـم البناء في وقت محدد بل من الافضل أن تعطي فسحة من الوقت أطـول حتى يتمكن الفقراء من البناء شيئا فشيئا وحتى يحد ذلك من ارتفـاع الاسعار والتكاليف .

وعليها ايضا أن توفر مواد البناء ، خاصة المواد المحلية ، وأن تجعلها في متناول الفقراء .

(٩) أم درمان

ما بعد الفتح

قد يخيل للمرء أن الفاتحين قد تركوا ام درمان بعد الفتح مباشرة وانتقلوا بالعاصمة الى الخرطوم . ولكن الواقع غير ذلك ؛ لان هذا لم يكن متاحا ماديا ، ولم يكن عمليا من ناحية الواقع . فالثقل البشري في أم درمان قد استمر والعمل الاداري بها كان أصوب وأقرب الى الواقع . والخرطوم كانت خرائب وليس هناك ما يقيم فيه الجيش أو الموظفون أو يعملون فيه . ولذلك ظلت أم درمان مركز الادارة من الناحية العملية وان أصبحت الخرطوم العاصمة الرسمية . وقد أخذ نقل الادارات الى الخرطوم سنوات لانه كان يتوقف على حركة بناء المصالح في الخرطوم وتوفر المبالغ اللازمة للبناء .

وفي الايام الاولى من الحكم الثنائي انكمشت المدينة بدرجة محسوسة نتيجة لانتقال القبائل التي فرض عليها الخليفة عبدالله الهجرة والاقامة في العاصمة لتكون عونا له وعضدا أو لتكون تحت عينه ومراقبته الشديدة اتقاء للفتنة والاضطراب . وقد وجدت هذه القبائل الفرصة عند الفتح . وكان الفاتحون انفسهم يريدون لهذه القبائل أن تعود الى دورها وأن تستقر لتعميردور القبائل وخلق استقرار في الريف ولتفادي الكثافة السكانية في المدن والتي تخلق للدولة مشاكل المدن التي لم تكن مستعدة لها وتحتاج الى رقابة والى خدمات . وقد اعتبر أن عودة القبائل الى دورها تخلق جوا سياسيا مريحا اذ أنها تعني أن الظروف التي خلقتها المهدية قد زالت وأن الامور قد عادت الى ما كانت عليها قبلها .

وقد واجه المخططون في مدينة أم درمان مشاكل لم يواجهوها في الخرطوم والخرطوم بحري • فالخرطوم بحري كانت مدينة جديدة تخرج الى الحياة بظروفها الجديدة ، وقد وجد المخطط الحرية الكافية ليخطط ويعد ويزيد وينقل ما شاء دون أن تعترضه صعوبة ادارية أو مالية أو انسانية اللهم الا في حلتي حمد وخوجلي اللتين ادمجتا في المدينة وجرى فيهما بعض التعديل • وكانت الخرطوم عند الفتح عبارة عن خرائب وقد صرف النظر نهائيا عن تخطيطها القديم وما تبقى من مبانيها وتقرر وضع خريطة جديدة لها ، وبالتالي بدأت المدينة بدء جديدا وقدمت لاصحاب الاملاك القديمة التعويضات النقدية والعينية •

أما مدينة أم درمان فكانت قائمة ومكتظة بالسكان ولم تكن الخرطوم ـ حتى بعد بنائها ـ بديلا لسكانها لانه روعي أن تكون الخرطوم مدينة أوربية يستوطنها الاوربيون ومن في مصافهم من المصريين والاسيويين وبعض السودانيين من الطبقة الدنيئة من الفعلة والذين يحتاج اليهم سكان المدينة ، وقد خصص لهؤلاء الديوم في أطراف المدينة • ولذلك أضحى من الضروري المحافظة على أم درمان حتى تكون سكنا للوطنيين وميدانا لنشاطهم التجاري والاجتماعي •

وقد فرضت هذه الحقيقة نفسها في تطور المدينة وذهب الجانب الاكبر من جهد المخططين في اعادة التخطيط بشق الشوارع واستقامتها وانتظامها وتحديد مواضع الاسواق وخلق الميادين والمنافذ • وحتى اليوم فان هذا التخطيط يواجه عقبات ومصاعب لعل أكبرها دفع التعويضات لاصحاب عدد كبير من البيوت التي ينبغي أن تزال أو تعدل او اقناعهم بالانتقال الى أطراف المدينة بعد أن فقدوا مواقعهم الممتازة في داخل المدينة والتي اعتادوا عليها عبر السنوات الطويلة •

وبعد أن انحسر عدد السكان نتيجة لعودة القبائل الى مناطقها القديمة تركزت الحياة في داخل المدينة بينما تركت الاطراف ، ولذلك تقلصت مساحة المدينة وأصاب أطرافها الخراب • وقد بذل الجهد الاول من

التخطيط والاصلاح في هذا الجزء الداخلي ، وتكاد تكون الصورة العامة لتطور المدينة حتى قيام الحرب العالمية الاولى هي هذا الوضع ، أي العمل على اصلاح داخل المدينة وتركيز الحياة فيه •

وفي سنوات ما بين الحربين حصل توسع محسوس في المدينة وأعيد تخطيط آجزاء كبيرة منها ، ويمكن أن يقال أن ذلك قد شمل اكثر من نصف المدينة الحالية • وفي سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية جاءت سلسلة الامتدادات من الناحية الشمالية والغربية والجنوبية ، ولكن معدل الزيادة هنا لا تبلغ معدلها في هذه الفترة في مدينتي الخرطوم والخرطوم بحري •

وينبغي هنا أن تتذكر ظروف التحويلات السكانية في المدن الثلاثة حسب ظروف العمل وحسب سبل المواصلات الميسرة وبالخصوص انشاء كبري النيل الازرق والابيض وحسب معدلات الصعود والهبوط في ايجارات المنازل وأثمان الارض ، وهي امور كان لها التأثير البالغ في اتجاه العمران في أم درمان وسرعته ونوعيته • وقد ذكرنا طرفا من ذلك عند الكلام عن الخرطوم بحري ، فلا نعيد •

وتتميز أم درمان عن جارتيها باصالتها السودانية وبالنموذج الاسلامي الذي نعهده في الحي القديم ، وان كانت الاطراف الجديدة التي قامت في الخرطوم والخرطوم بحري تماثل الطابع السوداني في التخطيط وأسلوب البناء •

وتعد ام درمان العاصمة الوطنية الاولى ، وقد كان بها ثقل حركة الخريجين ومن ثم اقيم بها نادي الخريجين ، شيخ اندية السودان ، ورئاسة مؤتمر الخريجين العام • وكان الاجتماع السنوي للمؤتمر يعقد بها • وقد أقامت الاحزاب السياسية رئاستها بهذه المدينة • وحينما كان المثقف السوداني أو الوطني الغيور يشكو من الخرطوم وغربته فيها كانت أم درمان تمثل اصالة السودان وتضم في قلبه وضلوعه ــ على حد تعبير أحد الشعراء ــ أبناء الشمال والجنوب ، وتجيش فيها آمال الوطنيين وتجس

فيها آلامهم .

وقد بلغ استقطاب ام درمان للعمل الوطني اوجه بالاحتفال الجماهيري العظيم الذي اقيم بجامع الخليفة ابتهاجا بعقد اتفاقية السودان بالقاهرة والتي خطا السودان بمقتضاها خطواته الموفقة نحو الاستقلال . وبحق كان ذلك ابتهاجا قوميا شاركت فيه الاحزاب والهيئات بأسرها . على أنه كان آخر عهد المدينة بمثل هذا الاستقطاب ، لان المراحل التي تلته كانت مراحل دستورية أو ذات طابع رسمي محدد ليكون مقرها في العاصمة الرسمية كافتتاح البرلمان ورفع العلم واعلان الاستقلال من داخل البرلمان وتكوين الحكومات ، كما أن ممارسة السلطة قد دعت الى انتقال قادة الحركة الوطنية حكومة ومعارضة الى الخرطوم . لقد كانت أم درمان عاصمة الحركة الوطنية عندما كانت السلطة في يد الاجنبي وعندما كانت الخرطوم قاعدة الحكم الثنائي ، ولكن مكانتها هذه قد تقلصت عندما انتقلت السلطة الى الوطنيين وأضحت الخرطوم عاصمة وطنية مثلما هي عاصمة رسمية .

ومفتاح المدينة ثلاثة شوارع رئيسية تسير جنوبا وشمالا . أولها الشارع الذي يسير حذاء النيل ، وكان يسمى شارع برمبل نسبة الى المستر برمبل وهو أحد المفتشين المشهورين لمدينة أم درمان . ثم سمى في العهد الوطني شارع الشاطىء . ان هذا الشارع متفرع من شارع الموردة بالقرب من حديقة الموردة وأهم معالمه مبنى الاذاعة ومبنى التليفزيون والمسرح القومي وجزء من استحكامات الخليفة عبدالله للوقاية من ضرب البواخر .

والشارع الثاني شارع الموردة وهو يبدأ من كبرى النيل الابيض وينتهي عند المحطة الوسطى . ومن هذا الموضع يسير شارع أبوروف الى الشرق حتى النيل حيث كانت معدية شمبات البحارية قبل انشاء كبرى شمبات في نهاية شارع اسماعيل الازهري . ومن المحطة الوسطى يسير شارع كررى وشارع الشنقيطي (دنقلا سابقا) الى الشمال . ويتفرع شارع الخليفة من شارع الموردة عند جامع الخليفة ويسير شمالا ، وهو

أهم منافذ المدينة الى الشمال ، كما يتفرع شارع العرضة الذي يسير من جامع الخليفة غربا الى نهاية المدينة • ويقع على هذا الشارع مبنى البلدية ومدرسة الاحفاد •

أما الشارع الثالث فهو شارع الاربعين وهو يبدأ أيضا من كبرى النيل الابيض ثم يسير غربا ثم يتجه شمالا حتى يتصل بشارع العرضة •

وفي وسط المدينة سوق أم درمان المشهور ، والذي يعرف بالسوق الكبير ، وهو أكبر سوق في القطر كله • وهو على عادة السوق القديم مقسم الى أقسام يتخصص كل قسم في تسويق او صناعة سلع معينة • ومن ذلك سوق التمر ، وسوق الزنوك ، وسوق الخضار ، والصاغة ، والصيني وسوق العيش ، وسوق العناقريب ، وأماكن صناعة الاحذية ، والخياطين، وصناع العاج ، وباعة الخردوات ، والسمكرية ، ومحلات العطارة ، وسوق الدهن ، ومحلات الحدادة ، وسوق الخيش •

ويكاد يكون في هذا السوق أقدر المهنيين السودانيين في أعمال العاج والصياغة والجلد والنجارة •

وتكاد تكون منطقة السوق ثم المنطقة التي تقع فيها قبة المهدى وما جاورها وما بين هاتين المنطقتين قلب المدينة ، أي إن المنطقة القديمة هي التي عليها ثقل الحياة وحركتها الى اليوم •

والمدينة مقسمة الى أربعة أرباع وكل ربع الى أربع حارات ما عدا الحارة الثانية والحارة الرابعة فان كل منهما ينقسم الى خمس حارات • وكل حارة تضم حيا او حيين وأحيانا تضم ثلاثة أحياء صغيرة •

وأهم أحياء المدينة هي أبوروف ، الحي التجاري ، ودنوباوي الملازمين ، المسالمة ، العباسية ، الموردة ، العرب ، بانت، العرضة ، وددرو

وبيت المال •

ومن المواضع المهمة بالمدينة كلية الدراسات العربية والاسلامية (الجامعة الاسلامية سابقا) ودار الرياضة وكبرى ابو عنجة وكبرى شمبات والمعهد العالي للمعلمين وكلية الاحفاد ودار الاذاعة ودار التليفزيون ومعهد تدريب المعلمات وعدة مدارس بمستويات مختلفة • وهناك عدد كبير من المساجد والكنائس •

(١٠) الخرطوم بحري

تعتبر مدينة الخرطوم بحري أحدث وأصغر مدن عاصمة السودان الكبرى أو ما يسمى بالعاصمة المثلثة وقد أدى الى ظهورها عوامل مختلفة ليس منها العامل السياسي الذي أدى الى انشاء مدينتي الخرطوم وأم درمان . وبالرغم من أن المدينة تعتبر من عدة نواح امتدادا لمدينة الخرطوم ومكملا لها فان لها طابعها الخاص ومقوماتها الخاصة التي تجعلها في مصاف المدن الكاملة القائمة بذاتها ، وهي تمثل قطاعا له ذاتية خاصة داخل اطار العاصمة الكبرى . فهي من جهة أخرى مركز الصناعات النامية في القطر .

وعند بداية هذا القرن لم يكن في الوجود ما يسمى بالخرطوم بحري، وكان يطلق على الموضع والمناطق المجاورة له لفظ الحلفاية ، والحق أن الحلفاية الاصلية ، حلفاية الملوك ، تقع الى الشمال على بعد بضع كيلومترات وقد صارت عاصمة لمشيخة العبدلاب في أواخر العهد الفونجي. وعلى هذا فان لفظ الحلفاية كان ينصرف الى اقليم واسع ولم يكن اسم موضع بعينه في هذه الجهة .

أما حلفاية الملوك نفسها فقد ظلت عاصمة للمناطق التي تقع شمال النيل الازرق ، أي المناطق التي كانت خاضعة لسلطان مشيخة العبدلات . وكما ذكرنا من قبل فان العبدلاب نقلوا عاصمتهم اليها وشيئا فشيئا أخذت المدينة أهمية قرى . ثم إن هذا التحول قد توافق مع ضغط الشايقية على مشيخة العبدلاب من الشمال ونزوح مجموعات كبيرة منهم ، رعاة وفرسانا، الى هذا الاقليم واقليم شندى : وقد ظهر أثر ذلك في الحلفاية نفسها اذ صار للشايقية نفوذ فيها . ولما جاء العهد المصري ، والذي كان الشايقية

أكبر حلفائه، واخضع العبدلاب زادت قوة الشايقية في المدينة. وقد اكتمل ذلك بصورة حاسمة بعد اخضاع الاقليم وتسليم المدينة لهم أثر الثورات التي اندلعت بعد مقتل اسماعيل باشا . وبذلك صار الشايقية هم العنصر الغالب في المدينة .

ومع أن المصريين قد أنشأوا عاصمتهم في الخرطوم فان الحلفاية ظلت عاصمة الاقليم واحتفظ باهميتها لفترة ـ ولدينا من الوثائق ما يؤكد انها ظلت عاصمة للاقليم مثلها مثل بربر ومدمن حتى بعد انشاء الخرطوم ـ ثم غلبت عليها مدينة الخرطوم فتضعضعت ، ثم جاءت مدينة الخرطوم بحري وأخذت أهميتها ليست كمدينة شمالي الخرطوم فحسب بل كعاصمة ادارية وتجارية للاقليم بأسره . وبذلك انخفضت أهمية حلفاية الملوك .

وكان ظهور العمران في الطرف الشمالي مقر الشيخ خوجلي الذي أنشأ منزلا ومسجدا وخلق مركزا دينيا مرموقا . ولما توفى الشيخ خوجلي في سنة ١٧٤٣ بنى أولاده وجيرانه قبة فوق قبره . ومع مرور الزمن نشأت حلة كبيرة في المنطقة وسميت حلة خوجلي . وقد أقطع سلاطين الفونج وشيوخ العبدلاب وشيوخ هذا الاقليم أراضي واسعة لابناء الشيخ خوجلي حول القبة والى الشرق وفي جوار النيل وفي مناطق أخرى ، هذا بدوره أدى الى استقرارهم واستيطانهم . وقد كشفت الوثائق التي اكتشفت حديثا في قبة الشيخ خوجلي عن حقائق كثيرة عن نشأة هذه المستعمرة وعلاقات عقب الشيخ خوجلي وجيرانهم . وقد نمت الحلة نموا بطيئا لانها لم تفسح مجالا للغرباء وانما ظلت موطنا لأحفاد الشيخ خوجلي . وفي أوائل العهد التركي تعرضت الحلة الى محنة قاسية عندما هجم عساكر محو بك على الحلة ونهبوها وخربوا القبة . ولولا أن محو عاد مسرعا لاستفحل الأمر وزاد الشر .

والى الشرق من مقر الشيخ خوجلي كان يقيم الشيخ حمد ود مريوم ، جد المريوماب ، وهو ابن خالة الشيخ خوجلي أيضا . وكان مقر الشيخ حمد في أول الامر في أم درمان الا أن نزاعا حادا قد نشب بينه

وبين الشيخ عبد المحمود النوفلابي ، ويقال ان النوفلابي أحرق منزل حمد وخلوته وكاد حمد نفسه فيما يقولون يروح صخية لسر هذا الولى لـولا اصرار الشيخ خوجلي على أن يخرج حمد من المنزل ويغادر المكان . وقد انتقل حمد الى منطقة حلة حمد على أثر هذا الحادث ونشأت الحلة حول مقره الجديد .

ويقال أن الشيخ حمد كان على خلاف مع اساتذة أرباب العقائد وأنه لم يكن على معتقد القوم كثيرا لميله الى الظاهر غالبا واحتكامه الى العقل، وقد تابعه في ذلك كثيرون أشار الى بعضهم ضيف الله في معجمه . ويذكر الرواة أن علاقاته بالشيخ خوجلي كانت طيبة ولكن يبدو أنها لم تكـن ودية . وللشيخ حمد قبة قائمة الى اليوم ، وما زالت حلته تعرف باسمـه وتكون احدى قطاعات المدينة المهمة .

ويأتي بعد الحلتين ، حلة خوجلي وحلة حمد ، قصر راسخ والـذي كان مقاما على بعد أمتار من النيل الازرق في مواجهة قصر الحكمدارية . وكان محمد راسخ مديرا للخرطوم وسنار في الفترة التي الغى فيها منصب الحكمدارية واستعيض به نظام لا مركزي يتكون من مديريات كبـيرة تتصل بالقاهرة رأسا ، وكان قبل أن يلي هذا المنصب مديرا على التاكـة فيما يقول نعوم شقير أو على كردفان فيما يقول ريتشارد هـل . وقـد تولى منصبه في يوليو سنة ١٨٦٢ ثم رفع عنه في السنة التالية أثر الغـاء النظام اللامركزي واعادة توحيد القطر تحت الحكمدارية . وقد اتهم محمد راسخ بأنه كان يحب حياة الدعة ويسيل الى التمتع وقد اخذ عليه كاتـب الشونة وقال عنه : « وحضر بالخرطوم في شهر صفر من السنة المذكورة (يقصد ١٢٧٨ هـ) وكان صاحب حظ وانشراح ولم يشتغل بشيء سوى أنه انشأ القصر الكائن على شاطىء بحر النيل بالجانب الشرقي تجاه قصر الحكمدارية وهو آخر المديرين الذين انفردوا بولاية مديرية الخرطـوم والجزيرة ولذا لم نطل الكلام في ذكرهم » . ويبدو ان كاتب الشونة كان من أنصار الحكمدارية والحكم المركزي ، وقد ذكر في صراحة أنه يهمـل فترة النظام اللامركزي ، ويمكن تعليل ذلك بأنه راوية ، والرواة دائمـا

يهتمون بالحوادث المثيرة والشخصيات القوية ، وليس في النظام اللامركزي ما يثير رغبته ، ولو كان كاتب الشونة ممن يهتمون بنظام الحكم وأساليبه ويستعرضون التجارب لاهتم بهذه الظاهرة ونظر نظرة ود الى راسخ بك ، على أنه يشهد لراسخ بك اهتمامه بتعمير مدينة الخرطوم وتنظيمها • وهو أول من فطن الى أهمية بناء رصيف من الحجر على شاطىء النيل ليقي به المدينة من فيضانات النيل كما أنه كان الوالي المصري الوحيد الذي نظر عبر النيل الازرق وحسب امكانية بناء بعض مصالح الدولة على الجانب الاخر من النيل • ولو كان من أتوا بعده قد تابعوا هذه الخطة لظهر على الجانب الشرقي من النيل الازرق امتداد لحي الدولة الحالي ولكان ارتباط المدينتين ارتباطا محكما •

وقد توفي محمد راسخ غرقا في الشلال قرب مركبه في ٢٢ شوال ١٣٨٨ هـ وهو عائد من السودان •

وكان قصر راسخ مبنيا بالطوب الاحمر ويتكون من طابقين اثنين وتحيط به فسحة واسعة وسور • ولما قامت الثورة المهدية تحول القصر الى طابية عسكرية وحفر حوله خندق • وكان يعسكر به عند بداية الحصار ٥٠٠ من الباشبزوق تحت قيادة حسين باشا ابراهيم ثم ارتفع العدد الى ألف عند اشتداد الحصار • وبعد واقعة الحلفاية سيطر الانصار على الاقليم كله الا ان طابية راسخ لم تسقط في يدهم •

وبعد ذلك لا يرد اسم هذا القصر لانه فقد أهميته بعد ان اشتد الحصار على الخرطوم ، وقد أهمل بعد سقوط الخرطوم اهمالا تاما ولم يجد من يهتم به ، ويبدو أنه قد أزيل نهائيا بعد الفتح الثنائي وأنشىء في مكانه محطة السكة الحديد القديمة •

وفي فترة المهدية انشأ الانصار في منطقة الخرطوم بحري مصنعا لصناعة الخرطوش كما أنهم جعلوها محطة لنزول القوات المتوجهة الى شرق السودان والقادمة منها ، وكانوا يشيرون الى المنطقة بلفظ الشرق نسبة الى أنها تقع شرق أم درمان وتفاديا لنسبتها الى قبة الشيخ خوجلي اذ أن الانصار كانوا ضد الاعتقاد في الشيوخ •

وبعد الفتح الثنائي انتهى خط السكة الحديد في أول الامـــر الى الخرطوم بحري وظلت محطة السكة الحديد بها حتى تم افتتــاح كوبري النيل الازرق في سنة ١٩١٠ ومد خط السكة الحديد حتى الخرطوم ، وقد نشأت مدينة الخرطوم بحري الحالية حول هذه المحطة • ثم وضع الانجليز فيها بعض المصالح الهامة كالمخازن والمهمات والنقل الميكانيكي والوابورات وبعض فرق الجيش الانجليزي • وعلى ذلك امتدت المدينة من موضـــع هذه المصالح والتي كانت تقوم على النيل الى الشمال ، وبعد فترة يسيرة استوعبت المدينة الحديثة حلتي حمد وخوجلي • وكان أهم معالم تخطيط المدينة الشارع الذي يسير من الكوبري شمالا حتى نهاية المدينة ثم يسير الى اتجاه سمبات •

وكان يسير في هذا الشارع خط ترام يبدأ من الكوبرى ويسير حتى المحطة الوسطى ثم يسير الى مشرع شمبات حيث المعدية الى أم درمان •

وأنت اذا نظرت الى خريطة تطور المدينة ستجد بقعــا سوداء هــي حلة خوجلي وحلة حمد ومحطة السكة الحديد والوابورات وهذه المواضع تبدو منعزلة عن بعضها حتى قيام الحرب العالمية الاولى ، وفي الفترة مــا بين الحربين الاولى والثانية نجد أن المدينة استوعبت هذه البقع ومــلأت ما كان بينها من فضاء ، وقد أضحت حلة خوجلي تكون الطرف الشمالي الغربي للمدينة • ثم قامت امتدادات شرق محطة السكة الحديد • وفيمــا بعد الحرب العالمية الثانية توسعت المدينة نحو الشمال حيث قامت حــلة الختمية وغيرها • وفي فترة ما بعد الاستقلال استمر التوسع نحو الشمال وقامت أحياء البيوت الشعبية وحي الصافية •

وفي أيام الحرب العالمية الثانية نشأت المنطقة الصناعية بجوار محطــة السكة الحديد ، وقد توسعت هذه المنطقة بدرجة محسوسة بعد الاستقلال والاهتمام بقطاع الصناعة ومحاولة تركيزها في الخرطوم بحري •

(١١) معالم مهمة

الميدان الشمالي للقصر :

يقع بين القصر والنيل الازرق ميدان صغير يشقه شارع النيل وهذا الميدان ينتهي ببوابتين كبيرتين من جهتي الشرق والغرب وهو ينتهي من جهة الشمال برصيف أنيق على النيل الازرق وسلم يؤدي الى النهر ، وفي طرفي السلم مدفعان أثريان مصوبان الى الشمال ، وعلى جانب كل مدفع زهور ثم ينعرج الرصيف من الجانبين الى داخل النهر مكونا مستطيلين ووضع في كل منهما مدفع أكبر حجما من المدفعين السالفين .

وكان هذا الميدان ممشى واسعا أو فضاء ينتهي بالرصيف ولما كانت فترة المهدية أتى التآكل المائي على الرصيف ومكان المعدية وجزء كبير من الميدان حتى صار الماء على بعد مائتي ياردة من القصر ، وكان التآكل ممتدا على طول الشاطىء الأيسر للنيل الازرق ، وبلغ أبلغ مبلغه في الجهة الغربية من المدينة وأخذ حيا كاملا . وعندما أعيد تخطيط المدينة ردم جانب من النيل حتى يتسع شارع النيل اتساعه الحالي ، وبلغ ما ردم امام القصر نحو ٩٠ قدما ، وفي داخل ذلك ردم الرصيف .

ميدان الحرية :

يقع هذا الميدان غرب القصر وشمال وزارة المالية والاقتصاد وهو مكان مباني الحكمدارية في العهد التركي ، وكانت هذه عبارة عن مجموعة مصالح حكومية مسوره بسور كبير . ولما جاءت المهدية ازيلت هذه المباني وشيدت في مكانها طابية ضخمة . وفي بداية العهد الثنائي ازيلت الطابية

وحول المكان الى ميادين للتنس • وفي سنة ١٩٢٢ وضع في جانبها الجنوبي تمثال كتشنر ممتطيا صهوة جواد ضخم ومموليا يده ووجهه شطر جبال كرري حيث وقعت الموقعة التاريخيه الفاصلة • وقد قسم الميدان نفسه بمسرات من الاسفلت في شكل العلم البريطاني ، وهو أمر يطابق تقسيم شوارع الخرطوم نفسها في تخطيط كتشنر للمدينة •

وكان هذا الميدان يعرف بميدان السردارية ثم سمى ميدان كتشنر بعد وفاته غرقا في سنة ١٩١٦ ثم صار ميدان الحرية في عهد عبود •

وفي هذا الميدان وقعت مجزرة أول مارس • وبين الميدان والقصر الجمهوري شارع يمتد من النهر جنوبا ، ونحسب أن موضعه يقع الى الغرب من الشارع الذي كان يفصل بين القصر القديم ومجموعة مباني الحكمدارية والذي كان موضعه فيما نحتمل في الطرف الذي يقع بين البوابة الغربية للميدان الذي يقع شمال القصر وبين الحائط الغربي لحوش القصر •

والى الجنوب من ميدان الحرية مبنى وزارة المالية والاقتصاد والتي كانت تعرف سابقا بالسردارية • وكان بهذا المبنى مكاتب السكرتير الاداري والسكرتير المالي • وفي العهد الوطني صار وزارة المالية والاقتصاد ووزارة الداخلية • ثم نقلت الاخيرة الى غرب ميدان الحرية وشغلت وزارة المالية والاقتصاد كل المبنى • والى الجنوب منه وزارة المواصلات وادارة البريد والبرق والتيلفون • ثم نأتي الى شارع الجامعة، والذي كان يعرف بشارع غردون ، وهو الشارع الذي يطل عليه القصر من جهة الجنوب • والى الجنوب منه ميدان فسيح هو ميدان الشهداء ، وكان يسمى في أول الامر ميدان غردون ثم صار في العهد الوطني ميدان القصر الجمهوري • وفي ثورة أكتوبر اصطدم الثوار وحرس القصر هنا في ٢٨ اكتوبر وقتل فيه خلق كثير وجرح عدد أكبر ومن ثم سمى الميدان بميدان الشهداء •

وهنالك شارع فسيح يشق هذا الميدان ويقطع شارع غردونويوصل

بين القصر ومحطة السكك الحديدية في خط مستقيم : انه شارع القصر الجمهوري والذي كان يعرف سابقا بشارع الملكة فكتوريا • واذا وقف المرء في محطة السكك الحديدية ورنا بمنظار مكبر الى الشمال فان نظره سيقطع هذا الشارع في استقامة ثم يعبر البوابة الجنوبية للقصر ثم يعبر البوابة الشمالية شاقا صحن القصر من نصفه وعبر الدهليز الكبير ثم يسير فوق المشرع الى ما وراء النيل الازرق ، وسيرى ان المدافع الاثرية متجهة معه في خط واحـــد •

وكان أمام القصر من هذه الجهة ومنتصفا شارع الجامعة (فردون سابقا) تمثال غوردن باشا متجها الى الجنوب حيث كانت استحكامات الخرطوم التي دافع بها عن المدينة طيلة ايام الحصار •

شـــارع القصر الجمهوري :

عندما وضع كتشنر الخطـــة الاولى لمدينـــة الخرطوم الجديدة جعل القصر نقطة البدء • فمصالح الحكومة امتدت على يمينه ويساره عـــلى امتداد النيل الازرق ، وشارع غردون ، وهو شارع الجامعة حاليا ، صار فاصلا بين الحي الحكومي والاحياء الاهلية • ومن القصر يبدأ أوســـع شوارع الخرطوم ويسير الى الجنوب ويفصل بين الحي التجاري وحـــي الاثرياء من الوطنيين وبين حي الجاليات الاروبية • وقدسمى هذا الشارع شارع فيكتوريا ثم صار بعد الاستقلال شارع القصر الجمهوري •

وقد اكتسب هذا الشارع أهمية خاصة بعد مد السكك الحديديـــة الى الخرطوم ووضع المحطة الرئيسية قصاد القصر ، وكان توسيع هـــذا الشارع وتحسينه النقطة الرئيسية في خطة الكولونيل استاتتن الذي كان مديرا للخرطوم في أوائل العهد الثنائي وهو الذي أوصل الشارع حـــده الجنوبي الى المحطة والغى المقبرة القديمة في موضع نادي المصري وسينما كولوزيوم وما جاورهما ونقل رفات الشيخ محمد بن الامام المشهور بأبي جنزير من موضعه في وسط الشارع الى مكانه الحالي •

وفي سنة ١٩٢٧ اصدر الحاكم العام الجديد السير جون مفي توجيها

بصدد تحسين هذا الشارع وتقرر أن يكون هناك طريق مرصوف في الوسط وأن يكون على جانبيه شريطان من النجيلة ثم بين النجيلة والمنازل طريق للمشاة • وقد نفذت هذه الخطة الا أن مشروع النجيلة لم يكن ناجحا لرداءة التربة في بعض الامكنة ولصعوبة جلب الماء اليها •

ولما جاء السير استيوارت سايمز اهتم بالجانب الذي يلي القصر مباشرة فأدخل فيه تحسينات كثيرة •

تمثالي غردون وكتشنر :

لقد صنع تمثال الجنرال غردون المثال الانجليزي انسلوفورد وهو نسخة من الاصل الذي يقوم أمام ميز الضباط برئاسة سلاح المهندسين بمدينة شاتام بانجلترا • وقد أقيم أولا في لندن في يوليو سنة ١٩٠٢ بغرض الاحتفال وأميط عنه اللثام رسميا بحضور اللورد كتشنر ثم أرسل للسودان بالباخرة الا أنه غرق في نهر التيمس • وبعد فترة يسيرة أمكن اخراجه من النهر وأرسل الى السودان لتوه ووضع في مكانه الذي أشرنا اليه في أواخر ١٩٠٣ أو أوائل ابريل ١٩٠٤ • وقد ظل هذا التمثال في مكانه حتى زيل في ١٩٥٨ وسلم الى مندوب بريطانيا •

أما تمثال اللورد كتشنر فقد صنعه المثال الانجليزي مارش من أظرف الرصاص الذي جمع من مواقع الفتح ووضع في مكانه في أواخر سنة ١٩٢٣ • وقد احتفل به رسميا في فبراير سنة ١٩٢٤ • ان التمثال صورة لتمثال له في مدينة كلكتا ، ويقال أن كتشنر لم يكن راضيا عن التمثال لأنه كان يريده حيوانا وديعا بدلا من الحصان الجسور الذي يمتطيه • ونحسب أنه كان يريد جملا ، اذ لا نخال هذا الفارس يتوق الى أن يرى نفسه على حمار أو بغل • ولكن كيف له أن يمتطي جملا ويصير صنوا لاسطورة الانجليز الكبرى غردون • كيف له أن يكون وديعا وهو الذي ساق أمراء المهدية في الشوارع وألهب أجسادهم بالسياط بعد أن صاروا في اسره وهم اخوانه في السلاح ولهم حرمة في كل حرب • أو نسي أنه أباح مدينة أم درمان لعساكره وتعدى على مقدسات المدينة

المستسلمة ! ثم ما ذنب هذا الحصان الجسور حتى يتبرم منه وهو الذي صال وجال وتكبر ممتطيا عليه • وكيف لتمثال ان يوائم بين الوداعة وبين عيونه التي تقذف الحمم نحو كررى وشنابه المبرمة وحركاته القاسية•

وللقارىء أن يسأل عن الدافع وراء ذكر تمثالين أزيلا وليس لهما وجود الآن ! فنقول أن السبب هو أن التمثالين كانا هدفا لهجوم الوطنيين حتى آزيلا وبالتالي فانهما يكونان موقعا من مواقع الحركة الوطنية • وكانت جريدة السودان استار الانجليزية تصدر مقالات منتظمة عن سياسة الحكومة تحت عنوان دوائر تمثال غردون مؤكدة بها الصلة بين هذا التمثال والحكم الاجنبي • وفي سنة ١٩٤٩ كتب الاستاذ أحمد مختار ، السفير فيما بعد ، سلسلة من المقالات في مجلة الشباب بعنوان : أما آن لهذا الفارس أن يترجل • ثم أعادت جريدة الهدف نشرها في عددها الصادر في ٨ أكتوبر ١٩٥١ • وكانت المقالات من وحي فلم ظهور الاسلام الذي عرض في الخرطوم آنذاك • وقد خلقت اثاره وطنية بعيدة المدى وأضحت من المقالات السياسية المشهورة •

وقد نبتت فكرة الازالة في عهد حكومة السيدين التي كان يرأسها عبد الله بك خليل وشرع أحد وزراء الدولة في دراسة الموضوع ثم انشغلت الحكومة بمشاغلها الداخلية وصرف النظر عنهما تماما حتى جاءت حكومة عبود وقررت الازالة الفورية • وقد تم ذلك بعد الانقلاب بأيام قلائل • ولست أشك في أن العساكر كانوا يبغون من وراء ذلك عملا مسرحيا يلفت الانظار ويضفي عليهم سمات الوطنية ، غير أنهم اخطأوا خطأ شنيعا اذ سلموهما للحكومة البريطانية بدل الاحتفاظ بهما في المتحف أو في مكان آخر • وهذا تفريط ليس أسوأ منه الا أنهم نسوا تمثال سلاطين باشا قابعا في جدران سبيل بالقرب من المجلس البلدي مع أنه كان أحرى بأن يلحق بصاحبيه • وقد أزيل هذا التمثال بعد ذلك بهدوء اثر مقالات كتبت في الصحف المحلية •

وقد جرى الاحتفال بازالة تمثالي غردون وكتشنر في ١١ ديسمبر

١٩٥٨ وسلما الى الحكومة البريطانية بناء على قبولها لعرض حكومة السودان . وقد نصب تمثال غردون في كلية غردون للاولاد بمدينة قيلفورد بينما نصب تمثال كتشنر بمدينة شاتام حيث قيادة فرقة المهندسين الملكية . وقد روى لي ضابط بريطاني كبير عند زيارتي لهذه القيادة في سنة ١٩٦٧ ان المثال الذي صنع التمثال كان حيا وأنه تولى صنع قاعدته الجديدة . أما تمثال سلاطين فلا نعرف أين يكون .

الكاتدرائية :

لقد شيدت الكاتدرائية الانجليزية بجوار القصر مطلة على شارع الجامعة وملاصقة للحائط الجنوبي لحديقة القصر ، وهي متصلة بالقصر بباب صغير يفتح على الحديقة . وكانت الكنيسة الانجليزية في أول الامر في الطابق الاول للجناح الشرقي للقصر في الحجرة التي صارت الآن قاعة للاجتماعات . ومن الطريف أن رئاسة جمعية الماسونية كانت في حجرة مجاورة لها بالقصر ايضا حتى اقيست مبانيها . ثم جمعت الاموال اللازمة لبناء الكاتدرائية بالاكتتاب العام وتم البناء في سنة ١٩١١ وافتتحت رسميا في يناير ١٩١٢ . أما برجها فقد كان من المقدر أن يصدر نداء تحت رعاية الحاكم العام باسم الجنرال غردون لجمع الاموال اللازمة لبنائه الا أن الفكرة قد أجلت لاسباب غير واضحة . وبالرغم من ان الجاليات الاخرى والتي كانت أقل نفوذا من الانجليز كالاقباط والاغاريق وغيرهم من نحل المسيحيين قد شيدوا كنائسهم وأكملوا بناءها فان الكنيسة الانجليزية قد ظلت غير مكتملة الى وقت طويل . وفي سنة ١٩٢٩ سعى مجلس الكنيسة السودانية للحصول على مساعدة مالية من الحكومة ؛ وقد نجحت مساعي البشوب قوين وتم بناء البرج من أموال صندوق تعويضات استاك كما فعلوا ببرج الكنيسة بمدني . وقد افتتح ذلك رسميا في يوم الاحد ٢٥ يناير ١٩٣١ والذي يوافق ذكرى مقتل غردون ؛ وقد قاد الحاكم العام صلاة خاصة في الكاتدرائية اعلن بعدها أن البرج شيذكرى للسير لي استاك .

مقبرة الحكام :

تقع هذه المقبرة شرق شارع القصر وغرب شارع البلدية أمام النادي العربي ، وهي تتكون من قبتين وصحن • ويرقد في القبة الشرقية أحمد باشا أبوودان وأحمد باشا المنيكلي • وقد حكم الاول البلاد بين ١٨٣٩ و ١٨٤٤ وهو الذي ضم شرق السودان الى السودان الموحد تحت الادارة المصريه • أما الثاني فقد حكم بين ١٨٤٤ و ١٨٤٥ • ويرقد في القبة الغربية علي باشا جركس (١٨٥٥ ــ ١٨٥٦) وموسى حمدي باشا (١٨٦٣ ــ ١٨٦٥) • وكان من البارزين الذين دفنوا في الصحن محمد باشا ممتاز ، وكانت ادارته ما بين ١٨٧١ و ١٨٧٣ •

وكانت المقبرة بحالة جيدة ومحتفظة بشواهدها التي تحمل الاسماء وتواريخ الوفيات حتى جاءت المهدية وهدم الانصار وحطموا الشواهد والقبور في ثورتهم العارمة على الترك ولم يبق الا القبتين وبعض العظام• والموقع الان مجرد رمز للمقابر •

وقد دار نقاش حول هذه المقبرة في السنوات الاخيرة عند التفكير في انشاء بعض المباني في المنطقة ، وكان هناك رأي يقول بازالتها واقامة المباني مكانها ورأي آخر يصر على الاحتفاظ بالمقبرة وما حولها كما هي • وأخيرا استقر الرأي على اقامة المباني الجديدة مع الاحتفاظ بالقبتين •

وأذكر أن مشكلة مماثلة وقعت عند بناء مباني مستشفى الثورة والتي قامت في مكان مقبرة الخرطوم القديمة • وكانت بها مقبرة والدة المهدي ومقبرة شيخ يدعى وراق • وقد رجع المسئولون الى مفتي السودان ، وكان اثناءها الشيخ محمد أبو القاسم هاشم ، فأفتى بأن القبور عندما يمر عليها زمن وتكون دارسة وأريد مكانها لمصلحة الاحياء فلا مانع من ازالتها • وعلى ذلك ازيلت المقبرة كلها ما عدا مقبرتي الشيخ وراق ووالدة المهدي ، فقد سورتا بسورين وادخلتا داخل سور المستشفى بالطرف الجنوبي الشرقي •

ميدان ابو جنزير :

يعد هذا الميدان من أشهر ميادين الخرطوم مع أن العـادة لم تجـر على اقامة أي احتفال فيه بوجه رسمي سواء كان دينيـا أو سياسيـا أو اجتماعيا • ولكنه اكتسب شهرة عندما صار مكان التقـاء المتظاهرين في أيام الفوضى السياسية لاتساع الميدان وقربه من القصر الجمهوري الذي كانت الجماهير تتجه اليه محتجة •

واذا رجع المرء الى خريطة مدينة الخرطوم التي رسمها المهنـدس الحربي عباس رسمي والمحفوظة الان في دار الوثائق العربية القومية ضمن أوراق أحمد حمدي فسيجد ميدانا فسيحا ممتدا شرقا وغربا ، ويكاد هذا الامتداد يوازي في خريطة الخرطوم الحالية ما بين مبنى البنك العربي وبين نهاية مباني النادي العربي • وعلى الطرف الجنوبي منه يمتد حي سـلامة الباشا في شكل لسان حتى النصف ،ثم يتصل الميدانبالخلاء الواقع جنوب المدينة • ويمتد العمران من طرفه الشرقي الى الجنوب الى مسافة بعيدة •

وفي وسط هذا الميدان يقع مسجد عباس باشا • وكان الميدان الذي الى غربه يسمىالى وقت قريب ميدانعباس ثم صار ميدان الامم المتحدة، وكان بوسطه شجرة زيتون • وقد امتدت يد الاصلاح الى هذا الميدان فزرع بالنجيلة وأحيط بأسوار من حديد ، الا أن ارجل المارة قد قضت على النجيلة • وقد أخذ الباعة الممر الاوسط منه حتى كاد لا يجـد المرء سبيلا للمرور بينما أخذت السيارا تجانبه الغربي والشرقي •

ثم وجد الموضع اهتماما كبيرا في برنامج « ابن وعمر » الذي نادت به الثورة لتنفث به روح الجدية وتبدأ به برنامج البناء وعمل فيه الجنود عملا متواصلا ثم سلم المشروع الى نقابات العمال للاكمال •

أما ما يقع شرق الجامع فهو ما يسمى ميدان أبو جنزير • وفي هـذا الميدان كانت مقبرة الخرطوم الكبرى • وكان في طرفها الشماليالشرقي مقبرة الحكام • وكان طرفها الغربي يقع الى الغرب من شـارع القصر •

وكان امتدادها شرقا يسع النادي العربي وسينما كليزيوم •

وكانت بهذه المقبرة مقبرة الشيخ امام بن محمد محاطة بسور من الطين • وأمام هذا محسى ، وليس صوابا ما نشر في الجرائد المحلية وعلى رأسها جريدة الرأي العام عن أصله وذريته • وكان موضع مقبرته في منتصف شارع القصر • فلما شق استاتتن شارع القصر ووسعه حمل رفات الشيخ من مرقده ودفنه على طرف الشارع وأحاط قبره الجديد بالجنازير ، ومن ثم سمى الرجل بأبي جنزير ، ونسي الناس اسمه الاصلي وموضعه القديم وأحاطوا مو ضعه ونقله بكثير من الاساطير •

كبري الحرية وكبري المسلمية :

يقع الكبريان في وسط المدينة فوق شريط السكة الحديد ، أولهما على الخط الذي يسير الى المحطة الجديدة والاخر على الخط الذي يسير الى الخرطوم بحري وكان بموضع الكبريين بوابتان كبيرتان لصد العربات والمشاة من عبور شريط السكة الحديد عند مرور القطارات • وفي نفس الموضعين كانت بوابة الكلاكلة وبوابة المسلمية وهما الفتحتان الرئيسيتان في استحكامات غردون واهم موضعين للدفاع عن المدينة من هجمات الانصار • وقد ظل الكبري الثاني يحمل اسمه القديم بينما أخذ الكبري الاول اسم الشارع الذي يقع فيه وهو شارع الحرية • وكان شارع الحرية في الاول يسمى شارع نيوبولد ثم صار عند الاستقلال شارع الحرية • وقد أقيم الكبري في عهد عبود وبالتالي أخذ الاسم الذي يعرف به الشارع وهو شارع الحرية • ثم عدل اسم الشارع الى شارع السيد على بعد وفاة هذا الزعيم الديني الكبير ، ولكن الناس ما زالوا يطلقون على الكبري اسمه الذي ظهر به أي كبري الحرية •

قبة الشيخ خوجلي بالخرطوم بحري :

ولد الشيخ خوجلي عبد الرحمن بجزيرة توتي في ١٦٥٣ • وهو محسي من أهل هذه الجزيرة • وقد درس في خلوة الشيخ أرباب

العقائد • وكان مشهورا في زمنه وذا نفوذ ديني واسع•وكان قادريا طريقة الا انه يقرأ أوراد الشاذلية • وقد حاز الشيـــخ وذريته من بعـــده عـــلى أراضي واسعة في الخرطوم بحري لانهم كانوا يتمتعون بسكان عظيم لدى سلاطين الفونج وشيوخ العبدلاب وشيوخ الاقليم وأهل المنطقة •

توفي الشيخ في ١٧٤٣ وأقيمت على قبـــره قبـــة من الطوب غـــير المحروق وفي سنة ١٩٣٦ هدمت القبة القديمة وانشئت القبة الجديـــدة ، وهي من أجمل القبب وأروعها في السودان •

وقبل أن تتوحد المنطقة التي تشملها مدينة الخرطوم بحري الحالية كانت المنطقة التي تقع فيها القبة تعتبر حلة مستقلة • وكانت تعرف بالقبة• وقد أشارت اليها وثائق المهدية بهذا الاسم • أما الان فهي تعتبر حيا من أحياء المدينة وتسمى حلة خوجلي وبها المركز الرئيسي لطائفة الختميـــة وقبة السيد المحجوب • وعندي أن وجود مركز الختمية وقبة المحجوب في هذا الوضع ثم تحول أبناء الشيخ خوجلي الى الطائفة الختمية قـــد أخذ كثيرا من بريق الشيخ خوجلي ومقامه •

وقد اكتشفت في هذه القبة بفضل خليفة الشيخ خوجلي الحالي ، أحمد ابن الامين ، وهو رجل من أفضل من رأيت ، مجموعة من الوثائق التاريخية الهامة التي تعود الى عصر الفونج • والسبب الذي حـــــدا بوجودها هنا هو أن الشيخ خوجلي كان حكما بين الناس ، وكان الناس يودعون عنده وعند خلفائه الوثائق الدالة على حقوقهم • ثـــم إن أبنـــاء الشيخ كانوا في نزاع دائم مع المحمداب وجيرانهم الاخرين حول حدود أراضيهم •

قبة الشيخ حمد بالخرطوم بحري :

وهو الشيخ حمد بن محمد علي • وهو من المشايخة • ويعرف أيضا بود أم مريوم • وله قرابة بالشيخ خوجلي اذ أنهما ابناء اختين وقد درسا في خلوة أرباب العقائد •

ولد حمد في سنة ١٦٤٦ وتوفي في سنة ١٧٠٤ وقد جاء الى هذا المكان بعد أن حرق مكانه في أم درمان أثر نزاعه مع النوفلابي كما ذكرناه

وهذا الوضع كان مستقلا قبل ظهور مدينة الخرطوم بحري وكان يشار اليه بحلة حمد أو قبة حمد • وكانت الحلة من الاحياء الاولى التي صارت جزء من المدينة • الا أنها تعرف بهذا الاسم الى هذا اليوم •

وقبة حمد موجودة الان شرق الشارع الرئيسي وأذكر أن حريقا مدمرا قد اندلع بها منذ سنوات وأتت على بعض محفوظات القبة الا أن القبة ذاتها لم تمس بسوء •

ام درمان :

ذكرنا عند وصفنا لمدينة أم درمان كل المواضع المهمة التي ترجع الى عصر المهدية ولسنا نرى حاجة الى تكرار ما قلناه • وليرجع القارىء الى ما ذكرنا في مواضعه • وسنذكر بعض المواضع الحديثة •

قبة الشيخ الغرقان :

وهي قبة الشيخ دفع الله حامد الغرقان •

وينتمي الغرقان الى الجميعاب • وقد درس في صغره في خلوة الشيخ العبيد بدر بأم ضبان • ولما قامت المهدية انخرط في سلكها • ولما اسست مدينة أم درمان استقر في القطاع الغربي منها واشتهر فيه شهرة واسعة • وقد سمي الغرقان لانه كان ينجذب في الذكر وينسى نفسه • وكانت وفاته في سنة ١٩١٦ • وتقع قبته قرب مستشفى الارسالية والمجلس البلدي •

قبة الشيخ محمد البدوي :

وهي بالحارة الثالثة بالربع الرابع بأم درمان • وينتمي الشيخ محمد البدوي في الاصل الى اسرة مهاجرة من دنقلا وقد أكمل تعليمه في الازهر

الشريف بالقاهرة ثم استقر بأم شنقا بدارفور • ولما قامت المهدية انضم الى المهدي واستقر بأم درمان حيث عمل قاضيا بها وببربر وغيرهما • وفي أوائل الحكم الثنائي عين رئيسا لمجلس العلماء والذي كون لابداء النصح للحكومة في المسائل الدينية وليوازي نفوذ الطرق الصوفية ويعطي بديلا لها للحكومة وللشعب وبالتالي ينمي طبقة بعيدة عن التعصب الطائفي • غير آن هذا المشروع لم يكتب له النجاح لتمسك الناس بالطوائف واعتماد الحكومة نفسها على زعمائها • وكان من الطرائف أن أعضاء المجلس وبما فيهم رئيسهم كانوا ينتمون الى الطريقة التيجانية بطريقة غير علنية •

وكان الشيخ البدوي رئيسا للجنة المعهد العلمي • وفي عهده انتشرت مدارس العلم في بيوت العلماء وصار لكل عالم حواريون يجلسون اليه للعلم وينتمون الى عشيرته العلمية • وكانت مدرسة البدوي من أشهر هذه المدارس وأبرزها • توفي سنة ١٩١١ •

(١٢) خاتمة

حسب النظام الاداري الذي اتبع في السودان بعد الفتح بـدأت الادارة في مديرية الخرطوم بالحكم العسكري المباشر والذي كانت رئاسته في أول الامر بأم درمان • ثم تحول الحكم الى النظام الاداري وأعطـى مدير المديرية نفس السلطات والصلاحيات المخولة ككل المديرين فـي السودان • وكان يعمل تحته المفتشون ، مفتش لمدينة الخرطوم ومفتش لمدينة آم درمان ومفتش للخرطوم بحري والضواحي • والادارة الاخيرة تشمل كل مناطق المديريةخارج نطاقمدينتي أم درمان والخرطوم • ثـم تحولت الادارة المباشرة الى ادارة بلديات ؛ وبمقتضى ذلك صار لكـل مدينة بلدية خاصة بها •

وكانت كل بلدية تملك بعض الخدمات العامة بها • فبلدية الخرطوم كانت تملك ترام بخاري يبدأ من المحطة الوسطى ويتجه خط منه الـى الغرب حتى مشرع آم درمان ، ويتجه خط اخر الى الشرق حتى معديـة الخرطوم بحري ، ويتجه خط ثالث في خط دائري • وكا نفي أم درمـان خط ترام بخاري تملكه البلدية ويسير من سوق الموردة حتى المحطـة الوسطى ومنها الى أبي روف حيث معدية الخرطوم بحري أما خط ترام الخرطوم بحري فكان يبدأ من مكان كبري النيل الازرق ، ويسير حتى المحطة الوسطى ومنها الى المعدية بشمبات • وكان تراما بخاريا أيضا •

وقد اعطى امتياز خطوط الترام لشركة النور والماء الانجليزيـة • تسلمت الشركة خطوط الخرطوم في نوفمبر ١٩٢٥ وكهربته ثم تسلمت قبلها ترام الخرطوم بحري وكهربته ما بين كوبري النيل الازرق والمحطة

الوسطى بينما ظل الخط ما بين المحطة الوسطى ومعدية شمبات بخاريا • ثم توحدت هذه الشبكات جميعا بعد افتتاح كوبري النيل الازرق والذي تم في ١ — ١ — ١٩٢٨ •

ولما تقدم عمران المدن وتعاظم ثقل الحركة وصار بطء الترام لا يوائم الحركة السريعة أدخل نظام البصات ، وكانت تابعة لشركة النور أيضا • ثم لم يلبث أن ألغى نظام الترام كلية بعد الاستقلال وسودنت شركة النور بعد أن أوفت مدتها القانونية •

والواقع أن انشاء كوبري النيل الابيض والنيل الازرق في ١٩٠٩ و ١٩٢٨ على التوالي كان حدثا مهما بالنسبة لتطور المدن الثلاثة وربطها وبدأ الميزان البشري يتسم بطابع الاستقرار • فقد ربط كوبري النيل الازرق العاصمة بالخط الذي يوصل السودان بالخارج وعزز بذلك الموقف التجاري وركزه بصورة شاملة في مدينة الخرطوم • وفي نفس الوقت فان سهولة الانتقال بين الخرطوم بحري والخرطوم قد شجع طوائف العمال والحرفيين والموظفين الذين يعملون في الخرطوم للسكن في مدينة الخرطوم بحري لان مساكنها أرخص من مساكن الخرطوم ولان النقلة منها الى الخرطوم أسهل من أم درمان أو توتي الى الخرطوم ولذلك تزايد الذين يعملون في الخرطوم ويسكنون في الخرطوم بحري • وكان من آثر ذلك أن انخفض سكان أم درمان وأنخفضت الايجارات فيهما وأثمان الارض بينما ارتفعت الايجارات في الخرطوم بحري • ولما انشيء كوبري النيل الازرق عاد الطوفان الى أم درمان مرة أخرى ولذلك انتعشت ايجاراتها من جديد وارتفعت اثمان أراضيها بينما خف الضغط على الخرطوم بحري • ولم يرجع الضغط السكاني الى الخرطوم بحري الا بعد قيام المنطقة الصناعية وتوافد العمال بكثرة للعمل في المصانع • أما الخرطوم فقد طفرت بعد الحرب العالمية الثانية وخرجت خارج نطاق رصيف السكة الحديد لتعطي مجالا للقادمين من طبقات الشغيلة وذلك نتيجة لانشاء منطقة الصناعات الخفيفة والاهتمام بالخدمات والتوسع

في الوزارات والادارات المختلفة .

وقد ذكرنا كيف أن ادارة المواصلات الرئيسية قد توحدت بعد فتح كوبري النيل الازرق . وقد تم في نفس الوقت توحيد خدمات المـاء والنور تحت ادارة شركة النور . ثم كمل الخط الدائري للمدن الثلاثة بعد انشاء كوبري شمبات بعد الاستقلال .

وفي عام ١٩٢١ كون الحاكم العام مجلس المدن الثلاثة . وكان هذا المجلس مجلسا استشاريا ولكنه كان على نطاق المدن الثلاثة . وكـان يرأسه مدير المديرية ويشترك في عضويته نائب المدير ومفتشو المـدن الثلاثة ثم أربعة موظفين وأربعة تعينهم الغرفة التجارية و ١٦ عضوا يعينهم الحاكم العام .

وكان لهذا المجلس لجان فرعية منها لجنة لمدينة الخرطوم ولجنـة لمدينة أم درمان ولجنة لمدينة الخرطوم بحري ولجنة للصحة ولجنة للمالية ولجنة للطرق وللنور ولجنة للوائح .

وفي نفس الوقت كونت بلدية خاصة لكل مدينة . وجاء تكوين بلدية الخرطوم بحري أولا في ١٥ مارس ١٩٢٣ . ثم تلتها بلدية أم درمان في ١٥ مايو ١٩٢٤ . ثم أخيرا بلدية الخرطوم في ١٥ أعسطس ١٩٢٨ . ولم يؤثر وجود هذه البلديات في وجود مجلس المدن الثلاثة والذي كان يعمـل استشاريا في نطاق المدن الثلاثة بينما تولت البلديات الأعمـال المباشرة للبلديات كالعوائد والخدمات .

وفي ١٦ فبراير ١٩٢٩ كونت لجنة تخطيط للمدن بموجب أمر نشر في الغازيتة . وكانت هذه اللجنة برئاسة مدير المديرية وترفع توصياتهـا للحاكم العام بواسطة السكرتير الاداري . وكان لهذه اللجنة لجنة فرعية خاصة بمدينة الخرطوم . وفي سنة ١٩٣٧ كونت لجنة تخطيـط مدينـة الخرطوم ، وكانت سلطاتها تشمل المدن الثلاثة أيضا . أما المدن الاخرى

فقد ترك شأنها للسكرتير القضائي ليعالج أمرها مع المديرين بموجب لائحة المدن والبلديات لعام ١٩٣٨ •

كانت قوة الجيش المرابط في الخرطوم مكونة من فرقة انجليزية وفرقة من سلاح الطيران البريطاني وقوة دفاع السودان • أما الفرقة الانجليزية فكانت مكونة من ١٧٠٠ رجل بخلاف رجال الطيران • وكانت هذه القوات مركزة في الخرطوم والخرطوم بحري• أما قيادة سلاح الطيران فكانت في الخرطوم وكانت هذه القيادة تتبع القائد العام في السودان في العمليات بينما تتبع قيادة سلاح الطيران البريطاني للشرق الاوسط فنيا وأداريا •

أما قوة دفاع السودان فقد تكونت في ١٩٢٥ أثر اخراج الجيش المصري من السودان • وقد بدأت ببعض الضباط السودانيين والرجال الذين كانوا يعملون بالجيش المصري ثم نمت على مر الايام وقد بلغت أوج مجدها في الحرب العالمية الثانية حيث دافعت عن قضية الحلفاء وأدت دورا مهما في حروب الشرق الاوسط وافريقيا وكان توزيعها كالآتي : فرقة المهندسين بأم درمان ، فرقة الشمالية بالخرطوم ، النقل الميكانيكي بالخرطوم بحري ، الامدادات والتدريب بأم درمان ، الحماة البيطرية بالخرطوم •

وعند الاستقلال حلت هذه القوة محل القوتين الانجليزية والمصرية وقامت بعبء الدفاع الداخلي والخارجي •

وفي سنة ١٩٣٤ أثر مقتل السيرلى استاك بالقاهرة أمر الجيش المصري بالاخلاء • وقد تم ذلك رغم المعارضة الشعبية الشديدة واستنكار الطبقات المستنيرة وتمرد طوائف من الضباط ورجال الجيش من السودانيين • وأثر معاهدة ١٩٣٦ عاد الجيش المصري الى السودان ، وكانت له ثكنتان خلف ترس السكة الحديد ، وهما ثكنتا عباس وتوفيق• وكانت احداهما غرب كبرى الحرية وقد ازيلت بعد الاستقلال وصار مكانها جزء من محطة السكك الحديدية ، والاخرى قرب كبرى المسلمية

وبها الان ادارة للحريق وأخرى للغابات •

يتكون سكان الخرطوم من كل سلالات السودان وقبائله وعدد من الجاليات الاجنبية الوافدة من الشرق الاوسط وأوربا والسودان الغربي • ويمكن القول بصفة عامة ان أغلبية السكان السودانيين من أهل النيل عموما • أما أهل الغرب فقليلون نسبيا ولعل أغلبهم يعيشون في أم درمان• ولكن وفدت في السنوات الاخيرة مجموعات كبيرة من أهل الغرب وسكنوا في أطراف المدن في الاحياء التي عرفت فيما بعد بأحياء الكرتون • ومن الطريف أن أعدادها هائلة من أبناء الغرب الذين كانوا يعيشون في أحياء المدن المعمورة هجروا ديارهم التي كانوا يسكنونها ولحقوا باحياء الكرتون بالرغم من أن هذه الاحياء تفتقد كثيرا من لوازم الحياة • وربما يعد ذلك رفضا منهم لحياة المدينة ولكني أميل الى القول بأنه تمسك بالعلاقات المحلية القبلية أكثر منه رفضا للمدينة ذلك لان الفرد يستطيع أن يمارس في أحياء الكرتون الانتماء القبلي الذي يتوق اليه الفرد الذي لم ينصهر بعد في حياة المدينة • كما أن هذه الاحياء مقسمة تقسيما قبليا ويعيش أبناء كل قبيلة قرب أبناء القبيلة المجاورة لهم في الوطن البعيد • وهم في نفس الوقت يعملون في المدينة ويتصرفون فيها تصرف غيرهم من الناس •

وكانت العادة فيما مضى أن يكون لكل جنس حي يسكنه أبناؤه ويعرف بهم كحي الدناقلة وبرى المحس وحي الزبيرية وحي الكنوز وحي التعايشه ولكن الانصهار الذي تم بعد الحرب العالمية الثانية جعل هذه الاسماء مدلولات مكانية أكثر منها مدلولات بشرية حاسمة • وقد أصبحت الانتماءات القبلية القديمة تذبل لتحل محلها الانتماءات العصرية حسب مدارسها المختلفة وألوانها وأنماطها كنقابات العمل وهيئات العاملين وفرق الكرة والمدارس الفكرية وغيرها •

وفي العاصمة المثلثة جاليات أجنبية كثيرة ، وقد كان للجاليات

الاوربية منها شأن كبير حتى الاستقلال ثم بـدأ نفوذهـم الاجتماعـي وهيمنتهم المالية والتجارية تقل ببروز السياسات الوطنية وفرض الضرائب ووضع التجارة تحت اشراف الحكومة • ولما كان الاجانب يخافون مـن هذا المسلك فان حمى شديدة قد سرت لتهريب الاموال • وللاسف وجدوا فرصة سانحة في أيام الفوضى السياسية • ومن المؤسف حقا أن المهربـين كانوا يجدون مساندة بعض السودانيين ، ومن هؤلاء بعض المسئولين في الحكومـة •

وقد سرى طوفان التهريب وهرب الاجنبي بعد تهريب أمواله حتى أضحى ذلك أمرا عاديا لا يلفت النظر وامتـلأت أسواق بـيروت ، والسعودية بالعملة السودانية المهربة •

وقد واجهت الثورة هذا الموقف بحزم وعزم فعدلت العملة في وقـت وجيز وصودرت أموال المهربين وسيطرت الدولة سيطرة تامة على البيوتات التجارية والمالية الكبرى والتي كانت تلعب بمقدرات البلاد • واليوم فان الثورة تتولى أمر هذه البيوتات ويديرها فريق من الشبـاب لصالـح الشعب • وكان بودي ان يرى الشاعر السوداني العظيم التيجاني يوسف بشير هذه الحركة ويرى الخرطوم سودانية خالصة لا كما كـان الذي يراهـا متحسرا :

قف بنا نملأ البـلاد حماسا ونقوض من ركنها المرجحـين

هي للنازحين مورد جـود وهي للآهلين مبعـث ضـن

يستدر الاجانب الخير منها والثراء العريض في غير مـن

ابطرتهم بلادنا فتعالى ابـن أثينـا واستكبـر الارمنـى

يا بلادي أخلصتـك الخير واستعفيت ودي اليك من كل مين

يا بلادي وأنت أضيق من رز قي مجالا ودون اخرات اذنى

أجل لقد عبر هذا الشاعر العبقري الفذ عن روح جيله الذي ظهـر

بعد الحرب العالمية الاولى وراح يبحث عن مكان له فاذا به لا يجد لنفسه مكانا الا في الاطراف ، واذا به غريب عن مدينته الكبرى وعاصمته التليدة . والمطالع لمجلة الفجر ومجلة النهضة يمكنه أن يرى هذه الروح وهذه النفسية . ولقد ذكر مثقف كبير كيف استكثر عليه أحد الاداريين الانجليز أن يشتري كتابا انجليزيا . ونفس الكاتب حمل في الفجر حملة شعواء على يهودية كانت تركب الترام وسقطت منها كلمة تدل على تبرمها من جو البلاد . والحق أن المقال حملة على الاجانب المستمعين بخيرات البلد ولا يعطونه وجدانهم . وأديب آخر حمل حملة شعواء على الثرى كوتتميخالوس صاحب الشركات لانه تكلم في حفل عقده لوفد اقتصادي مصري استوفده من مصر بجهده واستضافه وأظهر أنه في مكان يعطي فيه النصح للمصريين بالنيابة عن السودانيين وفي مكان يأخذ فيه على السودانيين بعض الاخذ .

ولكن الاجانب مضوا في غيهم حتى جاء الاستقلال ثم هربوا الاموال وخربوا اقتصاد البلاد مستغلين الفوضى السياسية . فاذا بهم وأترابهم يدفعون ثمن ذلك ويعود الحق لاهل الحق .

وأكبر الجاليات هي الجالية المصرية ، وهي اقرب الجاليات الى نفس الشعب السوداني . ولها مثيل في كل المدن السودانية الكبيرة وبالاخص في عطبرة ومدنى .

والى ما قبل الاستقلال كان الاقباط جالية خاصة . أما المصريون المسلمون فلم يكن لهم تنظيم خاص ، وكانوا يندمجون تلقائيا في حياة السودانيين .

وأغلب المصريون رسل حضارة . فهم معلمون في مدارس مصر الكثيرة ومؤسساتها الثقافية والجامعات أو خبراء في مصالح الحكومة السودانية ومؤسساتها الثقافية والجامعات أو خبراء في مصالح الحكومة

السودانية ومؤسساتها أو موظفون في الري المصري • والقليل منهم يعمل بالتجارة • والغالب من المقيمين منهم بشكل ثابت من الاقباط وقد حاز أغلبهم على الجنسية السودانية • وكانوا يبلغون في الخرطوم وحدها في ١٩٣٥ نحو ١٤ ألفا وكان أغلبهم وما زال الى حد ما يعملون في السكك الحديدية والشركات والبنوك والهيئات التعليمية •

وللانصاف ينبغي أن نذكر أن المصريين كانوا صادقين في خدمة البلاد والعمل لنهضتها ولم يشتركوا في حمى التهريب والهروب التي سادت الجاليات الاجنبية بل الملاحظ أن الرغبة في الاستيطان والاندماج في البلاد هي الرغبة العامة •

ومن الجاليات العربية الجالية السورية ، وهم لبنانيون وسوريون وهي جالية قديمة ولهم ناد وجمعية خيرية • ومنها الجالية اليمنية التي يعمل أغلب أفرادها في البقالة وقد قل عددهم في السنوات الاخيرة بدرجة محسوسة •

وهناك جاليات افريقية كبيرة تعد بالالاف في كل مدينة وفي بعض القرى • وأغلبهم وافدون من السودان الغربي من جمهوريات تشاد والنيجر ونيجريا ، وقد فاز أغلبهم بالجنسية السودانية واستقر في البلاد الا أنهم نادرا ما يندمجون في سكان البلاد أو يغيرون من عاداتهم ، ولكنهم نشطون ويقبلون على العمل وهم لهذا يعتبرون قوة اقتصادية •

ومن الجاليات الافريقية المهمة الجالية الحبشية • أما الاسيوية فأهمها الجالية الهندية • وأهم الجاليات الاوربية هي الجالية اليهودية ، وهي قليلة الاثر الآن لان أغلب اليهود قد فروا من البلاد ، والجالية الايطالية والجالية القبرصية والجالية الارمنية والجالية الاغريقية وقد انخفض عدد أفراد هذه الجاليات نسبة الى حمى الهجرة •

واليك الان بعض احصائيات عن سكان الخرطوم :

السنة	أمدرمان	الخرطوم بحري والضواحي	الخرطوم	الخرطوم الكبرى
١٩٢٥	٣٢٢١١	٨٤٢٣١	٧٨٧٣٣	١٩٥١٧٤
١٩٣٠	٥٠٤٦٣	١٠٧٧٢٠	١٠٣٥٦٩	٢٦١٧٥٢
١٩٣٥	٤٦٧٧٥	١٠٢٨٢٣	١١٠٩٥٩	٢٦٠٥٥٧

ويمكنك أن تلاحظ تحولات السكان من مدينة لاخرى والارتفاع السريع في السكان في العشرينات ثم المحافظة على مستوى واحد في الثلاثينيات • وبالطبع فان احصائية بحرى تشمل سكان الضواحي كما هو واضح • واليك احصائية تظهر سكان المدن الثلاثة مع المقارنة بالمدن الكبرى ومدى التزايد في السكان :

المدينة	السان ٥٥/١٩٥٦	السكان ٦٥/٦٦	الزيادة	النسبة المئوية
أم درمان	١١٣٥٥١	١٨٥٣٨٠	٧١٨٢٩	٪ ٦٣
الخرطوم	٩٣١٠٣	١٧٣٥٠٠	٨٠٣٩٧	٪ ٨٦
الخرطوم بحرى	٣٩٠٨٢	٨٠٠٠١	٤٠٩١٩	٪ ١٠٤
المدن الثلاثة مجتمعة	٢٤٥٧٣٦	٤٣٨٨٨١	١٩٣١٤٥	
بورتسودان	٤٧٥٦٢	٧٨٩٤٠	٣١٣٧٨	٪ ٦١
كسلا	٤٠٦١٢	٦٨١٣٠	٢٧٥١٨	٪٦٧و٧
وادمدنى	٤٧٦٧٧	٦٣٦٦٠	١٥٩٨٣	٪٣٣و٥
الابيض	٥٢٣٧٢	٦٢٥٦٠	١٠١٨٨	٪ ١٩
عطبرة	٣٦٢٩٨	٤٨٢٥٠	١١٩٥٢	٪٣٢و٥
الفاشر	٢٦١٦١	٤٠٥٤٠	١٤٣٧٩	٪ ٥٤
نيالا	١٢٢٧٨	٢٦١٦٠	١٣٨٨٢	٪ ١١٠

الجنينة	١١٨١٧	٢٠٧٤٠	٨٩٢٣	٧٦ ٪
المجموع	٥٢٠٥١٣	٨٤٧٨٦١	٣٢٧٣٤٨	٦٦و٧ ٪

لا بد ان القارىء قد لاحظ ان صورة الخرطوم في العصر التركي صورة مهزوزة وأن بيانات الواصفين تتفاوت وتتعارض • إن الامر في ذلك يرجع الى أن المدينة كانت تتسع وتتطور على الدوام ، وقد وصف كل واصف المدينة وهي في مرحلة معينة • وكان الواصفون بالاضافة الى ذلك يهتمون بالمشاهدات الخاصة والذكريات والغريب من أعمال البشر وعمل الطبيعة حتى يغروا القارىء الاوربي الذي كان يتوقع كل غريب في أوحال افريقيا • ولم يتيسر لاحد من الرحالة أن يصف المدينة وصفا شاملا وأن يعطي فكرة مكتملة عن معالمها وأجزائها المختلفة بل تركز أبلغ اهتمامهم على الاحياء الاستقراطية ومجتمع الاوربيين والسراة •

أما عن الخرط فان المشهور خريطة وحيدة أعدت بعد هرب سلاطين من أم درمان الى مصر بناء على وصفه للمدينة • وعندما أعدت هذه الخريطة كانت المدينة قد اندثرت ودخل السودان في مرحلة تاريخية أخرى وكان سلاطين نفسه قد لاقى في السنوات التالية لاسره أهوالا لا بد أنها أنسته الكثير عن المدينة • وهو نفسه لم يعمل في هذه المدينة ولم يستقر فيها طويلا حتى يعرف تفصيلاتها وأحياءها • وعلى ذلك فان خريطة سلاطين مفتقرة الى الدقة والضبط • ولكنها مع ذلك تعطينا بيانات وتظهر أحياء لا يرد لها ذكر في الخرط التي سنذكرها فيما يلي •

ولقد وجدت في دار الوثائق العربية القومية بالقاهرة خريطتين للخرطوم ، وهما في مظروف خاص بأوراق مأمورية أحمد حمدي بك ياور الخديوي الذي ارسل في مهمة خاصة الى السودان أثناء توجه حملة هكس باشا الى الغرب • واولى الخريطتين في حجم فلسكابين ومرسومة على ورق التلك ، وقد رسمت في ٢٩ جماد آخر ١٣٠٠ ويظهر فيها موقع الخرطوم وطابيتها والجنائن وشاطىء النيل الابيض عند الفيضان العادي

ثم حدها عند الفيضان العالي ثم الترس الذي أقيم لصد مياه الفيضانات • وفي الطرف الاخر تظهر طابية أم درمان وخور أبي عنجة وحلة بجنوب الطابية لعلها أبو سعد •

والخريطة لا تذكر تفصيلات عن المدينة نفسها وانما تبين الحيز المعمور فقط •

أما الخريطة الثانية فطولها متران وعرضها ثمانون سنتمترا وهي على ورق التلك أيضا • وقد جاء بأسفلها ما يلي : « قد صار رسم الاستحكام جميعه وبندر الخرطوم كما هو مبين بهذه الخريطة من على الارض • ورسم هذه الصورة بمعرفة صاغعول مهندس حربي عباس رسمي وجارى الان تصليح وترميم الاستحكامات أول بأول بمعرفتنا في ١٤ ربيع أول ١٣٠١ » • ثم يأتي أمضاء عباس رسمي •

وبصفة عامة يمكن أن يعتبر شكل الخرطوم كما يؤخذ من هذه الخريطة وفي التاريخ الذي يذكره أي في اواخر أيام الخرطوم في العهد التركي كالآتي :

من الناحية الشرقية يفصل خط الاستحكام بين المدينة والطرف الاخر وهذا الطرف الاخر عبارة عن منطقة زراعية • وقد وصفتها الخريطة بأنها أرض زراعية خارج الاستحكام • وهي توازي المنطقة التي كانت تشغلها القوات البريطانية وراء خط السكة حديد والى ما وراء بيوت الجامعة وهي المنطقة التي بها الان وزارة التربية وداخليات جامعة الخرطوم وبعض المدارس • ويظهر في الخريطة بوابة برى ومحل اقامة بلكين الى جنوب البوابة والى الجنوب الشرقي مركز الجبخانة ومحل اقامة البلك الذي يحرس مركز الجبخانة وعلى بعد بعيد منها وفي نفس الاتجاه طابية بها مدفعان وصاروخ •

هذا من جهة الطرف الذي يسير مع الاستحكام بالجهة الشرقية

والشرقية الجنوبية ٠ أما في حذا النهر فنجد ما يلي :

تسير الاراضي الزراعية والجنائن حتى الترسانه ٠ وهذه هي المنطقة التي تشغلها الان جامعة الخرطوم والمباني الواقعة غربها حتى السودان كلب ٠ ثم نجد الترسانة وأرض فضاء ميرى جنوبها ٠ ثم مساكن عساكر الترسانة والى الجنوب منها حديقة تخص بعض الاهالي ثم أرض زراعية خاصة ٠ وبغرب هذه المجموعة شونة الميرى والى الجنوب منها أرض فضاء ميرى والى الغرب من هذه المجموعة نجد مجموعة المباني التي تكون السراي وهي مبنى السراي والمشرع أمامه والحديقة والارض الزراعية التابعة له ثم بعض المباني الملحقة بالناحية الغربية ٠ وبغرب السراي فضاء واسع ثم يأتي مباني الحكمدارية ومديرية الخرطوم ، وفي طرفها الجنوبي الشرقي بارزا في الفضاء مكان للطوبجية ٠ وهذه المجموعة من الادارات محاطة من كل الجهات بفضاء واسع وبالاخص في جانبيها الشرقي والجنوبي والى الغرب منها منطقة سكنية للاهالي والى الجنوب منها عدة منشآت وصفت بأنها مخزن وعمارات ميرية والى الغرب منها منزل وقف ثم مساكن أهالي ٠ ثم يلي ذلك والى مسافة طويلة الجنائن ومزارع الاهالي حتى المقرن ٠ واذا أخذنا في الحساب المنطقة المعمورة والمنطقة الزراعية بالطرف الشرقي والطرف الغربي لبلغ المعمور نحو الربع ، وبلغ المزروع بالشرق ربعا والمزروع بالغرب نحو النصف ٠ وتظهر في الخريطة المنطقة التي تغمرها مياه الفيضان العادي وهي منطقة واسعة جدا ويمتد لسان لها نحو الشمال الشرقي ، ويبدو أن هذه المنطقة كانت في الاصل جزءا من النيل الابيض ٠ وتظهر أيضا المنطقة التي تغمرها مياه الفيضانات العالية والتي تنتهي بترس ٠ وفي هذا الطرف أي الجنوبي الشرقي من المدينة نجد الاستحكامات وما يتعلق بها من الوحدات والمنشئات ٠ وفي داخل خط يتعرج على الدوام الى الجوانب المختلفة وضع الراسم مدينة الخرطوم وكتب عليها البندر ، وهي محاطة بأرض فضاء يمتد شرقا وغربا من الجهة الجنوبية وفي وسط المدينة من جهة الجنوب يمتد الفضاء الى الداخل في

شكل لسان يتجه الى الشمال ثم الى الغرب ، وهذا اللسان يكون المقبرة القديمة وهي التي كانت تقع في منطقة مقبرة الحكام والنادي العربي وسينما كوليزيوم ومنطقة شارع القصر الان ، ثم ميدان المولد النبوي ويظهر داخل ميدان المولد الجامع ، وهو الجامع الثاني أي جامع عباس الذي يقع غرب ميدان أبي جنزير •

من المؤسف حقا أن الخريطة تهتم بالاوضاع العسكرية فقط وأنها بالتالي لا تبين المواضع المدنية وتقسيماتها • وقد تفادت تفصيلات كثيرة في حي الحكمدارية واكتفت بابراز المواضع المهمة • كذلك تفتقر الخريطة الى مقياس الرسم •

واذا انتقلنا الى أم درمان فاننا نجد في نفس مجموعة أحمد حمدي خرطا في غاية الدقة لاستحكامات أم درمان والمناطق المجاورة لها • وقد ظهرت حلة لعلها أبو سعد الى الجنوب ولكن دون أن يذكر اسمها او تقسيماتها •

ثم هناك الخريطة التي أعدت بناء على وصف سلاطين ، وهي مبنية على الذاكرة وعلى مقدار ما اختزنه ذهن سلاطين عن المدينة وتقسيماتها وتعاريجها • وفي رأيي أنها ، حتى وان كانت تفتقر الى الضبط والدقة فيما يختص بالتفصيلات وخاصة في اطراف المدينة والاحياء المدنية ، تعطي فكرة واضحة وقريبة الى الحقيقة فيما يختص بالتقسيمات الكبيرة وتوزيع المجموعات القبلية والسياسية والعسكرية •

ولا بد لنا في ختام هذا الفصل أن نتكلم عن مصادر البحث بصفة عامة ، لاننا قد عالجنا تفصيلاتها في كشف المصادر الذي يأتي في نهاية الكتاب ولان وصف المصادر مهم لمن يقدمون على دراسة هذا الموضوع في المستقبل ، خاصة ومجال الدراسة واسع والمصادر كثيرة وأغلبها لم تستغل علميا الى هذا اليوم •

ان البيانات التي ذكرناها عن الخرطوم قبل الفتح التركي تعتمد على التخمين والاستنتاج أكثر من أي شيء آخر خلاف المعلومات الخاصة عن الاثار القديمة التي اكتشفت وسجلت علميا والبيانات الخاصة عن خلوة أرباب العقائد . وقد خلت المصادر السودانية المتاحة الى الان كطبقات ود ضيف الله وتاريخ كاتب الشونة وسجلات الاراضي المكتشفة الى الان عن ذكرها . ونحن نستنتج من هذا ان الموضع لم يكن يشكل أهمية .

وفي العهد التركي نجد مصادر مختلفة . هناك كتب الرحالة الاوربيين وهم مهتمون بالاكتشافات العلمية في النبات والحيوان وغيرهما وبمجتمع الاوربيين والسراة وبنظام الحكم وبعض القضايا التي كانت تشغل أذهان الناس في تلك الايام كتجارة الرقيق والفساد الاداري وفرص التجارة . ولذلك فان هذه المصادر تعتبر وافية في هذه الجوانب أما عن تكوين المدينة وتقسيماتها وحياة طبقات العامة والفقراء ومجتمعهم فقد أهملها الرحالة .

وهناك انطباعات بعض المصريين ، وهؤلاء كانوا مهتمين بالعمران عامة ولذلك نجد ذكر المباني والمنشئات الكبيرة والشوارع المهمة وأزياء المجتمعات العالمية .

وتوجد بدار الوثائق العربية القومية وثائق كثيرة عن المدينة ، وقد وقفت على جملة منها وبينتها في كشاف المصادر ولا بد أن يكون هناك عدد آخر ولكن استقصاءها يحتاج الى معاناة طويلة لافتقار الدار الى الكشافات التي تهدى القارىء الى ما يريد .

وفيما يختص بحصون الخرطوم والوقائع الحربية حولها فان غالب الاعتماد على تقرير نصحي باشا . ويوجد النص العربي الوحيد لهذا التقرير المهم في الخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية . وهذا النص

منقول عن الاصل أو نص قريب منه ، اي أنه ليس الاصل . وهو مكتوب بخط جميل متأن . وقد ترجم نعوم شقير هذا التقرير الى اللغة الانجليزية ثم نظر ونجت في هذه الترجمة وأعد نصا جديدا هو المعتمد . وتوجد النصوص الاهلية للترجمتين في دار الوثائق السودانية . وقد نشرت الدار الترجمة الاخيرة منذ سنوات .

وقد نقل نعوم المعلومات التي ذكرها في تاريخه عن وقائع الخرطوم عن هذا التقرير وكذلك فعل ونجت . وعنه أيضا أو عن ونجت ونعوم أخذ سائر المؤلفين .

ويقابل هذا الوصف الذي يذكره اسماعيل عبد القادر لهذه المعارك في كتابه سعادة المستهدي بسيرة الامام المهدي . وهذا الوصف يعد مطابقا لرأي الانصار وما يرونه في هذا الموضوع .

وهناك — طبعا — مذكرات غردون .

وفي بداية العهد الثنائي نجد ذلك التقرير المهم الذي أعده الكولونيل استانتن والذي كان مديرا للخرطوم في أوائل العهد الثنائي واننا — بحق — لا نجد نظيرا لهذا التقرير . كذلك نجد فصولا مهمة في التقارير الدورية التي كانت تصدر عن رئاسة المديرية أو عن الحاكم العام .

وتوجد بدار الوثائق المركزية السودانية وفي أضابير وزارة الاشغال وقسم اشغال الخرطوم ملفات هامة عن المدينة . ونشير بوجه خاص الى دليل مديرية الخرطوم Khartoum Province Handbook وتقارير لجنة التخطيط . وفيما عدا هذه توجد كنوز من الوثائق في مكاتب الاراضي ومحفوظات المديرية والبلديات والتخطيط والاقسام المختصة بالخدمات ، وهي تحتاج الى جهد كبير يبذل من أجل الضبط والتنظيم ووضع الكشافات المساعدة ونفس هذا القول ينطبق بحذافيره على مدينتي أمدرمان والخرطوم بحري .

وبالنسبة الى مدينة أم درمان في فترة المهدية فاننا نعتمد فيما يختص بالمدينة نفسها على ما ذكره سلاطين واهرولدر وابراهيم فوزي وغيرهم من المشاهدين • ولكن لكل واحد من هؤلاء اهتماماته الخاصة • فسلاطين مثلا مهتم بالنظم السياسية والاجتماعية والعسكرية بينما يهتم ابراهيم فوزي بذكرياته وحياته الخاصة • أما كتاب المستهدي وهو المؤلف الوحيد الذي يعبر عن الجانب المهدوي فلا يهتم الا بقبة المهدي والمسجد، وقد وصف هذين الموضعين وصفا شاملا وأعطى بيانات دقيقة عنهما • وقد وردت اشارات مقتضبة عن المدينة والحياة فيها في كتاب علي المهدي والذي طبع بعنوان « جهاد في سبيل الله » وهو وان كان من المصادر التي تعبر عن آراء المهدويين الا أنه في الحقيقة يعبر عن المهدويين الاواخر أي جماعة السيد عبدالرحمن خاصة وهو مهتم أساسا بالتاريخ السياسي• وقد تأثر صاحبه بالقراءات المختلفة والتي شملت المصادر الانجليزية والمصرية •

وهناك مصادر غنية عن المدينة في تقارير المخابرات المصرية الحربية وان كان أغلبها متعلقا بالحياة السياسية والاجتماعية • ونود أن نشير بصفة خاصة الى التقرير الشهري رقم ٦٠ والذي أعد بعد الفتح مباشرة • ان هذا التقرير يحتوي على معلومات وبيانات كثيرة عن المدينة وأخبارها وحصونها وأقسامها واداراتها المختلفة ولكن من المؤسف أن بعض التقارير الخاصة لم تضمن في التقرير المطبوع وانما رفعت للمسئولين بشكل منفصل • وقد ذكر التقرير هذه التقارير الخاصة وبين أنها توجد بمعزل عنه ولكننا لم نهتد اليها الى الآن •

دار الوثائق القومية العربية (بالقاهرة) ــ الوثائق التالية من المجموعة المترجمة من اللغة التركية الى اللغة العربية ومحفوظة حسب تتابعها الزمني :

وثيقة بتاريخ ١٦ رجب ١٢٨٦ هـ عن وفاة أبي صالح خليفة الشيخ الطيب •

وثيقة بتاريخ ٢٨ شوال ١٢٨٦ هـ عن مسجد الخرطوم .
» » ٢٩ جماد ثاني ١٢٨٦ هـ عن التعليم في مساجد المدن
» » ١٢٤١ (١٦/١٢/١٨٢٤) عن موافقة محمد علي على مقر الخرطوم .

» » ١٩ جماد ثاني ١٢٣٩ عن حركات الدفتردار .
» » ١٣ ربيع آخر ١٢٤٠ تقرير عثمان جركس عن الخرطوم وكردفان والاحوال في القرى .

» » ٢٣ ربيع آخر ١٢٤٠ عن الخرطوم وتوزيع القوات .
» » ٣ شعبان ١٢٤٠ عن الخرطوم وتوزيع القوات وفصل كردفان .

» » ٢٥ ربيع أول ١٢٤٣ عن ناظر مراكب سنار .
» » ٢٥ ربيع اول ١٢٤٣ عن صناع المراكب القادمين من مصر .

» » ٢٥ ربيع أول ١٢٤٣ عن عمل القوارب في السودان .
» » ٢٧ محرم ١٢٣٧ عن الحلفاية .
» » ٢٧ جماد آخر ١٢٣٧ عن الحلفاية وحوادثها .
» » ٢٩ شوال ١٢٣٧ عن نقطة الحلفاية والعاصمة بمدني .
» » ٢٢ شوال ١٢٨٨ عن موت محمد راسخ بالشلال غرقا .
» » ٢٢ جماد أول ١٢٨٢ عن مرتبات لشيوخ الخلاوي .
» » ٤ محرم ١٢٨٧ عن حالة المدن في السودان ومشاكلها ومبانيها .

» » ٢٩ جماد ثاني ١٢٨٦ عن أماكن التعليم في المساجد والمدرسين .

وثيقة بتاريخ ٢٩ جماد آخر ١٣٠٠ خريطة الخرطوم .
» » ٢١ شوال عن حاكم الحلفاية .
» » ١٤ ذي القعدة ١٢٣٦ عن أن سنار مقر الحكم .
» » ٨ جماد آخر ١٢٣٨ عن حملة الدفتردار .
» » ١٣ شوال ١٢٦١ عن انشاء مسجد بالخرطوم لتعليم القرآن .

» » ١٦ صفر ١٢٦٣ عن رواق السناريين .
» » ٢٦ شوال ٢٦٣ عن مسجد ومدرسة وسوق بدنقلا .
» » ٩ جماد آخر ١٢٥٥ عن سودانيين لمعاهد الزراعة بمصر .

» » ١٩ محرم ١٢٧١ عن مدرسة الخرطوم .
» » ١٠ شعبان ١٢٩٢ عن انشاء مديرية اسوان .
» » ١٢ صفر ١٢٨٨ عن ترسانة الخرطوم .
» » ٢٠ جماد آخر ١٢٧٩ عن قنصل استريا (النمسا)
» » ٢٧ صفر ١٢٤٥ عن نقل ترسانة الخرطوم الى مكان مرتفع .

» » ١١ ربيع ثاني ١٢٨٢ عن عصيان بعض الجند ونهب الخرطوم .
» » ١٩ ذي الحجة ١٢٦٢ عن اعادة بناء مخزن الزخيرة بالخرطوم .

» » ١٧ محرم ١٢٧١ عن استئجار الاجانب لمراكب الميري للتجارة .

» » ٢٣ ربيع أول ١٢٤٤ عن صناعة المراكب وتدريب الصناع .

وثيقة بتاريخ ٢٨ صفر ١٢٦٠ عن ثورة الجند بمدني .

» » ٢٣ شوال ١٢٨٣ عن أبنية الخرطوم .

» » ١٥ جماد أول ١٢٨٦ عن وصول خط التلغراف الى الخرطوم .

» » ٩ شوال ١٢٨٢ عن قنصل بروسيا .

» » ٨ شعبان ١٢٧٩ أحمد أبوسن مديرا للخرطوم عوضا عن محمد راسخ .

» » ٧ جماد ثاني ١٢٨٧ عن فصل مديرية بربر .

» » ٢٧ شوال ١٢٤٠ عن وفاة عثمان بك جركس .

» » ٢٧ شوال ١٢٤٠ عن وفاة عثمان بك جركس وتعيين محو بك .

» » ٨ صفر ١٢٦٧ عن عرائض القناصل بالخرطوم .

» » ١٥ ذي القعدة ١٢٧١ عن شكوى مدير الخرطوم السجين .

» » ١٩ شعبان ١٢٨٧ عن تدريب السودانيين في بعض الوظائف الفنية .

» » ٢٠ محرم ١٢٧٤ عن التجار الاوربيين .

» » غاية ذي الحجة ١٢٨٧ عن التدريب لمهنة الطب .

» » ٢١ ربيع ثاني ١٢٧١ عن الغاء مدرسة الخرطوم .

» » ١٥ مايو ١٢٧٧ عن ترسانة الخرطوم

» » ١٨ ذي الحجة ١٢٨٠ عن زعيم النقشبندية الى السودان .

» » ٩ محرم ١٢٨٦ عن قنصل فرنسا ببربر .

» » ٦ رجب ١٢٧٦ عن بناء سراي الخرطوم .

» » ١٠ ذي القعدة ١٢٧٩ عن مدارس السودان .

» » ٢٣ جماد أول ١٢٨٣ عن الخرطوم وأمطارها وتوتى .

المصادر

ابو سليم ، محمد ابراهيم (الدكتور)	سلسلة مقالات عن الخرطوم وامدرمان والخرطوم بحرى في مجلة الخرطوم . الفونج والارض القصر الجمهوري : وصف وتاريخ .
احد ادباء مصر .	رسائل عن السودان . نشرت بجريدة الاهرام ١٨٩٦ وصدر عدد من المقالات في كتاب .
سلاطين ، رودلف	السيف والنار في السودان ـ ترجمة جريدة البلاغ طبعة مكتبة الحرية بأم درمان .
الشاطر بصيلي عبد الجليل	تاريخ سودان وادي النيل .
شبيكة ، مكى (الدكتور) .	السودان في قرن . السودان عبر القرون .
شقير ، نعوم .	تاريخ السودان (طبعة بيروت) .
الطهطاوي ، رفاعة رافع .	مناهج الالباب المصرية .
عبدالله حسين .	السودان القديم والجديد .
عنايات الطحاوي .	اقليم الخرطوم (دراسة جغرافية لأهم الظاهرات الطبيعية والبشرية)
كاتب الشونة ، احمد بن الحاج علي	تاريخ ملوك سنار (او **مخطوط كاتب** الشونة) . **نسخ مختلفة .**

كشه ، سليمان . تأسيس مدينة الخرطوم والمهدية (الخرطوم ١٩٦٦) .

مازري ، صلاح المدينة السودانية الحديثة ـ مجلة الدراسات السودانية عدد (٢) .

المبارك ابراهيم تاريخ مدينة الخرطوم ، نشأتها وما قاله الكتاب والشعراء فيها من المدح والهجاء (الخرطوم ١٩٤٠) .

محمد صبري (الدكتور) الامبراطورية السودانية .

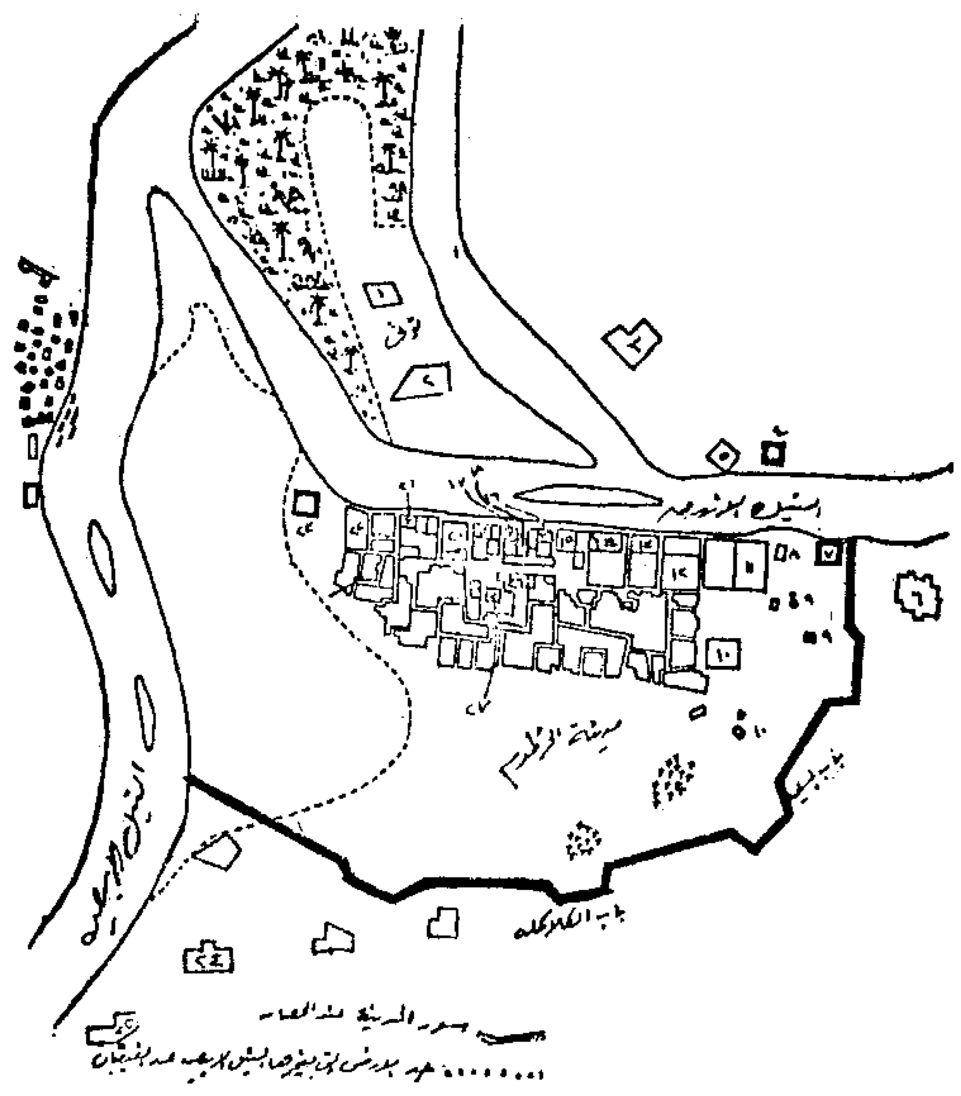
محمد فؤاد شكري (الدكتور) الحكم المصري في السودان .

محمود طلعت . غرائب الزمان في فتح السودان .

محمود القباني . مدينة الخرطوم .

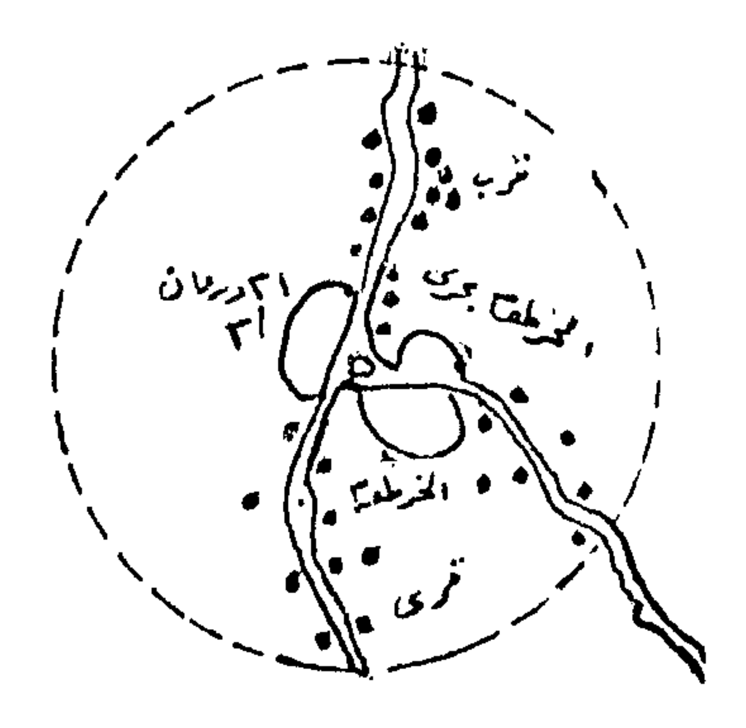
ود ضيف الله ، محمد النور . طبقات الاولياء .

مصطفى حامد الامين ام درمان . الخرطوم ١٩٥٤ (مكتب النشر) .

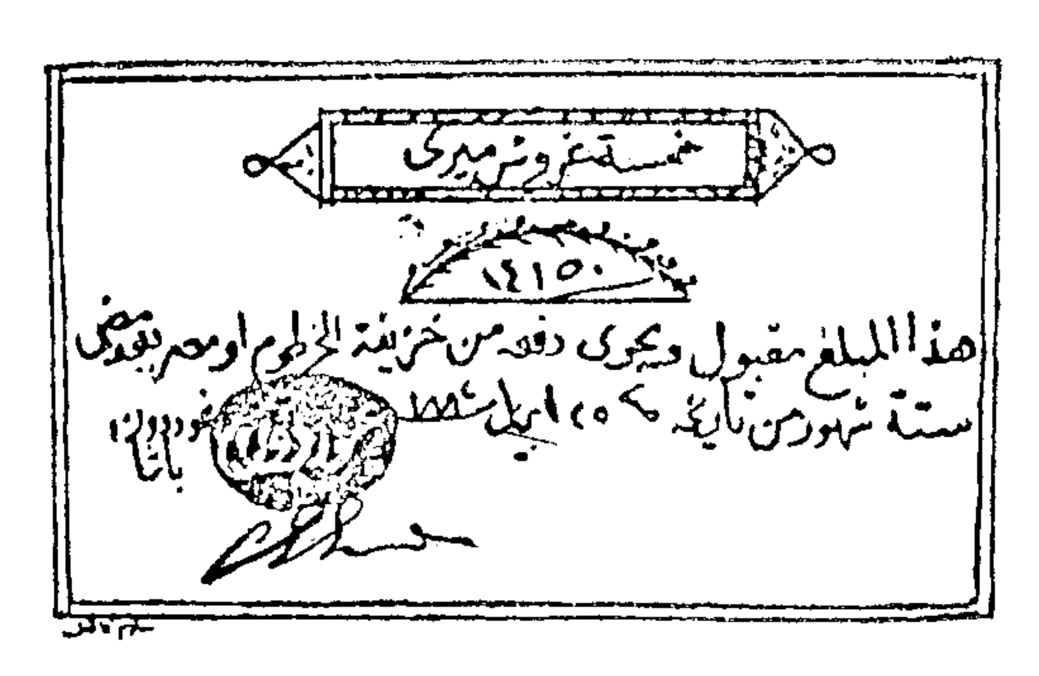


خريطة مدينة الخرطوم في نهايـــة العهد التركي كما رواهـــا سلاطين

١ ـ مخزن البارود
٢ ـ حلة توتي
٣ ـ قبة الشيخ خوجلي
٤ ـ طابية الشرق
٥ ـ قصر راسخ
٦ ـ حلة برى
٧ ـ طابية برى
٨ ـ مستشفى الخرطوم
٩ ـ مخازن سلاح
١٠ ـ مصنع خرطوش ومهمات عسكرية
١١ ـ القشلات
١٢ ـ الترسانة
١٣ ـ الشونة
١٤ ـ السراى
١٥ ـ قصر الحكمدارية
١٦ ـ القنصلية النمسوية
١٧ ـ البوستة والمالية
١٨ ـ المديرية
١٩ ـ الصحة
٢٠ ـ الكنيسة الكاثوليكية
٢١ ـ كنيسة الاقباط
٢٢ ـ حدائق
٢٣ ـ طابية المقرن
٢٤ ـ حلة الكلاكلة
٢٥ ـ حلة شجرة محو بك
٢٦ ـ القنصلية الفرنسية
٢٧ ـ القنصلية الايطالية



خريطة للمدن الثلاثة والقرى المجاورة

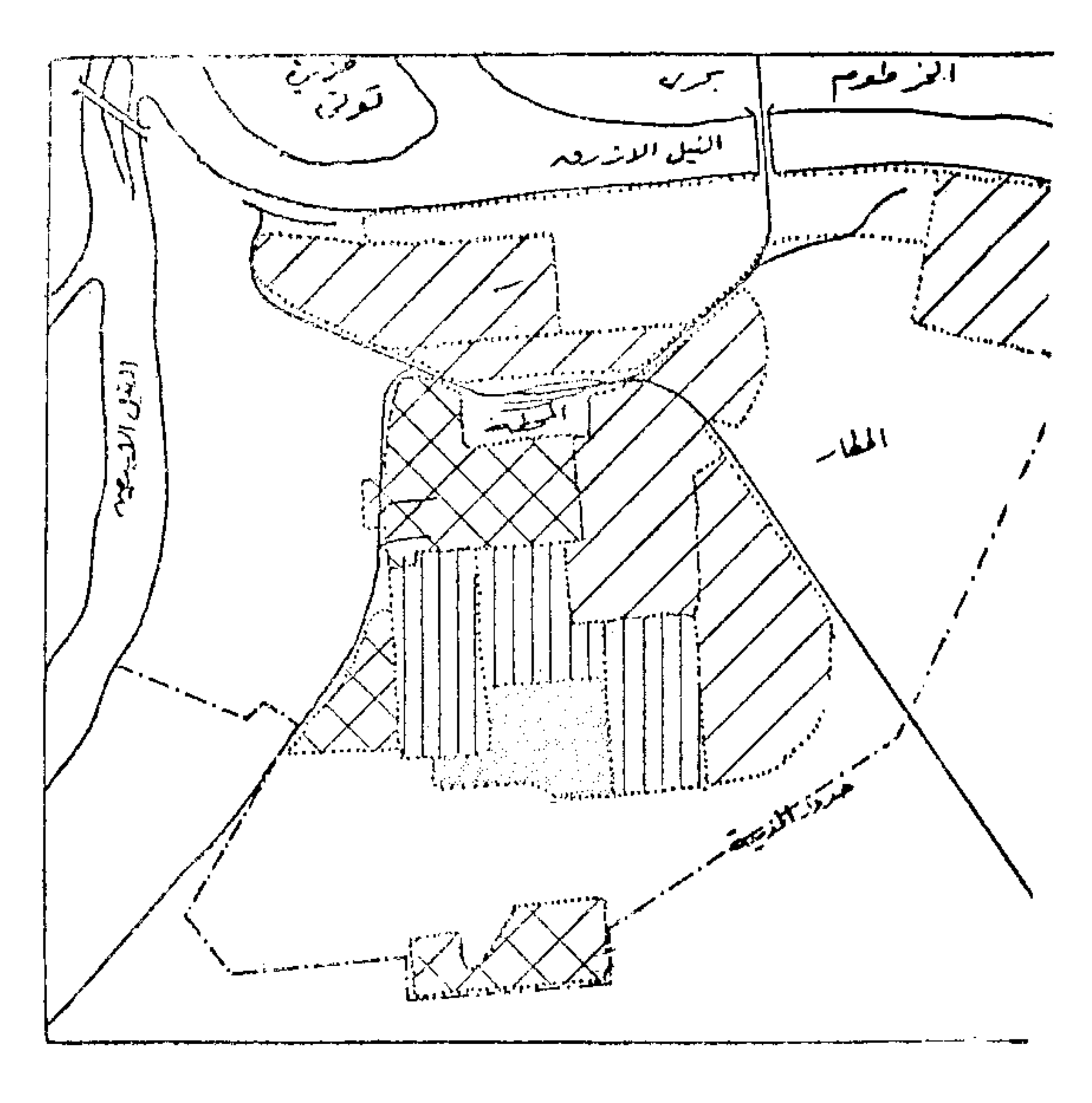


خمسة غروش ميري

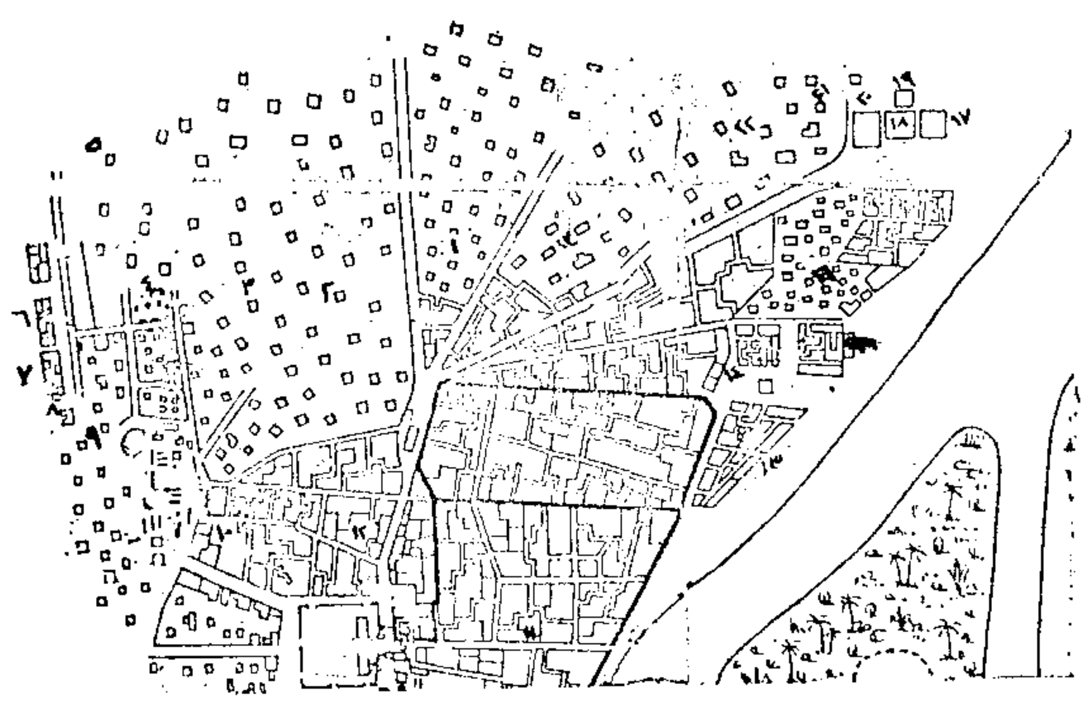
هذا المبلغ مقبول ويجرى دفعه من خزينة الخرطوم او مصر بعد مضي ستة شهور من تاريخه ٢٥ ابريل ١٨٨٤

غوردون باشا

العملة الورقية التي اصدرها غوردون اثناء الحصار

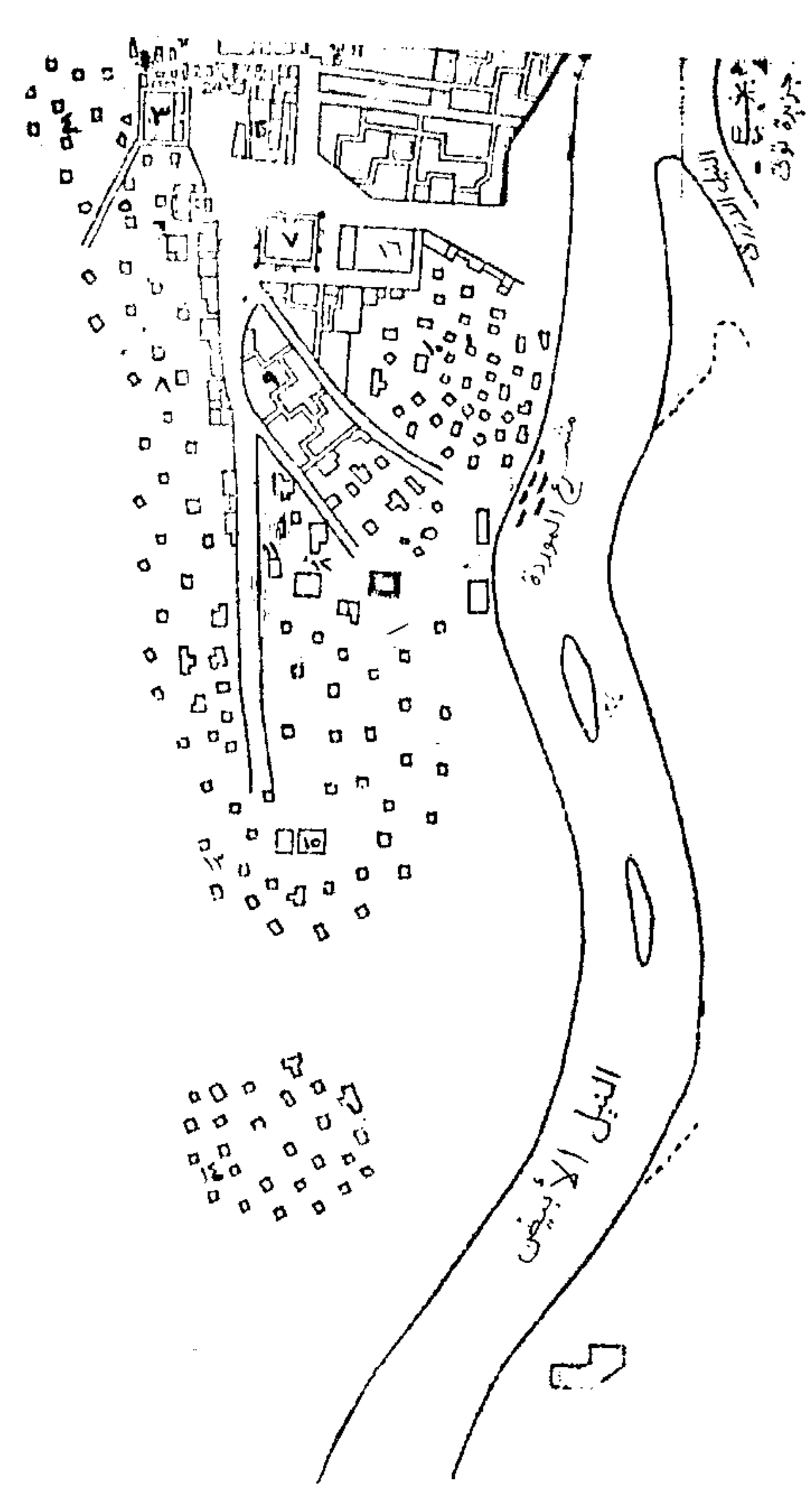


مدينة الخرطوم قبل الاضافـــات الجديدة



خريطة ام درمان في فترة المهدية :
القطاع الشمالي

١ ـ مقبرة الشهداء
٢ ـ الجوليون
٣ ـ المسلمانية
٤ ـ المقابر
٥ ـ حي الدناقلة
٦ ـ منزل احمد شرفي وعائلة الخليفة شريف
٧ ـ الكنوز والنوبيون
٨ ـ سوق الحريم
٩ ـ السوق الكبير
١٠ ـ منطقة غرب النيل الابيض
١١ ـ القطاع الاوسط
١٢ ـ منطقة دغيم
١٣ ـ بيت مال الملازمين وكتبة بيت المال وعماله
١٤ ـ مصنع البارود
١٥ ـ بيت المال
١٦ ـ حي المصريين واهل الخرطوم
١٧ ـ منزل الخليفة عبدالله
١٨ ـ مسجد الهجرة
١٩ ـ منزل علي الخليفة
٢٠ ـ الهجرة
٢١ ـ منطقة الحلاوين
٢٢ ـ تجمعات قبيلة مختلفة
٢٣ ـ مقابر الاشراف



خريطة أم درمان في فترة المهدية: القطاع الجنوبي

١ ـ منطقة الرزيقات
٢ ـ منزل يعقوب القديم
٣ ـ منزل يعقوب الجديد
٤ ـ منطقة الكبابيش
٥ ـ مخزن الرايات والطبول
٦ ـ منطقة الحمر
٧ ـ بيت الامانة
٨ ـ منطقة البرنووالفلاتةوالجوامعة

٩ ـ منطقد البرقو والتكارنة
١٠ ـ منطقة لاهل الغرب
١١ ـ حوش الجهادية السود
١٢ ـ منزل قائد الجهادية
١٣ ـ ديم يونس
١٤ ـ حلة الفتيحاب
١٥ ـ منزل الخليفة
١٦ ـ مصنع الذخيرة

فهرست